موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

د. جورج حبيب بباوي

خَطِيئَةُ آدَمَ وَوِرَاثَةُ المَوتِ

بَحثٌ آبائيٌّ مِنَ العَصرِ الرَّسُولي إلىَ القِّديسِ سَاويرُس الأنطَاكِي

www.coptology.org

خطية آدم ووراثة الموت

بحث آبائي من العصر الرسولي إلى القديس ساويرس الأنطاكي

دكتور

جورج حبيب بباوي

دكتوراه في الفلسفة من جامعة كمبردج

٢٠٢١

إسم الكتاب :خطية آدم ووراثة الموت
الطبعة : الأولى . يناير ٢٠٢١
المطبعة : جي سي سنتر
١٤ ش محمود حافظ . ميدان سفير . مصر الجديدة
ت: ٢٧٧٩٦١٣٧

إهداء

إلى آباء الإسقيط،

الأزهار التي تحمل جمال ومجد يسوع

المحتويات

مقدمة ١٣
الإيمان بصلاح الله أساس اللاهوت الشرقي ١٣
مانوية أوغسطينوس ١٤
الحياة النسكية بين الشرق والغرب ١٥
حاجتنا إلى اكتشاف أصلنا في المسيح ١٧
أملٌ ورجاء ٢٠

فصل تمهيدي

الكلمات اليونانية الخاصة بالخطية في العهد الجديد ٢١
خطية آدم: ٢٣

الفصل الأول

ما قبل العلَّامة أوريجينوس ٢٥
بدعة بيلاجيوس ٢٥
العلامة ترتليان (١٥٥ – ٢٤٠) وأصل النفس الإنسانية ٢٧
الله صالح لا ولم يخلق الشر ٢٧
صلاح الله وخلق النفس الإنسانية ٢٨

لفصل الثاني

القديس إيرينيئوس ٣٣
العالم خُلِقَ من أجل الابن الكلمة ٣٤
الإنسان الأول آدم خُلِقَ ليصل إلى الكمال ٣٥
عصيان الإنسان استدعى رحمة الله وشفقته ٣٦
الطرد من الفردوس ومنع الأكل من شجرة الحياة كان رحمةً من الله ٣٧
ثوب الجلد ٣٧

الإنسان دُعيَ إلى التبني في الابن ربنا يسوع المسيح ٣٨
لماذا تجسد الكلمة ابن الله؟ ٣٩
المقارنة بين حواء والعذراء مريم ٤٠
تطبيق المقارنة بين حواء ومريم ٤٠
المسيح جاء ليجمع كل شيء في كيانه ٤٠
برهان الكرازة الرسولية ٤١
الأهمية القصوى للرجوع لمقالة برهان الكرازة الرسولية ٤٢
الله خالق الكون بالابن وبالروح القدس ٤٢
السقوط من البراءة: ٤٣
سقوط آدم وحواء ٤٥
سقوط الإنسان ٤٥
شجرة المعرفة وشجرة الصليب ٤٦
الانتصار في المسيح ٤٧
ضعف آدم الأول ٤٧
تدبير الخلاص في المسيح الذي جاء لكي يجمع كل شيء ٤٨
القديس إيرينيئوس والخطية الأصلية: ٤٩
الخلاصة ٥٠

الفصل الثالث

مدرسة الإسكندرية ٥١
العلَّامة أكليمنضس ٥١
أكليمنضس السكندري ومعمودية الأطفال ٥٢
العلَّامة أوريجينوس ٥٣
الصورة الإلهية في الإنسان ٥٤
الابن هو الفنان الذي رسم صورته في الإنسان ٥٥
شرح العلَّامة أوريجينوس للخطية ٥٥
هل تُبنى عقيدة على نص أو عدة نصوص؟ ٥٧

تجربة الغنوصية ٥٩
العلَّامة أوريجينوس وشريعة التطهير ٦٠
العلَّامة أوريجينوس يشرح العهد القديم حسب الإنجيل ٦١
العلَّامة أوريجينوس ليس أوغسطينوس ٦٢
معمودية الأطفال ٦٢
الشريعة روحية ٦٣
عودٌ على بدء ٦٤

الفصل الرابع

القديس أثناسيوس الرسولي ٦٥
الخلق هو بداية أي خطاب أرثوذكسي ٦٥
المحور الثاقب في لاهوت الإسكندرية ٦٦
أثناسيوس وأنسلم والعصر الوسيط ٦٦
استدراك ضروري ٦٩
سيادة الموت ٧١
كلمات غابت عن تجسد الكلمة ٧٢
الوجود الطبيعي والوجود حسب الصورة ٧٥
المحدود وغير المحدود والمطلق والنسي ٧٥
كلمات أثناسيوس الخالدة ٧٧
ما بين الشركة والطبيعة الفاسدة ٧٨
"العدل"، كلمة غابت تمامًا عن كتاب تجسد الكلمة ٧٩
المعونة والخلاص من الفناء ٨٠
الإنسان بين نعمة الألوهة وفساد الطبيعة ٨١
الفساد ٨٢
مُلك الموت ٨٣
النقطة الفاصلة ٨٦
سُكنى الكلمة في الإنسان ٨٨

ماذا حدث للإنسان؟ ٨٩
الصورة الإلهية هي المصدر الأول لمعرفتنا بالله كخالق ٩٠
غياب "السقوط" من كتاب تجسد الكلمة ٩٢
ماذا كتب الرسولي عن الموت؟ ٩٣
رد الوجود الإنساني إلى الله وعودة الإنسان إلى الحياة. ٩٥
الوراثة ٩٧
الموت أُبيد بقوة المخلص ٩٩
إبادة الموت بقوة المخلص ٩٩
مشكلة الإنسان ١٠٠
الولادة بلا خطية ١٠١
بداية هذا التكوين الجديد ١٠٢
المنظومة اللاهوتية لكنيسة الإسكندرية كما عبَّر عنها ق. أثناسيوس ١٠٣
قبل خلق العالم ١٠٣
عودة إلى تجسد الكلمة ١٠٤
الخلاصة ١٠٤

الفصل الخامس
القديس كيرلس الأورشليمي ٣١٤ – ٣٨٧ ١٠٥

الفصل السادس
القديس باسيليوس الكبير ٣٣٠ – ٣٧٩ ١٠٧
العقل الإنساني ١٠٨

الفصل السابع
القديس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩ –+ ٣٩٠) ١١١
الخلق وتحوُّل آدم وحواء عن الحياة الإلهية ١١٣
ماذا عن خطية آدم؟ ١١٤
هل كانت خطية آدم هي شهوة الألوهة؟ ١١٥

الفصل الثامن ١٣١
القديس غريغوريوس النيصي ٣٣٠ – ٣٩٥ ١٣١
خلق الإنسان على صورة الله ١١٨
الله لم يخلق الشر ١١٩

الفصل التاسع
القديس يوحنا ذهبي الفم ٣٤٧ – ٤٠٧ ١٢١
شجرتان ١٢١
فقدان آدم نعمة الخلود، شهادة ذهبي الفم ١٢١

الفصل العاشر
معمودية الأطفال ١٢٥
دنس الولادة من الأب والأم ١٢٦
ذهبي الفم ١٢٦
الحوار مع اليهودي ١٢٩
المنطق والواقع ١٢٩

الفصل الحادي عشر
القديس كيرلس الكبير ٣٧٣ – ٤٤٤ ١٣١
المنظومة اللاهوتية لكنيسة الإسكندرية بحسب القديس كيرلس ١٣١
آدم كمثال المسيح ١٣٢
الرأس الواحد الذي جمع كلَّ شيءٍ من جديد ١٣٣
نسمة الحياة (تك ٢: ٧) ١٣٥
ما غاب من الوعي العام في زماننا: ١٣٨
عدم الفساد وعدم الفناء / الطبيعة والنعمة: ١٣٩
الفرق بين التسليم الإسكندري وتعليم العصر الوسيط: ١٤٠
السقوط أو التعدي ١٤٢
ما الذي ورثناه من آدم؟ ١٤٣

كيف شرح القديس كيرلس نص رومية ٥: ١٢؟ ١٤٥
الموت هو جوهر المشكلة والمأساة الحقيقية: ١٤٩
العلاقة العضوية بين الفساد والموت والخطية: ١٥٠
علاقة الخطية بالموت وإماتة الخطية: ١٥٥
الفساد كلمة مرادفة للموت: ١٥٦
المسيح أباد الموت عرش الخطية ١٦٠
تحول الإنسان من الفساد إلى عدم الفساد في المسيح ١٦٠
التحول تم بالصلب والقيامة، وليس بالاتحاد وحده ١٦١
شوكة الموت، أو الخطية؟ ١٦١
شوكة الموت هي الخطية التي دُمِّرت بالحياة الأبدية وبالقيامة: ١٦٣

الفصل الثاني عشر

مجمع أفسس ٤٣١ م والحكم على بيلاجيوس ١٦٥
الحجة الأقوى ١٦٦
ما بين أوغسطينوس وبيلاجيوس ١٦٧
المجمع الاقليمي برئاسة يوحنا أسقف أورشليم ٤١٥م ١٦٧
دفاع بيلاجيوس في مجمع اللد في فلسطين ١٦٨
موت آدم حتى لو لم يخطئ ١٦٩
حكم مجمع قرطاجنة ٤١٨م ١٦٩

الفصل الثالث عشر

القديس ساويرس الأنطاكي ١٧١
مقدمة تاريخية ١٧١
بحث د. جورج فرج ١٧٢
المسألة الحرجة ١٧٤
شرح القديس ساويرس ١٧٦

الفصل الرابع عشر
أساسات التدبير كما سُلِّمَت إلينا في الليتورجيات القبطية ١٧٧
"فأكلت بإرادتي" ١٧٧
"أكملتَ التدبيرَ بالجسد" ١٧٨
نحن في السماء مع الملائكة ١٧٨
التدبير الأول ١٧٩
التدبير في مراحل استعلانه ١٨٠
الانتماء إلى الكنيسة ١٨٠
تحوُّل الكيان ١٨١
الدهور الخمسة للتدبير ١٨١
الليتورجيا أيقونة الخلاص ١٨٣
خطية آدم وفقدان الروح القدس ١٨٥
وراثة الخطية وتدبير الخلاص ١٨٦
المحور الكنسي والمحور المعاصر ١٨٨
ممارسة ما نطلبه ١٩١
الخطية الأصلية والممارسة الليتورجية ١٩٢
المسيح آدم الثاني ١٩٣

خاتمة

الأسباب اللاهوتية والتاريخية لرفض وراثة الخطية ١٩٥

مقدمة

رغم أنني أعرف أن غالبية القراء لا يقرأون مقدمات الكتب، إلَّا أنني أرجو القارئ العزيز، ليس فقط أن يقرأ هذه المقدمة، بل وأن يخوض فيها في تمهُّلٍ وصبر، لأنها ليست فضلةً زائدةً، بل هي بمثابة مدخلٍ هام وتوطئةٍ ضرورية، وإطارٍ عام، يحكم فهم ما جاء بهذه الدراسة، ويحفظه ضمن حدود اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي، وهي في النهاية دعوةٌ لعيش حياةٍ روحيةٍ سليمة خالية من مما يعكر صفو الحياة من شعورٍ بالذنب أو احتقارٍ لحياة إنسانية شاركنا فيها رب المجد.

الإيمان بصلاح الله أساس اللاهوت الشرقي

هذه الدراسة ليست هجومًا على أحد، ولا هي نقدٌ لما حدث في تاريخ الفكر المسيحي، وإنما هي دراسةٌ لآباء الكنيسة الذين لم يكن لديهم رغبةٌ في تحديد الفكر المسيحي بالخطية، وإنما بالإيمان بصلاح الله الذي لم يسمح بأن تكون بداية تكوين الإنسان هي ما حدث في التاريخ الإنساني من تمرد على الوصية الإلهية، ولا بأن يصف هذا التمرد الحياة الإنسانية ككل، الأمر الذي استدعي تعطُّف الله وصلاحه.

لم يشأ الله أن يكون هذا التمرد هو الأساس الذي تنبني عليه العلاقة بين الله والإنسان، فجاء الابن الوحيد وأنقذ الإنسان من الخطية، وصار تجسد الابن الوحيد هو العلامة على صلاح الله المطلق الذي لا يمكن أن تصادره فلسفة بشرية. وهكذا أصبح الإيمانُ بعمل المسيح إلهنا الصالح إيمانًا بصلاح الله، والعكس أيضًا صحيح. ولأن المسيح إلهنا صالحٌ ورحيم ومحبٌ للخطاة، فقد أصبح الإيمان بصلاح الله هو المحور الأساسي لكل فكرٍ صحيح عن الله، يستعصي على الخضوع للشعور بالذنب أو للخطية، إذ يظل الصلاح الإلهي هو عون الإنسان على الحياة في تاريخٍ مضطرب تحيطه العواصف الفكرية وتحاصره، وهو أمرٌ لا يمكن أن يأخذ مساره الصحيح إلَّا بالعودة إلى الإيمان بصلاح الله، وهو الفكرة الرئيسية

التي صاغها وانطلق منها القديس أثناسيوس الرسولي في كتاب تجسد الكلمة ليشرح بها ظهور الكلمة من أجلنا بالجسد.

إذن، فالإيمان بصلاح الله هو محور التماس بيننا وبين الله عبر التاريخ الإنساني كله، وهو الفكرة التي لا يمكن للإنسان أن يتنازل عنها وإلَّا دفعه الشعور بالذنب أو بتأصُّل الخطية فيه إلى العودة إلى التمرد وتحدى صلاح الله، عندئذٍ تصبح فكرة السقوط هي أساس توهُّمه بأن أصله خاطئ، وأن الخطية تحتل منه مركزه، الأمر الذي يؤدي به إلى الشعور بالعجز عن الوصول للكمال، وبالتالي الوقوع في براثن اليأس، وهي النتيجة الطبيعية للتعليم بالخطية الأصلية الذي صاغه أوغسطينوس تأسيسًا على المانوية.

مانوية أوغسطينوس

كان أوغسطينوس متأثرًا تمامًا بالمانوية، وخصوصًا بثنائية إله الخير وإله الشر، وأن إله الشر هو الذي خلق المادة، ومن هنا طرأت له فكرة أن النزعة الأساسية في الإنسان هي الميل نحو الخطية، وكان هو أول من قال إن الغريزة هي الميل للخطية، أي الميل إلى الشر، وإن هذا الميل يعود إلى آدم الأول، وإن هذا الميل لا يمكن أن يُقاوَم إلَّا بالنسك، وعلى هذا الأساس قدمت لنا الكنيسة الغربية -في مجمع أورانج ومجمع ترانت في القرن السادس عشر- تعليمًا بأننا خطاة وأن أصلنا هو في آدم الساقط، وليس أمامنا إلَّا النسك طريقًا للخلاص من هذا الميل[1]. وذلك على عكس اللاهوت الأرثوذكسي الذي لا يعلِّم بهذا مطلقًا، بل يعلِّم بأن أصل الإنسان صالحٌ، وأن الميل الأساسي لديه هو ميله نحو التأله والاتحاد بالله، وما الخطية إلَّا انحرافًا طارئًا في الاتجاه نحو التأله، وما ميله إلى الخطيئة إلَّا محاولةٌ لاكتشاف الإنسان لنفسه، وهو بالضرورة اكتشافٌ تحركه الرغبة في الخلود،

(١) هذا ما نراه في كل كتابات إيفاجريوس البنطي، وللأسف في حركة الرهبنة القبطية التي أدخلت مقاومة الخطيئة بالنسك بسبب اتصالها بالغرب. وهكذا أصبح لدينا تعليمٌ بأن الإنسان بالطبيعة خاطئ، وأن لنا أصلٌ شرير في آدم الأول، ونسينا أن لنا أصلًا جديدًا في يسوع المسيح.

وهذه الرغبة لا تُحارَب بالنسك، بل بسكنى الروح القدس، لأن الإنسان ليس بالطبيعة شريرًا، بل لأنه بالضرورة طبيعة صالحة وجيدة.

الحياة النسكية بين الشرق والغرب

لذلك يعتبر الميل نحو الخطية والشر هو الحد الفاصل بين ماني وأوغسطينوس، والغرب بشكلٍ عام، واللاهوت الأرثوذكسي وآباء الشرق. كذلك يعتبر هذا الميل أيضًا هو نقطة الصراع الفكري التي أدخلت إلى التربية النسكية في كتابات إيفاجريوس البنطي، التفسير النسكي الذي جعل الممارسات النسكية أساسًا ضروريًا لمقاومة الغرائز التي تنتمي أصلا إلى طبيعة قال عنها أوغسطينوس إنها طبيعة ساقطة. بينما اعتبر الآباء الشرقيون أن الغريزة في الإنسان لا يجب أن تُقاوَم بالنسك، بل توجَّه نحو الاتحاد بالله، وأن الاتحاد بالله هو ما كان آدم يسعى إليه. ولذلك اعتبر الآباء الشرقيون أن الاتحاد بالله هو ما فقده آدم عندما استدار ناحية نفسه. ولذلك تختلف الممارسات النسكية في الشرق عنها في الغرب، وهو أمر يجب أن نشدِّد عليه لان الناسك لا يقاوم غريزةً خلقها الله له لتجد كمالها في الله. ومن هنا جاء رفض الخطية الأصلية كمصدرٍ لغرائز الإنسان عند الآباء الشرقيين. لذا كان من الضروري أن نشير هنا إلى الفرق بين إيفاجريوس البنطي وإلى غيره من النساك الذين دخلوا الحياة النسكية –حتى في الشرق– لأنهم خطاه، والنساك الذين دخلوا الحياة النسكية لتكميل الاتحاد بالله تأسيسًا على أن الإنسان صالحٌ وأنه خُلق بواسطة إله صالح، وهو أمر يجب أن نشدد عليه حتى لا نقع في بؤرة الشعور بالذنب الذي صاغ الكثير من الماسي في الحياة الغربية[1].

فالشعور بالذنب لا يجب أن يكون نقطة انطلاق نحو الحياة النسكية،

(١) لهذا أصبح لدينا خياران، إمَّا أن نتجه إلى آدم الأول ونظل محبوسين في الماضي ونظل ندافع عن التعليم بأن أصلنا شرير، وضرورة محاربة هذا الأصل، وأن ينمو لدينا الإحساس بالذنب بحيث يصبح الإيحاء بأننا أشرار هو الذي يدفعنا إلى السرقة وإلى الكذب وإلى الزنا واقتناء الأموال والتدنيس وإلى كل شيء شرير، وهو التعليم الذي خلق عقوبةً لكل خطية، وأوجب ضرورة الاعتراف على الأب الكاهن والحصول على الحِل قبل كل تناول، وإمَّا أن نختار أصلنا في المسيح الذي يقودنا في النهاية إلى الاتحاد بالله.

بديلًا عن الرغبة في الاتحاد بالله، تلك التي يجب أن توجِّه الحياة النسكية.

ولذلك، يظل التعليم الشرقي –كما نراه عند أنطونيوس الكبير في الرسائل، ولدى أثناسيوس في تجسد الكلمة– يؤكد بشكل خاص على صلاح الطبيعة وليس أسرها بواسطة الغرائز. وأن الصراع ضد الغريزة هو صراعٌ طبيعيٌّ يسعى فيه الإنسان إلى الخلود باستغلال الغريزة، وأن الصوم والصلاة ليسا أداتين لمقاومة الغريزة، بل هما التعبير عن رغبةٍ متأصِّلةٍ في الإنسان للوصول إلى الخلود، أي الاتحاد بالله[1]. فالفرق شاسع بين الاثنين، وعليه فالإنسان حرٌّ. لأجل هذا، عندما نشط الأب متى المسكين في الدعوة إلى أن الطبيعة الجديدة في المسيح خُلقت بواسطة إله صالح، وأنها لم ترث سقوط آدم، فقد عاد بالحياة النسكية بكتابه "الخلقة الجديدة في المسيح يسوع" إلى التراث الشرقي الأصيل، وهو ما جعل –حتى بعض رهبان ديره– يرفضون هذا الكتاب لأنهم يؤمنون بوراثة الخطية الأصلية.

وعلى ذلك، فالجهاد الحقيقي هو الذي يبدأ بصلاح الله، كما فعل أثناسيوس في "تجسد الكلمة"، إذ أصرَّ في تعليمه على أن الله صالحٌ وكلي الصلاح .. الحقيقة هي أن الإنسان لديه ميلٌ طبيعيٌّ إلى الألوهة، وقد انعوج هذا المسار وخُدِعنا بواسطة الشيطان بأن التألُّه هو عن طريق الذات، وليس عن طريق الاتحاد بالله .. لذلك علينا ألَّا نحارب هذا الميل الطبيعي، بل أن نسيِّره في الوضع الأصيل الذي خُلِق عليه، بأن نحب المسيح أكثر من أنفسنا، فمن يحب المسيح أكثر من ذاته لا يخطئ .. بمعنى أن الصلاح والرغبة نحو الصلاح التي فينا تتحول إلى قوة الاتحاد وطلب الاتحاد الدائم في الصلاة باستدعاء الروح القدس لأنه هو مَن يحقق هذا الاتحاد .. نحن لا نحقق هذا الاتحاد بقدراتنا الذاتية .. ما علينا هو أن نطلب الروح القدس بلجاجة، كما يعلِّم القديس أنطونيوس: "اطلبوا الروح الفائق الناري" .. أي الحب الإلهي، فمن أدرك الحب الإلهي لا يخطئ.

وعندما أصبح إسحق السرياني هو المعلم الأساسي للحياة النسكية، فقد

(1) في التعليم الشرقي لا يطلب الإنسان في الصلاة معونةً من الله لمقاومة الميل نحو الخطية، بل يطلب الاتحاد به في المسيح يسوع، وهو دعوة الله العليا للإنسان من قبل تأسيس العالم.

أدرك الرهبان الذين التزموا بإســـحق الســـرياني –مثل القمص مينا المتوحد– أن صـلاح الإنسـان يأتي من صـلاح الله الذي أفاض نعمة الروح القدس علي الطبيعة الإنســـانية، لأننا في المعمودية المقدســـة نُولَد بطبيعة جديدة غير قابلة للخطأ هي طبيعة الابن الوحيد، وهذا لا يتحقق كما تقول صـلواتنا القبطية، إلَّا عندما ننطلق إلى الصلاح الإلهي الذي يعطينا الطبيعة الجديدة التي تعود أصلا إلى الابن المتجسد التي أعطاها المسيح لنا. لذلك، فإن دراسة صلوات المعمودية في الكنيسة القبطية، تكمِّل الدراســـة التي نقدمها هنا عن الخطية الجدية، والتي أبرزها الباحث الدكتور جورج فرج في كتابه: "الخطية الجدية حسـب تعليم القديس سـاويرس الأنطاكي"، والذي إليه يعود الفضـل في تقديم دراسـة بطريرك السـريان الراحل الكريم أغناطيوس زكا عيواص على الصفحة الرسمية للكنيسة الانطاكية للكنيسة السريانية لكى ينبهنا إلى أننا وقعنا في أسـر أوغسـطينوس بدليل أننا عُدنا إلى ممارسـة الكنيسـة الغربية في منع المرأة من دخول الكنيسة أثناء دورتها الشهرية، وصنعنا تمييزًا بينها وبين الرجل، متمسكين بسفري اللاويين والتثنية بدون وضع الأساس اللاهوتي لهما. الأمر الذي يحتاج إلى العودة إلى الآباء الشـــرقيين والابتعاد عن الانحراف الذي أدخله التراث الغربي في طقس كنيستنا بأننا نأتي إلى الكنيسة محمَّلين بذنب آدم الأول.

حاجتنا إلى اكتشاف أصلنا في المسيح

الإنسـان يولد بطبيعةٍ صـالحةٍ تسـعى إلى تحقيق الصـورة الإلهية، لا بطبيعةٍ شـــريرةٍ يُجب أن تُقاوَم، بل يتم إصـــلاحها بالاتحاد بالله. هذا هو الموضـــوع الذي يجب أن يشـغل بال الباحثين في تراث الآباء من المتخصـصـين في اكتشـاف أصـلنا في المسيح، وهو موضوع نتركه للباحثين من الجيل الآتي بعدنا ...

القضـية الأسـاسـية والملحة التي يطرحها هذا الكتاب هي الانتباه إلى أن هناك فرقٌ شـاسـعٌ بين أن يبدأ الإنسـان بطبيعة سـاقطة، فيكون للخوف أسـيرًا، وبالتالي الوقوع في دائرة الشـــعور بالذنب، وبين أن يبدأ من الإيمان بصـــلاح الله، وبالتالي الإيمان بصلاح الطبيعة الإنسانية، فيوجِّه هذا الإيمان كل قدراته نحو الاتحاد

بالله. وقد أدرك الأب متى المسكين خلال صراعه في الحياة النسكية أن الخوف هو سبب السقوط في الخطية، ونبَّه إلى ذلك بشدة في إحدى عظاته، التي نحتاج إلى مراجعتها لأنها تحدد ما لعبه الخوف في حياتنا النسكية، ولنأخذ على ذلك مثلًا: لقد قال الرب معلم الحق الذي هو وحده المعلم الحقيقي إن من نظر إلى امرأةٍ **ليشتهيها** فقد زنى بها في قلبه. ولأن الشعور بالذنب يجعل الإنسان يخاف من أفكاره، أصبح الخوف من زنى القلب يسيطر على حياة النساك، وهنا تظهر الآثار السلبية للخوف، لأن من نظر إلى امرأة **ليشكر الله على جمالها ويتعامل معها باحترام على أنها صورة الله ومثاله**، فقد تحول إلى التألُّه الحقيقي الذي يدعِّمه الروح القدس. ومن هنا ندرك أن الوعظ الأخلاقي الذي يسير في خط أوغسطينوس، عن الخوف من الشهوة، يختلف عن الوعظ النسكي الحقيقي عن أن من نظر إلى امرأة لكي يمجد الله على خلقتها لأنها صورة الله ومثاله، فتتحول نظرته إلى رغبةٍ في الاتحاد بالله، وهي الحركة التي يعطيها الروح القدس للقلب، لأن المعزِّي البارقليط، لم يُعطَ لكي تتغنى الكنيسة بألوهيته، وكفى، وإنما لكي يؤلِّهنا ويمنحنا استنارةً أن نراه كمدافعٍ عنَّا.

والدليل على أن الإيمان بصلاح الله وبصلاح الطبيعة الإنسانية، طريقٌ يختلف تمامًا عن الطريق الذي يبدأ بالطبيعة الإنسانية الساقطة، نجده بوضوح عندما نقرأ في سيرة الأنبا أنطونيوس الكبير أن الشيطان عندما ظهر له وقال "أنا قوة الله"، تقول السيرة: "أنني هممتُ أن أضربه ولكنه اختفى". هذا إيمانٌ بنقاء النفس الإنسانية لدى إنسان يؤمن بأنه ليس ضعيفًا أمام الشياطين، الأمر الذي يحدد مسار الحركة النسكية نحو الاتحاد بالله، وهو عكس السياق الموجود في الأدب النسكي المتأثر بأوغسطينوس وإيفاجريوس، الذي ينطلق من الإيمان بوراثة الخطية وبالتالي تكون الحياة النسكية وسيلة لمقاومة الطبيعة الساقطة. إذن، هناك فرقٌ شاسع بين أن يبدأ الإنسان برسائل أنطونيوس الكبير، فيدرك أنه أقوى من الشياطين، وبين إنسان يبدأ بالتعاليم النسكية لإيفاجريوس، فيغرق في تعليم مخيف عن تأثير الشياطين على الحياة النسكية، نلمس صداه في الحياة النسكية المزيَّفة

التي نراها في ممارسات العصر الوسيط التي تقول إن موهبة الروح القدس تعود للراهب الذي سقط في الخطية عندما يلبس الإسكيم الرهباني[1]، وكأن نعمة المعمودية قد فارقته وعادت إليه بالإسكيم، أي بالنسك كعلامةٍ فارقةٍ على صراع الإنسان في سبيل الحصول على النعمة الإلهية، وهو تعليمٌ ساد القوانين التي عُرِفَت في المجموعات القانونية باسم القوانين التي وضعها الآباء لمن سقطوا في الزنا أو قَتَلَ، إذ يقرر أن خطيئتهم لن تُغفر إلَّا إذا لبسوا الإسكيم الرهباني. ولذلك كان طبيعيًّا –في ظل سيادة هذا التعليم– أن يقدم لنا العصر الوسيط طقسًا كنسيًّا رآه الرحالة الفرنسي فانسليب عندما زار مصر في القرن الثامن عشر، مؤداه أن يغتسل مَن سقط في الخطايا الكبرى في الماء باسم الثالوث فيما يُعرَف بصلاة القِدر، وكأن نعمة المعمودية يمكن أن تفارق الإنسان الذي سقط في خطيةٍ أيًّا كانت هذه الخطية، وهو أمرٌ محزن، يجعل الإنسان يشكر الله على عودة نعمة المعمودية من جديد –ويا للمفارقة– مع جهود المرسلين، وبالذات في تقليد الكنيسة الكاثوليكية، وفي إصلاح التعليم على يد الأستاذ حبيب جرجس الذي بحسٍّ كنسيٍّ حقيقيٍّ قدم تعليم الكنائس الأرثوذكسية نقلًا كاملًا عن كتاب "الأنوار في الأسرار" لمطران الروم الأرثوذكس باللاذقية جراسيموس مسرة، فعادت نعمة التبني لسر المعمودية بفضل جهوده ومثابرته، وإن لم يَعُد إلينا ترتيب الموعوظين الذي فُقِدَ تمامًا، والذي بُحَّ صوتنا في المناداة بضرورة عودته، ولذلك أصبح السر يُعطى دون تعليم عن التبني وعن شركة ميراث القديسين، وهو محور صلوات المعمودية، الأمر الذي جعلنا نفقد قوة ونعمة الأسرار، وبالتالي سهَّل علينا الاقتناع بفساد الطبيعة الإنسانية وتعليم الخطية الأصلية، وهو أمرٌ لن نتخلص منه إلَّا إذا استعاد الموعوظ الوعي بأنه ابن الله في المسيح يسوع، وأن طبيعته جُدِّدت تمامًا في المعمودية وانقطعت صلته بآدم القديم.

(1) تلك كانت المشورة التي تلقاها إيفاجريوس البنطي والتي على أساسها اتجه للحياة النسكية.

أملٌ ورجاء

لذلك، أرجو من الدارسين أن يشعروا بضرورة التواصل مع آباء الكنيسة الجامعة، والتمسك بما سجَّلوه عن بقاء الصورة الإلهية فينا وعدم فنائها لأن الله صالح ولم يسمح بأن يتحول الإنسان إلى كائنٍ شرير يدفعه الشر إلى الفناء بسبب حدثٍ وقع في التاريخ القديم لم يكن أصلًا في الإنسان، بل طارئًا وانحرافًا عن السير الطبيعي نحو الاتحاد بالله، وهو الهدف من خلق الإنسان في الأساس. ولكن، لأن الله صالحٌ لم يسمح لشرٍّ طارئٍ أن يكون أصل الإنسان.

القضية الأساسية ليست في وجودٍ شريرٍ بدأ بآدم، وإنما بالوجود الذي يعتمد على صلاح الله المطلق الذي ليس له حدود.

مرةً أخرى، أرجو من الدارسين أن يتمسكوا بما سجَّله آباء الكنيسة الجامعة عن سيادة الخير على الشر، لأن ما سجَّلوه في هذا الصدد هو وديعةٌ مسلَّمةٌ إلينا لا يمكن التنازل عنها، وهو عكس البدعة المانوية وتعليم أوغسطينوس عن الخطية الأصلية، الذي أصبح عبئًا يثقل كاهل الكنيسة الكاثوليكية، التي تسعى جاهدةً للتنازل عنه، وهو ما يبدو في محاولاتٍ جادة شريفة يبذلها علماء هذه الكنيسة.

أعان الله كل إنسان يريد أن يصل إلى يسوع ربنا ومخلصنا عن طريق الإيمان بصلاح الله، راجيًا -ولن أملْ من التكرار- العودة إلى كتاب تجسد الكلمة لأبينا القديس أثناسيوس الرسولي حتى نتعلم منه التدرج في الإيمان بصلاح الله، وهو ما ترسِّخه الليتورجية فينا عندما نتعامل مع الثالوث القدوس في صلوات الكنيسة الجامعة.

دكتور

جورج حبيب بباوي

عيد الظهور الإلهي ١١ طوبة ١٧٣٧ ش – ١٩ يناير ٢٠٢١ م

فصل تمهيدي

الكلمات اليونانية الخاصة بالخطية في العهد الجديد

إذا اتبعنا الأبجدية اليونانية، نجد أن أول كلمة هي ἀδικία وهي كلمة عامة تعني عملًا ضد القانون – جريمة. هذا هو المعنى الشائع في الأدب اليوناني القديم. وقد استُخدمت في الترجمة السبعينية لترجمة ٢٤ كلمة عبرانية، وهي – بسبب النظام الثيوقراطي في العهد القديم– تعني عصيان القانون والخروج عليه (لا ١٩: ١٣ تث ٢٨: ٢٩ مع مزمور ١١٩: ١٢١)، وهي الكذب والخداع (أمثال ٦: ١٧ – أرميا ٥: ٣١). كذلك وردت في العهد الجديد، ١٠ مرات في سفر الرؤيا، ٥ مرات في سفر الأعمال، ٣ مرات في كورنثوس الثانية، ومرةً واحدة في كلٍّ من متى، ولوقا، غلاطية، فليمون، بطرس الثانية.

ما يهمنا هنا هو استخدام الرسول يوحنا لهذه الكلمة في عبارته التي وردت في رسالته الأولى: "خطية للموت"، وهي πασα αδικία αμαρτία (١يو ٥: ١٦ – ١٧). الخطية التي تؤدي إلى الموت هنا هي الخطية التي يُعاقِب عليها القانون الروماني – قانون الدولة، ولذلك يقول الرسول إنه لا جدوى بالمرة من الصلاة لأجل مَن تعدَّى القانون، لأن القانون لا يعرف الغفران، ولذلك عبارة "كلُّ إثمٍ هو خطية"، تعني أن كل تعدي للقانون هو خطية، ويستلزم عقوبة.

الكلمة الثانية وهي الأكثر استخدامًا هي ἁμαρτία وهي في الأدب اليوناني الكلاسيكي تعني "الخطأ في إصابة الهدف". والهدف في اللاهوت المسيحي عامةً لا يوجد خارج كيان الإنسان، بل هو الإنسان نفسه، لأنه صورة الله، فالخطية ἁμαρτία إذن هي الانحراف عن تحقيق كيان الإنسان، أي أن يحيا الإنسان كصورة الله، وبدلًا من ذلك يختار الإنسان ذاته، أي صورةً ذاتيةً مغلقةً على كيانٍ مغلق هو كيان الإنسان. ويجب ألَّا ننسى أن أحد جوانب الخطية في رومية هو الموت (رو ٥: ١٢).

الكلمة الثالثة هي παράβασις وتعني "التعدي"، ليس حسب المعنى الشائع الآن، بل الابتعاد عن الطريق الصحيح. وفي الإنجيل حسب متى "التعدي" هو كسر الوصية (١٥: ١)، وهكذا أيضًا تعدِّي يهوذا الإسخريوطي وظيفته (أع ١: ٢٥).

الكلمة الرابعة هي παράπτωμα وتعني فقدان الطريق الصحيح، الضياع أو التوهان، وهي أصلًا خاصة بترك الشريعة (مز ١٩: ١٢، ٢١: ١ – حكمة ٣: ١٣ – حزقيال ٣: ٣٠). وقد ورد الفعل مرةً واحدةً في (عب ٦: ٦): "وَسَقَطُوا، لاَ يُمْكِنُ تَجْدِيدُهُمْ أَيْضًا لِلتَّوْبَةِ"، وهنا نلاحظ أن الترجمة العربية لهذا النص في ترجمة فانديك غير صحيحة، لأنها ليست السقوط "الذين سقطوا"، بل الذين تاهوا وضاعوا، وهؤلاء حسب كلمات (عب ٦: ١ – ٦) هم العائدون إلى اليهودية والممارسات الطقسية بعد نوالهم المعمودية. وهكذا أيضًا نص (رو ٥: ١٥): "وَلَكِنْ لَيْسَ كَالْخَطِيَّةِ هَكَذَا أَيْضًا الْهِبَةُ" يجب أن يُقرأ: "ولكن الهبة ليست كالضياع وفقدان الطريق الصحيح"، لأن التعدي هنا ليس مجرد كسر وصية، بل الخروج على حدود الخلقة[1].

---

(١) وردت الكلمة في القداس الغريغوري: "حل واغفر واصفح لنا يا الله عن زلاتنا ⲛⲛⲉⲛ ⲡⲁⲣⲁⲡⲧⲱⲙⲁ"، والزلة ليست مجرد الخطأ، بل هي أيضًا الانحراف عن الصواب، وهي تعني في اللاهوت المسيحي الابتعاد والضياع أو الضلال عن الهدف، أي يسوع المسيح نفسه.

نكتفي بهذا الموجز، لأننا لسنا إزاء تحليل لغوي خاص بالدراسات اللغوية، بل إزاء اكتشاف الجانب الإلهي – الإنساني.

نخلص مما سبق أولًا إلى أن التعدي ليس على الله، بل على كيان الإنسان نفسه الذي: ينحرف – يضل – يضيع – يخرج عن حدود خلقته.

ثانيًا: أن فقدان الهدف ليس شيئًا خارجًا عن كيان الإنسان نفسه، بل هو فقدان صورة الله، الهبة التي أُعطيت للإنسان، وبالتالي فقدان الهدف هو ضياع هدف الحياة نفسه.

ثالثًا: ينبغي أن نلفت النظر وبشدة إلى أن الكلمات اليونانية السابقة لا تحمل أية إشارة إلى الانفصال عن الله، ولم ترد في كل أسفار الكتاب المقدس، وبالذات في العهد الجديد، أية إشارة إلى انفصال الخطاة عن الله، بل العكس هو ما يقرره العهد الجديد عن بقاء الخليقة بقوة كلمة الله الخالق الابن الوحيد (عب ١: ٢ – ٣) والإصحاح الأول من إنجيل يوحنا (١: ١ – ١٨) والإصحاح الأول من كولوسي (١: ١٥). وكما نقول إن أضعف الإيمان، هو صرخة الرسول بولس: "فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّاتِ وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ وَلاَ خَلِيقَةً أُخْرَى تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا" (رو ٨: ٣٨ – ٣٩)، فبعد هذه الصرخة علينا أن نكف عن أي حديث عن الانفصال، لأننا لسنا إزاء قضية تافهة، بل نحن أمام مأساة الإنسانية كلها، تلك التي ساد عليها الموت بالخطية، وجاء الرب وهدم حصن الخطية الموت، وحرر أسرى الخطية من سلطان الموت.

خطية آدم:

لم يعرف الشرق الأرثوذكسي اسم "الخطية الأصلية" إلَّا بعد مجيء الإرساليات، كما لم يكن لدينا في الشرق إلَّا ما تركه الآباء، وآخر موسوعة لاهوتية عن الإيمان الأرثوذكسي ليوحنا الدمشقي (٦٤٦ – ٦٧٩) لم يرد فيها

حتى اسم الخطية الأصلية، لأن الاسم لم يُعرَف إلَّا في اللغة اللاتينية. وكما سنرى هو الاسم الذي استخدمه القديس أوغسطينوس. أما الآباء الشرقيون فقد استخدموا:

* الخطية القديمة أو الأولى – ديديموس الضرير (الثالوث ٢: ١٢ مجلد ٣٩: ٦٨٤).

* والشائع في كل كتابات الآباء الشرقيين هو الخطية الجدية. ردود القديس أثناسيوس على الأنطاكيين ٦٧ مجلد ٢٨: ٦٣٦. راجع أيضًا بحث:

John S. Romanides, The Ancestral Sin, 2002

Nikolaos P. Vassilliadis, The Mystery of Death, 1993.

الفصل الأول

ما قبل العلَّامة أوريجينوس

بدعة بيلاجيوس

ولد بيلاجيوس في بريطانيا، وذهب إلى روما سنة ٣٨٠ وهناك عاش كراهب، وتعرَّف على روفينوس، وعُرِفَ من الذين قصدوا روما. وحوالي سنة ٤٠٠ استعر في روما نقاشٌ حول الموت والخطية وهدف أو غاية المعمودية. كان أوغسطينوس في روما وكان يعرف الآراء المختلفة محل هذا النقاش: متى تولد النفس، وهل تولد مع الجسد أم تولد قبل الجسد (راجع أغسطينوس Lib.arD 3;20. 3: 23).

قبل بيلاجيوس كانت كنائس شمال إفريقية تتبع روما، وكانت اللغة اللاتينية هي لغة المثقفين فيها. وقد سبق بيلاجيوس ترتليان والشهيد الأسقف كبريانوس. كلاهما لا يذكر الخطية الأصلية، وإنما حسب لغة كبريانوس، الإنسان يولد مدنَّسًا aliena peccata حسب آدم (رسالة ٥٤)، وهي رسالته التي أرسلها إلى ٦٦ أسقفًا. والرأي السائد هو أن الموت سببه خطية آدم. وكانت معمودية الأطفال محل سؤال سبقه سؤال عن خلق النفس الإنسانية وما إذا كانت تُخلق مع الجسد بالتناسل.

نُسِبَ للعلامة أوريجينوس (١٨٥ – ٢٥٣ أو ٢٥٤) أنه كتب عن وجود النفس قبل وجودها في الجسد، ولم يكن في الكنيسة الجامعة رأيٌ بخصوص هذا الموضوع (راجع المبادئ ١: ٢، ٦). وفي الكتاب الرابع من المبادئ كتب العلامة إن مَن يشترك في شيء، بدون شك يصبح من ذات جوهر الذي يشترك فيه لأن الإنسان خُلِقَ خالدًا أو غير فاسد (شرح رو ١٠: ١٤).

وقد ورد الطرد من الفردوس أو الجنة في الأسفار غير القانونية، في سفر سيراخ ٢٥: ٢٤: "عندما أخطأت المرأة في البدء وبسبب خطيتها الكل يموت". وفي (حكمة سليمان ٢: ٢٣ – ٢٤): "خلقنا الله لعدم الفساد وجعلنا صورة أبديته، ولكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم".

إذن، النقطة المحورية هي سبب وجود الموت.

وقد وردت أول إشارة للتعدي الذي حدث في الفردوس في رسالة برنابا (حوالي ٧٠ – ٧٩) والبعض يضعها (حوالي ١٣٠)، و"التعدي – ἡπαράβασις" كلمة أدق كثيرًا من كلمة "المعصية"، لأنها ليست المعصية بالمعنى القانوني، بل هي تعدي دائرة الوجود الذي مُنِح للإنسان كعطية من الله. تقول رسالة برنابا: "هيج الرب الحيات لكي تعضهم وماتوا، لأن التعدي الذي جاءت به حواء والحية هو الذي جلب الموت لكي يؤدبهم الرب على التعدي فينالوا الخلاص من عبء الموت" (فصل ١٢: ١). هذه هي الإشارة الوحيدة التي تنقلها رسالة برنابا إلينا حتى نصل إلى الحوار مع تريفو اليهودي (حوالي ١٥٠)، وفي الفقرة ٨٨ يقول الشهيد يوستينوس: "سقط الجنس البشري تحت سلطان الموت بخدعة الحية، بل لا يجب أن ننسى خطايا كل فرد من الجنس البشري الذي أخطأ كل واحد". وفي الفقرة ١٠٠ يقول يوستينوس: "وُلِد من العذراء لكي كما بالمعصية التي تسببت فيها الحية، وكانت سبب الهلاك. لأن حواء رغم أنها كانت عذراء غير دنسة، إلَّا أنها حبلت بكلمة الغواية وولدت المعصية والموت، أما مريم العذراء فقبلت الفرح والإيمان عندما أخبرها الملاك جبرائيل بالخبر السار (الإنجيل) وأن روح الرب سيحل عليها أجابت: "ليكن لي كقولك".

لا يعرف الشهيد يوستينوس وراثة الخطية، بل يقول في الدفاع الأول (فقرة ١٠): "الشرُّ عامٌ وشهواته المتنوعة موجودة في كل إنسان".

وحوالي سنة (١٧٠) يكتب ثيوفيلوس الأنطاكي مؤكِّدًا أن الإنسان خُلِق فيما يمكن أن يقال عنه إنه حياد، وإنه دُعي لأن يختار الخير، وأن سبب منع الأكل من شجرة المعرفة، ليس هو المعرفة في حد ذاتها، بل معرفة الخير والشر، ولكن الإنسان اختار المعرفة المزدوجة لكي ينمو، فوقع في الازدواج، أي الخير والشر، وهو ذات الازدواج الذي أوصله إلى الموت" (إلى أنطوليوس ٢: ٢٤ – ٢٥).

العلامة ترتليان (١٥٥ – ٢٤٠) وأصل النفس الإنسانية

سبق العلامة ترتليان مدارس الغنوصية، وعاصر العلامة زعيم أكبر مدرسة غنوصية "مارقيان" وكتب ضده خمسة كتب بعنوان "ضد مارقيان".

النقطة المحورية هي وجود النفس قبل أن توجد في الجسد، وهي تعليم مدارس الغنوصية. وسقوط النفس من العالم الروحي إلى العالم المادي الجسداني، فصار الجسد هو أداة تعذيب. وطبعًا كانت المانوية تدعي ذات التعليم، ويجيء التلاقي بين المانوية والغنوصية في إطار فلسفة أفلاطون التي أذاعت فكرة تناسخ الأرواح، ويبدو أن هذا الفكر كان معروفًا في زمن القديس كيرلس السكندري الذي فنَّده في شرح إنجيل يوحنا، حيث سجل في شرحه للإصحاح الأول ٢٢ اعتراضًا عليه.

الله صالح لا ولم يخلق الشر

في الكتاب الأول ضد مارقيان (٣: ١ – ٥) كتب ترتليان: "الله متعالٍ وعظيم ثابتٌ في الأبدية، غير مخلوق وغير مولود. بلا بداية ولا نهاية". هذا الإله العظيم الذي لا مثيل له خلق الإنسان على صورته ومثاله. وأكَّد ترتليان "أنه صلاح الله الذي تكلم (تك ١: ٢٦)، وهو الذي كوَّن الإنسان من تراب الأرض،

وهو جوهر شريف لأنه بنى الجسد من جوهر واحد ومادة واحدة .. ومن صلاح الله أنه نفخ النفس الإنسانية في (الجسد) وهي ليست نفسًا ميِّتةً، بل حيَّةً. وصلاح الله أعطاه سلطانًا على كل الأشياء لكي يتمتع بها ويسود عليها، بل وأن يعطي لها أسماء" (راجع الكتاب الثاني ٤: ١ – ٥).

ولم يقبل ترتليان أزلية المادة لأنها لا يمكن أن تكون مساوية لله (ضد Hermogenes:b).

الله خالق كل الأشياء من العدم (المرجع السابق ١٧).

وكتب ترتليان "أن كلمة البدء (تك ١: ١ حسب الترجمة اللاتينية In Pricipo أي الكلمة Word)".

"والبرهان على ما ذكرته هو أن كلمة أرشي arche اليونانية لا تعني أي شيء آخر سوى البدء، والبدء لا يحتمل أي معنى آخر، وهو البدء الذي لا بدء له، أي الحكمة، فهي البدء حسب الكلمات "الربُّ أسَّسني condidit في البدء أول طرقه (أمثال ٨: ٢٢)؛ لأن الأشياء خُلِقَت بحكمة الله (المرجع السابق: ٢٠).

صلاح الله وخلق النفس الإنسانية

كتب ترتليان كتابًا عن النفس الإنسانية، وجاء شرحه بأن روح الحياة في (تك ٢: ٧) هو نسمة الحياة. وحيث أنها نفخة الله فلا يمكن أن تسقط في خطية. كان هذا تأكيدًا على صلاح الله ضد الغنوصية التي كانت أحد مدارسها المدعوة Hermongenes تدَّعي أن النفس الإنسانية خُلِقَت من المادة، بينما حسب سفر التكوين، خُلِقَت بنفخة من الله" (مقالة عن النفس: ٢، ٣: ٤).

وفي الكتاب الثاني يكتب ترتليان: "علينا أن نتمسك بالمعاني التي وردت في الأسفار اليونانية التي لم تذكر (روح)، بل (نسمة) لأن البعض عندما يترجمون

من اليونانية لم يتمكنوا، بل فشلوا في فهم الكلمات، واستبدلوا كلمة نفخة بكلمة روح، وبذلك سمحوا للهراطقة بفرصة اتساخ الروح بالخطية، أي روح الله نفسه هو النفس الإنسانية ... ولكن النسمة أو النفخة التي أعطاها الله ليس روح الله" (ضد مرقيان ٢: ٩).

فما هي النفس الإنسانية؟

"نحن نعرِّف النفس على أنها ولدت من نسمة الله، وهي خالدة جسدانية Corporalem لأن لها شكل، ولكن من طبيعة بسيطة وخاضعة لما في طبعها، وتنمو بطرق مختلفة، لها حرية اختيار وتتأثر النفس بعوامل خارجية ..." (النفس: ٢٢).

بعد ذلك يكتب عن أصل النفس وأصل كل النفوس، وهو أولًا يرفض الوجود السابق على الوجود في الجسد (٢٣ – ٢٤)، ويرفض دخول النفس في الجسد عند الولادة (٢٥)، ويرفض تناسخ الأرواح (٢٨ – ٣٣).

فما هو أصل النفس في كل إنسان؟

كتب ترتليان أن النفس تُعطى من الوالدين، وبدقة أكثر من بذرة Sperm الأب ويسمي هذا الرأي باسم traducianism وقد اعتبره القديس أغسطينوس، رغم أنه لا يؤكد الخطية الأصلية، الفكرة أو المحور الأساسي في التعليم المسيحي.

كتب ترتليان في الفصل ٢٧ من كتابه: "كيف يتكون الإنسان الحي (الإنسان)؟ هل جوهر الجسد والنفس يتكونان معًا في وقتٍ واحد؟ أم أن الجسد يسبق النفس حسب ما هو خاص بطبعها. نحن نؤكد أنهما معًا يتكونان ... ولذلك حيث أن كلاهما من جوهر مختلف: التراب والنسمة اتحدا معًا في الخلق الأول عندما تكوَّن وخُلِقَ آدم، إنسانًا، اختلط العنصران واتحد كل عنصر في آدم

بما في حواء في ذات البذرة، وهو ما يحدث بعد ذلك في الشـــركة عند البشـــر في التناسل ... وتبعًا لذلك من الإنسان الأول جاء فيض النفوس الإنسانية، وأكَّدت الخليقة نفسها حقيقة وصية الله: "اكثروا واثمروا"" (النفس ٢٧).

عـاش ترتليـان في الفترة (١٥٥، أو ١٦٠ إلى ٢٤٠ – ٢٥٠)، ويبقى السؤال: هل عرف ترتليان موضوع أو عقيدة اسمها الخطية الأصلية؟

في مقـالـة النفس، فقرة ٤٠، وفي الرد على مـارقيـان ٢: ٦ "من الآن فصاعدًا نفهم أنني أؤَكِّد أن الإنسان يملك قوة حرية الاختيار، وكان قصدي أن ما حدث للإنسان يجي أن يُحسَب عليه وليس على الله".

هل كان للإنســان ميلٌ للخطية، وهو ما أصــاب الإنســانية كلها بســبب معصية آدم؟

يقف ترتليان بين:

– صـلاح الله الخالق حسـب تعليم المسيحية، وتعليم مارقيان عن سقوط النفس في حياة سابقة في العالم الروحي أدَّى إلى سجن النفس في الجسد.

فما هي رؤية ترتليان؟

كتب في الفصـــل ٣٩ من مقالة النفس: "كل الذين لهم نفوس تعطى عندما يولدون، لديهم عدم إدراك وعدم فهم بســبب الشــرير الذي في البدء نظر إليهم بحسد، وهو ما جعل الكل في تصرفاتهم التلقائية لا يتصرفون كما يجب. لأن كل نفس إنسـانية يلتصـق بها روحٌ شـريرٌ مسـتعدٌ لأن يقتنصـها منذ لحظة ولادتهم ... وهنـا لا توجد نفسٌ منذ ولادتها بريئة من خرافات الوثنية. هذا معروف من كلام الرســول عندما قال إن أحد الزوجين تقدس والأولاد مقدســون (١ كور ٧: ١٤). هذا يحدث لأن للمسيحي ميزة تُحقِّقُها المعمودية والتعليم المسيحي. وإلَّا –

كما قال- أولادكم نجسون بالولادة. فقد أراد بذلك أن نفهم أن أولاد المؤمنين قد تعيَّنوا للتقديس وبالتالي للخلاص ... وبالإضافة إلى ذلك، فإن الرسول بكل تأكيد لم يَنس أن الرب قال مؤكِّدًا: "مَن لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يو ٣: ٥)، أو بمعنى آخر لا يكون مقدَّسًا" (النفس ٣٩).

حسب ترتليان "كلُّ نفسٍ من ميلادها لها ذات طبيعة آدم حتى تولد من جديد في المسيح. ومرةً ثانيةً هي نجسة إلى أن تولد من جديد، ولأنها نجسة فهي تفعل الشر ويحسب الجسد معها فاعلًا للشر بسبب صلتهما" (النفس ٤٠).

ترتليان لم يكتب عن وراثة الخطية، بل عن نجاسة الطبيعة بسبب معصية أصلنا، فصار الشرُّ طبيعيًّا، بل طبيعة ثانية، ولها إلهٌ وأبٌ خاصٌّ بها، أي خالق الفساد" (النفس ٤١).

الفصل الثاني

القديس إيرينيئوس

عاش في الفترة ما بين (١٤٠ – ٢٠٢) تقريبًا. وربما ولد في سميرنا في أسيا الصغرى، وكشابٍ صغير تتلمذ على بوليكارب، الذي تتلمذ على يوحنا الإنجيلي.

يجدر بنا أن نسجل أنه حارب الغنوصية، وكتب خمسة كتب لتفنيد هذه الهرطقة تحت عنوان: "تفنيد ودحض المعرفة الكاذبة"، والمشهور بـ "ضد الهرطقات".

كانت مدارس الغنوصية تعلِّم بأن العالم المادي من صنع إله البشر، وحرَّمت الزواج وأكل اللحوم لأن اللحوم هي أجساد بشر يعاقَبون بالعودة إلى الحياة في شكل حيوانات.

حارب بشدة ثنائية مدارس الغنوص لأن العالم المادي كله من صنع إله واحد هو إله الخير.

"الكنيسة الكائنة في المسكونة كلها وحتى نهاية الأرض قد قبلت من الرسل ومن تلاميذهم إيمانها بإله واحد الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها" (ضد الهرطقات ١: ٧).

"من اللائق أن أبدأ بما هو وضروري جدًا بل هو رأس الموضوعات وهو الله

خالق السموات والأرض وكل ما فيها، حيث أن تجاديف هذه الهرطقة تدَّعي أن الكون وكل ما فيه بسبب نقص وسوف أُبرهن على أنه لا يوجد ما يعلو على الله، أو يوجد إله آخر، وأن ما هو كائن لم يأتِ مصادفةً، بل بإرادة الله الحرة خلق كل شيء لأنه الإله الواحد والرب الواحد والخالق الواحد الآب القدوس الذي يحتوي على كل الكائنات والذي هو ذاته أمر بخلق الكل" (ضد الهرطقات ٢: ١ – ١).

وأكد نفس التعليم في (ضد الهرطقات ٢: ١٠ – ٤)

"أما عن عظمة الله، فهي فوق الوصف لأنه من المستحيل علينا أن نقيس الآب. أما عن محبته، فهي تُستعلَن في كلمته، وعندما نطيع الله نتعلم دائمًا أنه يوجد إله عظيم ... وعنه قالت الأسفار: "وخلق الله الإنسان من تراب الأرض ونفخ في وجهه نسمة الحياة"، ولم تخلقنا الملائكة ولم نتكون بهم، فليس للملائكة القدرة على خلق صورة الله ولا أي كائن آخر له قدرة الخلق سوى الإله الحقيقي ولا توجد قوة أخرى مهما كانت غير قوة إله الكل. فالله غير محتاج لآخرين لكي يحقق ما يريد ... ومعه دائمًا الكلمة الحاضر دائمًا والحكمة الابن والروح القدس الذي منه وفيه خُلِقَت الكائنات حرة ومُبدعة ..." (ضد الهرطقات ٤: ٢٠ – ١).

العالم خُلِقَ من أجل الابن الكلمة

المخلوق الوحيد الذي خُلِقَ بيدي الله هو الإنسان، والباقي بالأمر الإلهي. الخليقة هي بركة من الله، والخلق يكمل بالفداء. هذا سهلٌ على من يذكر أن الخالق والفادي، شخصٌ واحد، هو ابن الله يسوع المسيح، فهو الخالق والفادي.

"وعندما نتكلم عن يسوع، فهو عند معموديته قال متى: "السموات فُتِحَت ورأى روح الله مثل حمامةٍ يحلُّ عليه، وأيضًا صوتٌ من السماء قائلًا: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت" (مت ٣: ١٦ – ١٧). وليس صحيحًا ادعاء الغنوصيين بأن المسيح نزل وحلَّ على يسوع لأن المسيح ويسوع هما شخصٌ واحد بعينه، بل بالحري إن كلمة الله الذي هو مخلص الكل وملك السموات والأرض،

أي يسوع كما سبق وأشرت هو الذي أخذ جسدًا ومُسِحَ بروح الآب، فصار المسيح (بالمسحة)" (ضد الهرطقات ٣: ٩ – ٣).

الإنسان الأول آدم خُلِقَ ليصل إلى الكمال

هكذا كتب إيرينيئوس عن الخليقة، وعن الإنسان بشكلٍ خاص:

"كان الله يستطيع حقًا أن يعطي الكمال من البدء، ولكن الإنسانية التي خُلِقَت للتو كانت غير قادرة على أن تقبل الكمال أو الاحتفاظ به إذا أعطي الكمال ... لهذا في ابن الله وفي شخصه الكامل، وُلِدَ كطفلٍ، وقبل ضعف الطفولة، ليس من أجل شخصه، بل لأن البشر الذين لازالوا أطفالًا لكي يقبلوا ابن الله، خُلِقت الإنسانية وكُوِّنت في صورة وشبه الله غير المخلوق. وكان الآب هو الذي أمر وقبل هذا؛ لأن الابن هو الذي يغرس البشر لكي ينموا قليلًا نحو الكمال ويصبحوا قريبين من غير المخلوق".

"الإنسان خُلِقَ طفلًا وعليه أن ينمو لأن ابن الله هو الذي يغذِّيه" (ضد الهرطقات ٤: ٣٨: ٢ – ٤).

"كان من الضروري أن يُخلَق الإنسان أولًا لكي ينمو ولكي يصل إلى البلوغ وبعد ذلك ينمو، لأنه سيصير يافعًا قادرًا على أن يُمَجَّد وأخيرًا يرى سيده" (المرجع السابق).

"لكن البشر لم ينتظروا البلوغ ونسبوا إلى الله ضعف طبيعتهم".

هكذا حدث السقوط:

"وتعدَّى البشرُ قانون خلقتهم وأرادوا أن يصبحوا مثل الله قبل أن يكونوا بشرًا، وتغافلوا عن الفرق بين الله غير المخلوق والبشر المخلوقين" (مرجع سابق ٤: ٣٨ – ٤).

إذن، السقوط هو فقدان الإنسان لإنسانيته، وضياع العلاقة مع الله. وسوف نقارن تعليم القديس إيرينيئوس بالقديس أوغسطينوس لاحقًا.

عصيان الإنسان استدعى رحمة الله وشفقته

"كان الله محبًّا ورحيمًا إزاء فشل الإنسانية. وسبق ورأى الانتصار الذي سوف يعطيه بواسطة الكلمة؛ لأنه حينما برهنت القوة على أنها تعمل في الضعف (راجع ٢ كور ١٢: ٩)، أظهرت عطف الله ومجد قوته. ولأن الله كان قد صبر واحتمل وجود يونان في بطن الحوت فلم يبتلعه الحوت فيهلك، ولكن لأنه عندما أُلقي في البحر، سوف يخضع لله، وسوف يمجد الله أكثر لأن الله أعطاه ما هو غير متوقَّع، أي الخلاص، لكي يقود أهل نينوى إلى توبة صادقة لكي يعودوا إلى الله الذي سوف يخلصهم من الموت" (ضد الهرطقات ٣: ٢٠: ١ – ٢).

وهكذا تصبح حادثة يونان النبي عند القديس إيرينيئوس مثالًا يشرح تدبير الخلاص في المسيح، فيقول: "هكذا منذ البدء احتمل الله لكي لا تهلك الإنسانية بالوحش الكبير، أصل العصيان فلا يبتلعها الموت وتهلك إلى الأبد؛ لأن الله سبق ورتَّب مُسبقًا وسيلة الخلاص الذي سوف يتحقق بواسطة الكلمة حسب ما أشارت إليه آية يونان" (المرجع السابق).

ويعود إيرينيئوس إلى الشرح الكنسي مستندًا على آية يونان التي أظهرت طول أناة الله قديمًا، أما الآن "هكذا كانت شفقة الله العظمى التي أرادت أن تعبر الإنسانية في عدة عصور وسبق عصر الشريعة التي حكمت على كل أفعال البشر لكي يصل البشر إلى عصر القيامة من الأموات، ويتعلم البشر من اختبارهم للشر الذي تم خلاصهم منه كيف يشكرون الله دائمًا لأنه منحهم عدم الفساد، وأن يُظهِر البشرُ البرهان على خلاصهم بمحبةٍ أوفر" (المرجع السابق: ٢).

الطرد من الفردوس ومنع الأكل من شجرة الحياة كان رحمةً من الله

"لهذا السبب عينه طرد الله آدم من الفردوس شرق عدن، ومنعه من شجرة الحياة، ليس حسدًا كما يزعم البعض، بل برحمةٍ منه لكي لا يبقى آدم في التعدي إلى الأبد. ولكي لا تصبح الخطية التي أحاطت به محصَّنةً بالأبدية، وشرًا لا يمكن إصلاحه. وحقًا قرر الله مقابل التعدي، تدخُّل الموت الذي وُضِعَ على الإنسان، ففقدت الخطية البقاء، وانتهت بتحلل الجسد" (ضد الهرطقات ٣: ٢٣: ٦).

ثوب الجلد

"بعد التعدي امتلأ آدم من الخوف واختبأ، وكان يتصور أنه قادرٌ على الهروب من الله. وملأه الشعور بالذنب لأنه تعدَّى الوصية وجعله غي قادر على البقاء في حضرة الله وأن يتكلم معه"،

وكان الحل عند آدم،

"وكان برهان توبة آدم هو حزامٌ من ورق شجرة التين يغطي نفسه، وعلى الرغم من وجود أشجار أخرى لها أوراق مشابهة، وربما كانت أكثر تناسبًا مع جسده. ولكنه عمل ثوبًا يتناسب مع عصيانه، إذ كان مرتعبًا من خوفه من الله، وكتم رائحة جسده؛ لأنه فقد طبيعة الطفل وشعور الطفل، فلبس حزام عفة هو وامرأته وفي خوف الله كان ينتظر مجيئه ... وكأنه يقول في نفسه، لأنني بسبب العصيان فقدت الثوب الذي أخذته من الروح القدس، فإني اعترف بأني أستحق لباسًا بهذه الصورة ... لأن الرب الرحيم غطَّاه بثوبٍ من الجلد عِوضًا عن ذلك الذي من ورق التين" (ضد الهرطقات ٣: ٢٣: ٥).

وبهذا يتضح لنا أن القديس إيرينيئوس لم يعرف تعليم العصر الوسيط الذي يبدأ بالخطية، بل بخلق الإنسان على صورة الله ومثاله، ولا يعرف ما يُوصَف

بالعقوبة؛ لأن كلمة العقوبة نفسها لم ترد في سفر التكوين (ص ٣)، بل كل ما يقال عن العقوبة إن هو إلَّا تأويل يبدأ بالعصيان، ويستمر في تأكيد العصيان، وينسى رحمة الله وشفقته. وبالتالي، ضاع في هذا الفكر -كما كتب إيرينيئوس- أن "مجد الله هو في حياة البشر، وحياة البشر في رؤية Visio الله" (ضد الهرطقات ٤: ٢٠: ٧).

الإنسان دُعيَ إلى التبني في الابن ربنا يسوع المسيح

"كيف نشترك في التبني كأبناء، إلَّا إذا كنا قد قبلناه بواسطة الابن بالشركة التي جاء هو بها عندما صار الكلمة جسدًا، فدخل في شركة معنا؟ لذلك نحن نمر بكل مراحل الحياة حتى نستعيد في كل مرة شركتنا مع الله" (ضد الهرطقات ٣: ٨: ٧).

"المسيح الكلمة المتجسد جاء لكي يجمع من جديد recapitulate في كيانه الخلقة القديمة، وأيضًا لكي يميت الخطية، ويُبيد قوة الموت ويحيي البشر" (ضد الهرطقات ٣: ١٨: ٧).

"جاء الرب لكي يخلص الكل فيه، أقول الكل فيه، أي بواسطته لأننا فيه نولد من جديد في الله، الأطفال والفتيان والشباب وكبار السن، لذلك السبب عبر الرب بكل مراحل حياة الإنسان، فصار طفلًا من أجل الأطفال لكي يقدس الأطفال، وفتى لكي يقدس الفتيان ويصبح مثالًا للصلاح والبر والطاعة لأجل كل الشباب لأنه جاء لكي يقدس الكل .. ولنفس السبب اختبر الموت لكي يكون باكورة الراقدين ويصبح له الأولوية والبداءة في كل شيء لأنه صار ينبوع الحياة الذي يعطي الحياة للكل، ولأنه سبق الجميع في تحرير الحياة" (ضد الهرطقات ٢: ٢٢ — ٢٤).

وقد استخدم القديس إيرينيئوس كلمة رئاسة المسيح وأسبقيته على كل شيء مؤكدًا بذلك ليس فقط ألوهية الرب يسوع، بل رئاسة المسيح في نقطتين: الأسبقية التي تجعله يسبق ويتقدم على الكل (كولوسي ١: ١٨)، واجتماع الكل

تحت رأسه الواحد "تدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض" (أف ١: ١٠). وجمع كل شيء هو ما صار يُعرف باسم Re-capitulation لأن Capita هي رأس أو رئاسة (حسب اللاتينية) فهو يصبح المصدر والينبوع الجديد لحياة كل الكائنات باتحاده بالناسوت وبإبادة الموت والفساد من الإنسانية. "بداية جمع كل شيء تحت رئاسته كانت بالحبل من القديسة مريم" (ضد الهرطقات ٣: ٢٢ – ٢٤).

لماذا تجسد الكلمة ابن الله؟

يا ليت هذا التعليم كان معروفًا في العصر الوسيط الأوربي الذي أفرز تعليم أنسلم. يجيب القديس إيرينيئوس على هذا السؤال كما يلي:

"لهذا الهدف كلمة الله صار إنسانًا، والذي هو ابن الله صار ابن الإنسان؛ لكي ينال البشر الكلمة وفيه التبني ويصبح البشر أبناء الله. لم يكن هناك طريقٌ آخر نقبل فيه عدم الفساد والخلود إلا إذا اتحدنا بعدم الفساد والخلود. ولكن كيف يمكن أن نتحد بعدم الفساد والخلود إلَّا إذا صار عدم الفساد والخلود أولًا في كياننا، لكي ما ينفُذ إلينا ويُبتَلَعُ الفسادُ بعدم الفساد، والمائتُ بعد الموت، وأيضًا لكي نصير بالتبني أبناء الله" (ضد الهرطقات ٣: ١٩: ١).

إذن، ليس بسبب خطية آدم، تجسَّد الابنُ الكلمة، وهو ما يؤكده إيرينيئوس عن تبادل الفساد بعد الفساد والموت بالخلود، لا دفعًا لثمنٍ ولا بدليةً عقابيةً، ويجب ألا ننسى أن إيرينيئوس هو أقرب شخصية للعصر الرسولي. ولذلك يؤكد إيرينيئوس في فقرة تالية:

"كما أن شجرة الزيتون البرية لا تفقد جوهرها الخشبي عندما تُطعَّم، ولكن ثمرها يتغير وتنال اسمًا آخر، ولكنها لا تُدعى شجرة زيتون برية، وكما تغيَّرت هكذا نحن البشر غُرسنا بالإيمان لكي ننال روح الله، دون أن نفقد جوهر الجسد (الكيان الجسداني) ولكن يتغيَّر نوع الثمار بالأعمال، وننال اسمًا آخر يؤكد أننا

تغيَّرنا للأفضل، فلسنا بعد مجرد جسد ودم، كائنات روحية" (ضد الهرطقات ٥: ١٠: ١ – ٢).

المقارنة بين حواء والعذراء مريم

"والآن استُعلِن الرب عندما جاء إلينا، ولد بواسطة من النظام الذي خلقه والذي يحفظه. وبطاعته على الشجرة (الصليب) جمع الكل، وما حدث بسبب عدم الطاعة بسبب الشجرة (شجرة معرفة الخير والشر)، وقوة إغراء العذراء حواء التي كانت مخطوبةً لرجلٍ وأُغريَت بالشر، ولكن هذا تغيَّر عندما جاء ملاكٌ يبشر بالحق وببشارةٍ مفرحةٍ للعذراء مريم التي كانت مخطوبةً لرجلٍ. وكما أُغريت حواء بكلمة من الملاك فتحولت عن الله وعصت كلمته، هكذا، مريم بكلمة من الملاك قَبِلَت البشارة بأنها سوف تحبل وأطاعت الكلمة. الأولى أُغريت بعصيان الله وسقطت، ولكن الثانية أُغريت بطاعة الله لكي ما تصير مريم العذراء شفيعة حواء العذراء" (ضد الهرطقات ٥: ١٩: ١).

تطبيق المقارنة بين حواء ومريم

"وكما خضع الجنس البشري للموت بواسطة ما فعلته عذراء (حواء)، هكذا خَلُصَ بطاعة العذراء، وعصيان العذراء الأولى تمت مساواته بالتمام بطاعة الأخرى (مريم). وحقًّا أُبيدت خطية الإنسان الأول بآلام الابن البكر. وحكمة الحية غُلِبَت ببساطة (نقاوة) الحمامة، والسلاسل التي قيَّدتنا بالموت قُطِعَت" (ضد الهرطقات ٥: ١٩: ١).

المسيح جاء ليجمع كل شيء في كيانه

"لهذا السبب (ما سبق وأن ذكره القديس إيرينيئوس) يجمع المسيح كل شيء في كيانه، ويوحِّد البشر بالروح القدس، ويضع الروح في البشر لأنه هو ذاته صار رأسًا (بداية عمل الروح القدس) للروح، ويعطي الروح لكي يصبح الروح

بداية البشـــر. هو ذاته جمع بكمالٍ كلَّ شـــيء في ذاته، الحرب ضـــد العدو ولعنة العدو (الشيطان) الذي في البدء أسر آدم. سحق رأسه، وهو ما تجدونه في سفر التكوين عندما قال الله للحية: وأضع عداوةً بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسل المرأة؛ لأنه سوف يبحث عن رأسك، وأنت سوف تبحثين عن عقبه (راجع تك ٣: ١٥). ومن هذه الكلمات عرفنا بشارة الذي سوف يولد من العذراء كشبه آدم الذي سوف يبحث عن رأس الحية" (ضد الهرطقات ٥: ٢٠: ٢، ٢١: ١).

كيف تم ذلك؟

"لم يكن ممكنًا قطعًا أن يُســـحق العدو، إلَّا إذا كان (الرب) قد ولد من امرأةٍ؛ لأنه في البدء كان للعدو سلطانٌ علينا بواسطة المرأة وصار عدوًّا للبشر. لكن لأن الرب أعلن ذاته (ابن الإنسان)، ولكي يجمع من جديد الإنسان الأول الذي منه بدء تكوين البشر، ولأن جنسنا انحدر إلى الموت بواسطة الإنسان الذي أُسِر، يصعد مرةً ثانيةً للحياة بالإنسان الذي غَلَبَ، وكما بيدِ الموتِ كسب الانتصارَ على البشر، هكذا بإنسانٍ يكسب الإنسانُ يدَ الانتصار على الموت" (ضد الهرطقات ٥: ٢١: ١).

برهان الكرازة الرسولية

كان يوســـابيوس المؤرخ قد ذكر قائمة كتابات إيرينيئوس، وذكر في هذه القائمة مقالة برهان الكرازة الرسولية، وقد عُثِر على هذا النص في ترجمة باللغة الأرمينية القديمة، وفي عام ١٩١٩ نُشِر النص مع ترجمة فرنسية بواسطة المستشرقين GRAFFIN، و NAE في مجموعة الآباء الشـــرقيين. وقد اعتمدنا على ترجمة JOSEPH SMITH الأستاذ في المعهد البابوي لدراسات الكتاب المقدس في روما والتي صدرت في عام ١٩٥٢، ونُشِرت في مجموعة الكتابات المسيحية القديمة مجلد ٢٦[1].

(١) من الجدير بالذكر أن الدكتور نصحي عبد الشهيد والدكتور جورج عوض إبراهيم قاما بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، ونشره المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، أغسطس ٢٠٠٥، سلسلة نصوص آبائية رقم ٩٤.

الأهمية القصوى للرجوع لمقالة برهان الكرازة الرسولية

أولًا: تأكيد ما ورد في دفاع القديس إيرينيئوس ضد مارقيان، أي أننا إزاء نفس اللاهوت، وهو هنا التسليم أو التعليم الرسولي كما دوَّنه إيرينيئوس، وهو من الجيل الثاني. فنحن هنا أمام تعليم نقي يخلو من الإضافات التي تمت ابتداءً من القديس أوغسطينوس إلى القديس توما الإكويني.

ثانيًا: إلى جوار هذه النقاوة، نلاحظ انعدام سيطرة الخطية، الأمر الذي رأيناه في تكوين النظام اللاهوتي الغربي الكاثوليكي فيما بعد. فلم تكن خطية آدم هي سبب الفداء، بل صلاح الله وشفقته ورحمته على البشر كخالقٍ صالحٍ محبٍّ للبشر.

الله خالق الكون بالابن وبالروح القدس

حسب تقسيم الناشر ابتداءً من ص ٥٤:

"يتمجد الله بكلمته، أي الابن الأبدي والروح القدس الذي هو حكمة آب الكل. هذان الأقنومان الإلهيان، الكلمة والحكمة، لهما في خدمتهما طغمة من الأرواح الملائكية تدعى الشاروبيم والسيرافيم بصوتٍ لا يسكت يمجدون الله، وكذلك أيضًا كل القوات السمائية تمجد الله آب الكل الذي أسس بالكلمة الكون كله، وأيضًا الملائكة لأنهم من ضمن الكون ..." (فقرة ١٠).

"أما الإنسان وحده فهو الذي خُلِق بيدي الله الذي أخذ ترابًا نقيًا خالصًا من الشوائب وحسب مقدار احتياج تكوين الإنسان مزجه الله بقوته ومنه صنع هيكل الإنسان لكي يعطي له شكلًا يتناسب مع الصورة الإلهية لكي يصبح الشكل المنظور بدوره مثل الله لأن الإنسان خلق كصورة لله عندما كوِّن ووضِع على الأرض. ولكي يحيا "نفخ في وجهه نسمة الحياة" لكي يصبح الإنسان مثل الله في حياته الداخلية والخارجية معًا. وكان الإنسان حرًا وسيد حياته وخلقه الله

لكي يسود على كل الكائنات التي على الأرض" (فقرة ١١).

وبعد أن تكلم على خلق حواء كمساوية تمامًا للرجل آدم (فقرة ١٣) أكَّد بعدها أن آدم وحواء "كانا عريانين وهما لا يخجلان" (تك ٢: ٢٥)، لأن أفكارهما كانت بريئة مثل أفكار الأطفال، ولم يكن قد تكون فيهما بعد الخيال الذي يُكوِّن في النفس الشر بالشهوة الرديئة الجارفة. لأنهما كانا في أمانة تامة تحفظ كيانهما كما خُلِق لأن ما أعطي لهما من نسمة الحياة كان روح الحياة، وفي هذه العطية التي كانا يمكن أن يبقيا فيها كانا يستطيعان البقاء كما خُلِقا وبقوة دافعة للحياة بدون الخيال الذي يسعى وراء لذة جارفة ويطلب ما هو مُخجل، لأنهما لهذا السبب كانا غير خجلين وكانا يُقبِّلان كلٌّ الآخر ويحتضن كلٌّ الآخر في براءة الأطفال" (فقرة ١٤ راجع الترجمة الإنجليزية سلسلة آباء الكنيسة مجلد ١٦: ١١٥٢ ص ٥٦).

السقوط من البراءة:

كان السقوط بغواية الشيطان، وكلمة "شيطان" العبرانية حسب شرح إيرينيئوس تعني العاصي والمشتكي، فهو الذي أدخل في فكر الإنسان العصيان، ولذلك لم يعد آدم في هارموني أو تناغم مع الفردوس، فطرد منه (فقرة ١٦ ص ٥٧). ولاحظ هنا دقة سفر التكوين، لأن الله لم يلعن آدم، وإنما لعن البيئة (تك ٣: ١٧)، أي الأرض، ولم يلعن الله الجنس البشري، لأن التجسد كان في التدبير الإلهي السابق على سقوط آدم (أف ١: ٤): "اختارنا فيه قبل خلق أو تأسيس الكون لنكون قديسين وبلا لوم ..". ولذلك يؤكد القديس إيرينيئوس أن الإنسان الأول: "خُلِق بإرادة الله وحكمته ومن الأرض العذراء[1] (لأنها لم تكن قد زُرِعت بعد بواسطة الإنسان) لأن الله لم يكن قد أمطر على الأرض -كما يقول

(١) لعل القارئ المحب للتسبحة السنوية قد لاحظ أن ألفاظًا كثيرة بعينها وردت في التسبحة وفي كتابات القديس إيرينيئوس لأن كلاهما لهما مصدر واحد وهو التسليم الكنسي "العذراء هي الكرمة التي لم يُفلِّحها أحد".

الكتاب- لأن الإنسان لم يكن قد خُلِق بعد، وهو ما جعل الأرض عذراء، ومن تراب الأرض العذراء أخذ الرب التراب وخلق الإنسان ليكون بداية وجود الجنس البشري. وعندما خلق الله الإنسان كان قد رتَّب بالخلق تدبير التجسد، لأن المتجسد وُلِد أيضًا بإرادة الله وحكمته من عذراء، وبذلك أتم ما حدث في خلق آدم بتجسده، أي أن يكون الإنسان مخلوقًا حسب الصورة والمثال" (المرجع السابق، فقرة ٣٢ ص ٦٨). ومن هذا يجد القديس إيرينيئوس مثالين للتدبير: المثال الأول هو "العذراء التي عصت وجلبت على الإنسانية السقوط والموت لكي بعذراء التي سوف تطيع كلمة الله، سوف يقوم الإنسان بالحياة للحياة التي سوف تُوهب له، لأن الرب جاء لكي يطلب ويسترد الخروف الضال، أي الإنسان الذي ضل" (المرجع السابق، فقرة ٣٣ ص ٦٩). ومن هذه النقطة بالذات يقدم القديس إيرينيئوس مقارنة بين الصليب وشجرة المعرفة: "الخطية التي دخلت بواسطة الشجرة قد حُلت بالطاعة وبالشجرة، أي بطاعة الله عندما سُمر ابن الإنسان على الشجرة، وبذلك أباد معرفة الشر، وأدخل وأعطى معرفة الخير، لأن الشر هو عصيان الله وطاعة الله هي الخير ... لأنه بالطاعة حتى الموت عُلِّق على الشجرة (الخشبة)، فحلَّ العصيان القديم الذي جاء بالشجرة. ولأنه هو كلمة الله ضابط الكل وغير المنظور ويحل فينا وفي الكون كله ويحيط (يحتوي) الطول والعرض والعلو والعمق - ولأن كل الأشياء خُلقت بواسطة كلمة الله، وهو سبب بقائها- صُلِب ابن الله وصُوِّر في صلبه الطول والعرض والعلو والعمق في شكل الصليب[1] لكي بالشكل المنظور للصليب يستعلن بشكل الصليب قوته التي تشمل الكل لأنه هو (يسوع المصلوب) ينير ما هو أعلا أي السموات، ويمسك بالأعماق أي أحشاء الأرض، ويمد قوته من الشرق للغرب والشمال والجنوب، ويدعو كل المتفرقين في كل أرجاء الكون إلى معرفة الآب" (المرجع السابق، فقرة ٣٤: ص ٦٩-٧٠).

(١) الصليب الكوني Cosmic في كلمات أفسس ٣: ٢٨ الطول والعرض والعلو والعمق أي امتداد عمل الخلاص في طول الأرض وفي كل الجنس البشري والمصالحة مع السمائيين، بل وبالنزول إلى الجحيم لخلاص المأسورين، وهكذا اشترك الكون كله في الصليب.

سقوط آدم وحواء

"ولكي لا ينتفخ آدم بأفكار العظمة كما لو كان لا ربَّ له No Lord بسبب السلطة التي أُعطيت له، بل والحرية، فيسقط في الخطية ضد الله خالقه ويتعدَّى حدود (طبيعته)، ولكي لا ينخدع بسبب أفكار الكبرياء فيتمرد على الله، أعطاه الله شريعةً تجعله يعرف أن له ربٌّ هو ربُّ الكل. وأعطاه الله وصايا خاصة، إذا حفظها سوف يبقى كما هو (صورة الله)، أي خالدًا، أما إذا عصى فسوف يموت وينحل إلى التراب من حيث خلق هيكله. وكانت الوصية هي: من جميع شجر الجنة تأكل ولكن شجرة معرفة الخير والشر لا تأكل لأنك يوم تأكل منها موتًا تموت" (المرجع السابق، فقرة ١٥).

سقوط الإنسان

"ولم يحفظ الإنسان الوصية، وعصى الله. فقد أضلَّه ملاكٌ كان يحسد الإنسان، وبرؤيةٍ شريرةٍ كان يراه؛ لأن الله ميَّز الإنسان وأعطاه مزايا كثيرة، فسعى لأن يسقطه ويجعل الإنسان خاطئًا، وأغواه أن يعصي وصية الله. فصار الملاك بدءَ الشر وينبوعًا للخطية، فضُرِبَ لأنه عصى الله، وكان سببًا في طرد الإنسان من الفردوس. وسقط لأن طبيعته تعظَّمت وعصت الله. واسم هذا الملاك في العبرانية (الشيطان)، أي العاصي، وهو نفسه يُدعى (المشتكي)، ووبَّخ الله الحية لأنها حملت الشيطان ولُعِنَت الحيةُ والشيطان معًا، أي الحية والملاك لأن الشيطان اختبأ في الحية" (فقرة ١٦).

وبعد أن يقدم القديس إيرينيئوس ملخَّصًا لكل حوادث العهد القديم، يقدم اعتبارًا من الفقرة ٣٠ وما بعدها تدبير الخلاص:

"أرسل الله الأنبياء ... فصاروا مبشرين باستعلان ربنا يسوع المسيح ابن الله، وبأن إنسانيته سوف تنبُت من نسل داود وأنه حسب الجسد سيكون ابن داود ... ولكن حسب الروح هو ابن الله الكائن دائمًا مع الآب، والذي وُلِدَ قبل

إنشـــاء العالم، وظهر للكون كله في نهاية الدهر، الكلمة من الله الذي أخذ من جديد في ذاته كل ما في الســـموات وما على الأرض. فوحَّد الإنســـان مع الله وأعطى شـركة الله والإنسـان لأنه لم يكن ممكنًا أن نلبس عدم الفسـاد إذا لم يكن هو قد جاء إلينا؛ لأن عدم الفســـاد لو ظلَّ غير منظور وفوق إدراك الحواس، لَمَا فهمناه، ولكنه صـار منظورًا لكي ننال الشـركة في عدم الفسـاد، صـار منظورًا لكي نعود من جديد إلى الشـــركة الكاملة في عدم الفســـاد. ولأن الكل رُبِطوا بالموت بسبب معصية آدم، إذ لحقهم الموت، لكن بطاعة الذي صـار إنسـنًا لأجلنا، ولأن الموت ساد على الجسد، كان من الضروري بواسطة الجسد أن يحل قيد الموت، وأن يفك أسر الإنسان من سيادة الموت، ولذلك صار الكلمةُ جسدًا لكي يبيد الخطية بواسـطة نفس الجسـد الذي كان للموت سـيادةٌ عليه ولكي لا يسـود الموت علينا، لهذا أخذ الرب بدايتنا نفســـها عندما تجســـد ولكي ينضـــم إلى المعركة عن آبائه السابقين، وأن يغلب بآدم بذات الذي هُزِم في آدم" (فقرة ٣١).

أعتقد أنه لا يوجد وضـوحٌ أكثر من هذا. ما غُلِب وقُهِر في آدم، ينتصـر في آدم الجديد.

هذا هو الفداء في تكوينه النقي الخالي من شوائب العصر الوسيط.

وبعد أن ســـرد القديس إيرينيئوس تاريخ الخلاص، وعقد مقارنةً بين آدم والمسيح، وبين العذراء حواء والعذراء مريم، يقدم شرحًا موجزًا جدًا لصلب الرب.

شجرة المعرفة وشجرة الصليب

"والخطية التي ارتُكِبَت بواسـطة الشـجرة، أُزيلت بالطاعة لله على الشـجرة عندما سُمِّر ابن الله على الشـجرة، وأباد معرفة الشـر وجاء بمعرفة الخير بطاعة الله، والشر بعدم طاعة الله ... وهكذا بالطاعة حتى الموت، وعندما عُلِّق على الشجرة، أزال العصيان القديم الذي جاء بالشجرة ..." (فقرة ٣٤).

الانتصار في المسيح

"عظيمةٌ إذن كانت رحمة الله الآب الذي أرسل الكلمة الخالق عندما جاء لكي يخلصنا، فوضع ذاته في مكاننا وفي نفس الموقف الذ فيه فقدنا الحياة، ففك قيود السجن وظهر نوره الذي طارد الظلمة في السجن، فقدس ميلادنا وأباد الموت وفك القيود التي كبلتنا. وأشرق بالقيامة، فصار هو نفسه (البكر من الأموات)، وبذلك أقام في كيانه الإنسان الساقط وأصعده إلى أعلى السموات إلى يمين مجد الآب حسبما وعد الله في الأنبياء بقوله (سوف أقيم خيمة داود الساقطة) أي الجسد الذي جاء من داود. وهكذا بالحقيقة تم في ربنا يسوع المسيح انتصار الفداء لأنه حقًا يقيمنا ويحررنا للآب. ومن لا يقبل الميلاد من العذراء، هل يقبل قيامة ربنا من الأموات؟ ... فإذا لم يكن قد وُلِد، فهو لم يمت ولم يقم من الأموات، وإذا كان لم يقم من الأموات، فهو لم يهزم الموت ولم يفقد الموت ملكه، فكيف ننتقل إلى الحياة السماوية ؟ ..." (فقرة ٣٨ – ٣٩).

ضعف آدم الأول

من الصعب على من اعتبر القديس أوغسطينوس المفسر الوحيد للإيمان أن يفهم ما دوَّنه القديس إيرينيئوس. يكاد إيرينيئوس أن يقول إن خطية آدم كانت ضرورية لكي يعرف الإنسان الفرق بين الخير والشر. لاحظ صياغة إيرينيئوس في كتابه ضد الهرطقات:

"كان من الضروري أن تظهر طبيعة الإنسان الأول، وأن غلبة المائت بعدم المائت سوف تظهر أيضًا، والفاسد بعدم الفساد، وأن الإنسان الذي خُلِق في صورة الله ومثاله بعد أن أدرك الفرق بين معرفة الخير والشر سوف يتعلمون (البشر) الخير والشر، وأن طاعة الله هي الخير، وعصيان الله هو الشر ... لأن الإنسان يذوق ما هو حلو لكي يعرف ما هو مُر، وهكذا يتعلم العقل ما هو خير لكي يدرك ما هو شر ..." (ضد الهرطقات ٤: ٣٨: ٤، ٣٩: ١).

وسبق للقديس إيرينيئوس في الكتاب الثالث (٢٠: ١ – ٢) أن كتب "الله الغني سبق ورأى فشل وانتصار الإنسان في الكلمة لأن الفضيلة كانت طفلةً (راجع ٢ كور ١٢: ٩)، فأعطى الإنسان فسحةً من الوقت لكي بالرحمة يعرف شبه الله وقوته الفائقة ...".

وهكذا طرد الله آدم من الفردوس:

"لهذا السبب أيضًا طرد الله آدم من الفردوس وأبعده بعيدًا جدًا عن شجرة الحياة –لا لكي يمنعه الحسد من الشجرة، ولكن بالشفقة لكي لا يبقى إلى الأبد في التعدي، وأن تبح الخطية التي أحاطت به أبدية وباقية وتصبح شرًا لا علاج له. ولكن الله منع التعدي بدخول الموت وانتهت الخطية بانحلال الجسد" (ضد الهرطقات ٣: ٢٣: ٦).

تدبير الخلاص في المسيح الذي جاء لكي يجمع كل شيء

"جاء المسيح لكي يجمع الكل في ذاته موحِّدًا البشر بالروح وواضعًا الروح في البشر فصار هو ذاته بدايةَ (رأس) الروح ويعطي الروح ليكون بداية الإنسانية لأننا بالروح نرى ونسمع ونتكلم، لهذا جمع (المسيح) كل الأشياء بالتمام في كيانه .." (ضد الهرطقات ٥: ٢٠: ٢).

وتم انتصار التدبير:

"العدو لن يكون بالعدل قد غُلِب إن لم يكن إنسان مولود من امرأة قد غلبه؛ لأنه في البدء صارت للعدو القوة بواسطة امرأة، فصار عدوًا للبشر. ولذلك السبب أعلن الرب أنه ابن الإنسان لكي يجمع في ذاته الإنسان الأول الذي من امرأة تكوَّنت البشرية في البدء، وهكذا ساد الموت على جنسنا؛ لأن الإنسان غُلِب، ولكننا نعود إلى الحياة مرةً أخرى بالإنسان الذي غَلَب .." (ضد الهرطقات ٥: ٢١: ١).

القديس إيرينيئوس والخطية الأصلية:

لم يظهر تعبير الخطية الأصلية في كتابات القديس أوغسطينوس حتى سنة ٣٩٨، وهي السنة التي كتب فيها كتاب "الاعترافات"، أشهر اعتراف في تاريخ الكنيسة المسيحية على وجه الإطلاق:

"كان وصولي إلى روما هو بداية مرض موجع وكنت في طريقي إلى العالم السفلي حاملًا معي كل علامات الشر التي ارتكبتها ضدك (الله) وضد نفسي وضد الآخرين، خطايا كثيرة وفظيعة، ويضاف إليها سلسلة **الخطية الأصلية** التي بها نموت في آدم (١كو ١٥: ٢٢)، والتي لم تكن قد غفرتها (يا الله)" (الكتاب ٥: ٩-١٦).

ماذا كان اوغسطينوس يقصد بـ Originate Peccatum خصوصًا وهو يقتبس عبارة الرسول بولس في (١كو ١٥: ٢٢)؟ بلا شك تلك الصلة العضوية بين الخطية والموت، وهي الصلة التي لا تزال مجهولة عندنا في الكتابات القبطية المعاصرة لنا. لم يقدِّم أوغسطينوس في كتاب "الاعترافات" أي نصوص أخرى عن "خطية تورَّث" من آدم، وربما كان يقصد بالاعتراف السابق أنه كان مع البشرية كلها خاطئًا، لأن البداية تعود إلى آدم الذي أخطأ. لم يعرف القديس إيرينيئوس تعبير ولا مضمون الخطية الأصلية، بل يقول: "بسبب الوالدين جئنا جميعًا إلى عبودية" (ضد الهرطقات ٤: ٢٢ - ١) لأن آدم هو "أول من هُزم وأول من أُسر" (ضد الهرطقات ٣: ٢٣-٧ — ٣: ٢٢-٢)، وسقوط آدم وَضَع الجنس البشري كله تحت الدينونة (ضد الهرطقات ٣: ٢٣-٧)، لأن الجنس البشري ولد كله وعاش خارج الفردوس (شرح الكرازة الرسولية فقرة ١٦).

إذن، الموضوع الأصلي ليس خطية آدم، بل الموت، الموت الذي جاء مع الخطية (رو ٥: ١٢)، ولذلك كتب القديس إيرينيئوس: "الله لم يلعن الإنسان بل الأرض" (ضد الهرطقات ٣: ٢٣ - ٥) لأن الله كان يرتِّب فداء الإنسان ولعن

الشيطان (المرجع السابق). ولكن منذ أن كتب الشاعر الإنجليزي ميلتون "الفردوس المفقود"، وأعاد ترتيب قصة السقوط، ترك عددٌ كبير من الكتاب ما سجَّله سفر التكوين، وأخذوا من "الفردوس المفقود" التفاحة واللعنة وغضب الله، وهو ما كان سائدًا قبل ميلتون في العصر الوسيط، عصر سيادة القانون على اللاهوت. أما في (رو ٥: ١٢-٢١ مع ١كو ١٥: ٢٠-٤٥) فكل التعليم لا يدور عن الخطية، بل عن الموت. ولم ترد كلمة الخطية في التعليم إلَّا مرة واحدة وهي إبادة "عائل" الخطية، أي الموت في عبارة الرسول "إن لم يكن المسيح قد قام فباطل ايمانكم .. أنتم بعد في خطاياكم" (١٥: ١٧).

الخلاصة

عاش إيرينيئوس قريبًا من العصر الرسولي لأنه كان تلميذًا للقديس بوليكارب، وبوليكارب كان تلميذًا للرسول يوحنا الإنجيلي.

١- وضع إيرينيئوس الإيمان في مقارنة بين الإنسان الأول آدم، والإنسان يسوع المسيح الذي جمع في كيانه كل شيء. الإنسان الأول كان طفلًا والإنسان يسوع المسيح هو الإنسان الكامل الذي جاء لكي يعيد الحياة التي فُقِدت ويرد عطية الروح القدس.

٢- منع الله آدم من الأكل من شجرة الحياة، ليس عن حسدٍ، بل برحمةٍ حتى لا يحيا الإنسان في العصيان إلى الأبد.

٣- لم يذكر إيرينيئوس، ولم يكتب عبارة "الخطية الأصلية"، ولا حتى المحتوى نفسه؛ لأن فكرة الوراثة ذاتها غابت عن الشرح.

الفصل الثالث

مدرسة الإسكندرية

العلَّامة أكليمنضس

في القرن الثاني، في الإسكندرية كتب أكليمنضس السكندري كتابه "إلى الوثنيين"، يدعوهم إلى الإيمان بالمسيح:

"انتبهوا ولو للحظة -إذا أردتم- إلى الإحسان الذي أعطاه الله في البدء إذا عُدنا إلى الوراء، أي البدء. كان حقًا لدى الإنسان الأول الزمان الذي تمتع فيه في الفردوس بدون أي عائق؛ لأنه رأى أنه طفلُ الله، ولكن جاء زمانٌ سقط فيه تحت سلطان الشهوة؛ لأن الحية التي تزحف على بطنها هي رمزٌ لكل شهوةٍ ترابيةٍ شريرةٍ، والتي تشتعل مثل الوقود الذي يقدم للنار. وهكذا قادت الشهوةُ الإنسانَ وتقدم في العمر في العصيان وعصى الله أبيه، ولم يكرم إلهه. كان هذا هو سرور الإنسان لأنه بسبب براءة الإنسان عصى وأُسِر بالخطايا. وهو ذات الإنسان الذي أراد الرب أن يفكَّه من قيوده لأن الرب بسرٍّ إلهي قيَّد نفسه بالجسد وبهذا السر صارع العدو وأسر الطاغية، بل والموت نفسه. وهو يفوق الكل أن الإنسان نفسه الذي غُلِب بالشهوة وقيَّده الفساد هو نفسه الإنسان الذي أطلق سراح الإنسان الأول بيديه الحرة. يا لهذا السر الفائق، الرب انحنى لكي يقوم (يرتفع) الإنسان، والذي طُرِدَ من الجنة ينال جائزةً أفضل وأعظم من الجنة، أي السماء نفسها" (إلى الوثنيين ٩: ١٧ طبعة Dindrof).

وفي الكتاب الثالث من المتنوعات والفصل ١٥ يكتب أكليمنضس:

"الإنسان ذلك المخلوق الذي خلقه الله ضابط الكل، بكل يقين لا يرضى الله أن يحدره مما هو عظيم إلى ما هو أسوأ أبدًا، بل بالحري جاء المخلص لنا نحن الذين ضُللت عقولنا والتي فسدت بسبب عصيان الوصايا، نحن الذين أحببنا اللذة كثر من محبتنا للوصايا لأن الإنسان الأول الذي كان له نفس العقل الذي لنا، ولذلك أعتقِد أنه في زمانٍ معيَّن من الله نحن ذرية آدم ننال الميلاد".

أكليمنضس السكندري ومعمودية الأطفال

لو كان لدى هذا العالِم الفريد وأستاذ الذين درسوا معه أية فكرة عن وراثة خطية آدم، لما كتب هذه الكلمات:

"عليهم أن يقولوا لنا متى ارتكب الطفل المولود خطية الزنا، وكيف مَن لم يرتكب شيئًا بالمرة، كيف سقط تحت لعنة آدم؟" (المتنوعات ٣: ١٧ – ١٠٠).

وعندما يشرح كلمات المزمور "بالخطية حبلت بي أمي، وبالإثم حبلت بي"، يقول: "هو يشير بصوتٍ نبوي إلى حواء كأُمٍ له .. لأن حواء هي أُم كل كائنٍ حي، وهي أُم داود نفسه، وحتى إذا كان داود قد حُبِلَ به بالخطية، إلَّا أنه هو لم يرتكب خطية" (المتنوعات ٣: ١٧ – ٢٠٠).

ويبدو أن العلامة كان يقصد خطية آدم، خصوصًا أنه في نفس الكتاب (٩: ١٥) يسأل: ما هي الخطية؟ المرأة هي التي بدأت بالعصيان، ودُعيَت حواء، ولأنها تحمل مسئولية كل الذين يُولدون بالتناسل لأنها أُم كل حي، أُم البر، وأُم العصيان معًا. لكن كل منا يحيا كَبارٍ أو كعاصٍ، ولأن ما كتبه الرسول لا أعتقد أنه كان يبغض الحياة في الجسد عندما قال: لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح".

كانت الغنوصية بمثابة تعليم بكراهية الجسد والزواج والولادة؛ لأن النفس

تولد لكي تُسجن في الجسد. وكتب العلامة أن الغنوصيين وجدوا في إنجيل المصريين (أبوكريفا) أن المخلص نفسه قال: "لقد جئت لكي أبيد أعمال المرأة"، ويقصد الغنوصيون أن المرأة هي الشهوة، وأعمال المرأة هي الحبل والولادة. وماذا نقول هل حدث هذا فعلًا؟ إذ لاتزال محبة المال .. وجنون الشهوة للنساء فينا لأن النفس تولد (حسب كلمات الرسول بولس) كنا أمواتًا بالخطية (رو ٥: ١٢).

فالموت هو سبب الخطية بعد أن جاءت الخطية بالموت "الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس" (صلاة الصلح الباسيلي)، فهو التعليم الرسولي الأصيل.

العلَّامة أوريجينوس

ربما وُلِد حوالي ١٨٥، أو ١٨٦ وحدد هارناك هذا التاريخ لأن العلامة وُلِد في السنة ٩٦ من ملك القيصر Commodus كومودوس.

إشكاليات كتاب المبادئ

وصلنا النص اللاتيني، وبعض فقرات من الأصل اليوناني، ولذلك لا يمكن الاعتماد على هذا الكتاب، خصوصًا وأن العلامة عبَّر عن حزنه لما دسَّه الغنوصيون من كلمات في الكتاب.

– إشكالية وجود النفس قبل أن توجد في الجسد: حيث أخطأت في العالم السماوي ولذلك حُبِست في سجن الجسد (المبادئ ٢: ٨ ص ١٥٨ طبعة koetschau).

– إشكالية نفس يسوع: هذه النفس وُجِدت قبل أن توجد في الجسد، ونزلت في الجسد طواعيةً لكي تكمل تدبير الخلاص، وكانت نقيةً تمامًا (المرجع السابق ٢: ٦ – ٣ ص ١٤٢).

وكذلك نفوس أبرار آخرين نزلوا إلى الجسد لأنهم لم يخطئوا، بل لأنهم أطاعوا وصيةً إلهيةً للعمل مع الله في تجديد البشر مثل أشعياء وأرميا وحزقيال ويوحنا المعمدان (شرح إنجيل يوحنا ٢: ٣).

وهنا يبدو لنا أنه لا مجال لشرح خطية آدم، أو وراثة الخطية حسب فكر أوغسطينوس. ولكن من الواضح أن أوريجينوس، كتب ذلك تحت إيحاء فلسفة أفلاطون والأفلاطونية المحدثة التي ولدت في الإسكندرية نفسها.

فإذا تركنا ما ورد في كتاب المبادئ بسبب اللغط الذي دار حوله وامتد من القرن الثالث حتى القرن العشرين، فذلك ليس تجنيبًا لاسم العلامة أوريجينوس، بل تحذيرًا من بعض الأفكار التي لم يكتبها العلامة كعقيدة في الكنيسة، بل كشرحٍ رأى أنه من حقه.

الصورة الإلهية في الإنسان

"صانع الصورة الإلهية في البشر يظهر بشكل واضح في تمييزه، فهو ليس في صورة الجسد الذي سوف يعاني الفساد، ولكن الصورة تظهر في أسلوب الحياة بالصدق، بضبط النفس والشجاعة والحكمة. وفي حقيقة الأمر في توافر الفضائل التي لها أصل في الله، وهي فينا نحن أيضًا بحسب ما لدينا من اجتهاد في التشبُّه بالله" (كتاب ٤: ٤ – ١٠).

هذا أحد جوانب الصورة الإلهية، فهي تشبُّه بالله يصفه العلامة بأن البشر لهم قرابة بالله (المرجع السابق).

هذه الصلة مصدرها اللوغوس، فهو صورة الآب، أمَّا البشر فهم صورة الله المخلوقة لأنهم خُلِقوا ليكون لهم شركة في اللوغوس.

"من الواضح أن مصدر الحياة النقية التي فيه والتي لا تختلط بشيء من

عدم القداسة هي كائنة في بكر كل الخليقة (كولوسي ١: ٥)، ومنه، من هذا الينبوع كل الذين لهم شركة في المسيح بحسب الحياة الحقيقية. أما الذين يعيشون الحياة غير الحقيقية وبدون اللوغوس، فليس فيهم النور الحقيقي ولا هم حقًا أحياء حياة حقيقية" (شرح إنجيل يوحنا ١: ٢٨).

الابن هو الفنان الذي رسم صورته في الإنسان

"ابن الله هو الرَّسام لهذه الصورة. هي عمل فني عظيم لفنان قدير. ولكن هذه الصورة يمكن أن تظلَّم بالتهاون، ولكن لا يمكن أن تدمَّر بالشهوات" (المبادئ ٣: ١ – ٣ النص اللاتيني).

هذه الكلمات الهامة تكشف لنا عن فكر العلامة:

– "لا توجد عطية أعطاها الخالق لطبيعة مخلوقة بالقهر ولكن بالنعمة".

– "ولا يمكن بالمرة أن تكون الحياة الأبدية هي ثمنٌ يُدفع لوفاء دين. هذا لا يقبله الله، بل الحياة الأبدية هي نعمة" (شرح رسالة رومية شذرة ٢).

وأيضًا عندما يقول الرسول: "ليس لمن يعمل لكي ينال أجرةً على أنها نعمة، بل لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر، إيمانه يُحسَب له برًّا (رو ٤: ٤ – ٥)" (راجع شرح رومية ٤: ١).

شرح العلَّامة أوريجينوس للخطية

عندما قرأ العلامة أن المرأة تُحسَب نجسة بسبب الولادة، وأنها يجب أن تقدم ذبيحة، وبسبب الالتصاق بالفلسفة الأفلاطونية، فَهِمَ الفقرة على أن هناك نوعًا من الدنس يحيط بالولادة. يظهر هذا في رده على كلسوس، إذ يقول للفيلسوف: "موضوع آدم وابنه سوف يجيب عليه فلسفيًا أولئك الذين يعرفون من اللغة العبرانية أن آدم يشير إلى الإنسانية، وفي بعض الفقرات التي يُذكر فيها آدم كشخص كان

موسى يتكلم بشكل عام عن الطبيعة الإنسانية؛ لأن "في آدم" -كما تقول الأسفار- الكلَّ قد حُكِمَ عليهم مثل تعدي آدم، وكلمة الله لا تعني شخصًا ما، بل الجنس البشري كله. الفقرات المتتابعة لهذه الفقرة والتي يظهر فيها أن الخطاب خاصٌ بشخصٍ معيَّنٍ، فإن اللعنة التي نطق بها لآدم صارت عامةً لكل أعضاء الجنس البشري. أما ما قِيل عن المرأة، فهو ما يقال عن كل امرأة دون استثناء. وعندما طُرِدا من الفردوس، الرجل والمرأة وأُعطيا قميصين من الجلد الذين عملهما الله لكل الذين تعدوا، تحتوي على سر وتعليم سري يفوق تعليم أفلاطون عن فقدان النفس لأجنحتها ونزولها إلى الأرض ..." (الرد على كلسوس ٤: ٤٠٠).

ويبدو أن أنه قرأ كلمات رومية ٥: ١٢ أن الموت قد أصاب كل البشر لأن الكل قد أخطأ. وكانت ترجمة روفينوس تذكر "فيه"، أي في آدم، بينما εφώ قد تعني in which وليس فقط in whom يعني بسبب ذلك، أي الموت، أو بسببه، أي آدم. طبعًا ما يؤكد المعنى الأول هو شرح العلامة لإنجيل يوحنا ٢٠: ٣٩ حيث يؤكد العلامة أن الموت هو سبب الخطية.

وفي بقية الفقرة (رو ٥: ١٢ - ١٤) كتب العلامة:

"كما قال "لذلك"، يبدو أنه من الضروري أن يضاف إلى ما قيل وهو ما يلي: كتب في عدة فقرات سابقة -على سبيل المثال- "كما يموت الكل في آدم، هكذا في المسيح سيُحيا الجميع"، وهنا يصبح معنى "لذلك" هو ما قاله: "وكما دخلت الخطية إلى العالم بإنسان واحد، والموت بواسطة الخطية، وهكذا به اجتاز الموت إلى جميع الناس"، لم يكمل الرسول خطابه لأنه قال على سبيل المثال إن البر جاء إلى العالم بواسطة إنسان واحد، وهكذا اجتازت الحياة لكل البشر لأن الجميع صاروا أحياء. وفي سبيل المعنى الكامن وراء الكلمات والذي يتفق مع ما ذكره في فقرة أخرى، لا يوجد فرق بين قوله: "في آدم يموت الجميع"، وبين قوله: "وكما دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس في الذي أخطأوا فيه". ويضاف إلى ذلك كما قال الرسول: "هكذا في

المسيح الكل سيُحيا"، وهي لا تختلف أبدًا عن المعنى السابق الغامض بسبب الأسلوب style" (شرح رومية، الكتاب ٥، الفصل الأول، فقرة ٣).

ما يريد العلَّامة أن يؤكده هو أن عدم كمال بعض الفقرات في كتابات بولس الرسول، هو أسلوب بولس نفسه، ولذلك عاد العلامة ليقول: "إن هذا لا يجب أن يعطي الفرصة لمن يسمع أن الموت اجتاز إلى كل البشر بالخطية، وأيضًا أن الحياة اجتازت لكل البشر بواسطة المسيح بأن الرسول اجتهد أن لا يتكلم عن هذا الموضوع بشكل علني" (٥: ١ – ٤).

ويحذِّر العلَّامة من أن اجتياز البر والحياة في المسيح هو في الفعل الحاضر في الذين يموتون في المسيح لكي يحيوا معه (المرجع السابق).

وأسلوب الرسول الذي يحتاج إلى إيضاح حيث يقول: "وكما أن العطية هكذا التعدي. لأنه كما أن الكل مات بمعصية الواحد، فكم بالحري تكون نعمة الله والعطية بالإنسان الواحد يسوع المسيح تزداد للكل" (رو ٥: ١٥).

انشغل العلَّامة بالمقارنة بين التعدي والنعمة، وبين الموت والحياة في الفقرة التالية، لا سيما "الكل"، و"الكثيرين"، فالكل هي الإنسانية، والكثيرين هم الذين آمنوا بالإنجيل. وكتب إن الرسول "أراد أن يكشف بكل وضوح أن عبارة كل البشر تعني كل البشر وتعني الكثيرين، وأضاف كما بمعصية الواحد صار الكل خطاة هكذا بطاعة الواحد الكثيرون سيصيرون أبرارًا" (٥: ١ – ٦).

هل تُبنى عقيدة على نص أو عدة نصوص؟

يبدو أننا تأثرنا بالجدل الدائر حول صحة الأحاديث في الإسلام، في كيف نفهم ما قاله القديس فلان، وما قاله قديسٌ آخر؟

ما هو مفترق الطرق بين اليهودية والإسلام، وبين المسيحية؟

أولًا: إن الشـــريعة هي العمود الفقري في كليهما، ولذلك فإن كل قول عندهما يؤكد ممارســة الشــريعة. أما في المســيحية، فليســت الشــريعة هي العمود الفقري، بل المسيح. ولا يمكن المقارنة بين الشريعة وبين المسيح. فقد جاء المسيح بعلاقةٍ جديدةٍ هي العهد الجديد، وهو الموضـــوع الذي كُتِبَ بوضـــوح في رومية وغلاطية وكولوســـي والعبرانيين، وعندما نجادل في كلمة أو نص من هنا أو هناك، عندئذٍ نكون قد تركنا طريق المسيح.

لقد طلب القديس أثناسيوس الرسولي أن نحتكم إلى مجال الأسفار (راجع الرد على أريوس ٣: ٢٨، ٢٩، ٣٥)، وإلى المعنى الكنســـي (المرجع الســـابق ١: ٤٣)، وهو ليس التعبير الخاص (١: ٣٧)، ولذلك يوجد فكر لاهوتي خاص بالهرطقة (١: ١٠). وأول ما يلاحظه الرسولي هو تجاهل المناسبة، والموضوع الذي كُتِبَ أو قيل فيه ما كُتِب. وهو ليس بحثًا فقهيًّا بالمناســـبة، لأن النص لا يقيم المسيحية، كما في غيرها من الأديان، أما المسيحية فقد أسسها ابن الله بتجسده، فما هو الفرق الدقيق؟

التجسد هو سبب وجود العهد الجديد، فهو شهادة، ليس لما حدث في التاريخ، بل شهادة لما يحدث في التاريخ. وعندما تعلَّمنا من الآباء أساسات التدبير وجدنا أن كلها تمت، بل وتعطى في السرائر: المعمودية — المسحة — الإفخارستيا، أدركنا أن ما تمدد عبر التاريخ هو ما أسسه الرب يسوع نفسه في شخصه، لأننا نولد مثلما يولد ولادةً من الروح القدس ومن الماء، وليس من القديسة مريم. ونُمسح كما مُسِـــح هو بالميرون، وهو ســـر عطية الروح القدس، ولأننا نموت معه، بل حســـب صـــلوات الكنيســـة أم الشـــهداء، نحن "قُدِّمنا ذبائح"، لاحظ دقة التعبير: "باســـم الآب والابن والروح القدس، وشـــكر عبيدك الذين قدموا أبنائهم على مذبحك الناطق السمائي بواسطة خدمة ملائكتك ورؤساء ملائكتك ...". ولذلك نلنا عربون القيامة "وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي"، وهي خاتمة قانون الإيمان، وهو قانون الاعتراف بالتدبير.

وفي عصـــور الاســـتشـــهاد كان الاعتراف بالإيمان هو الذي يجعلنا نكرِّم الشهداء ولا نسأل عن خطاياهم السابقة حسبما درسنا في التاريخ الكنسي، لأن الاعتراف بالإيمان يؤكد ما تذكره صـــلوات المعمودية من أن الموعوظ الذي يُعمَّد، يُغرس في الكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة، ولا يمكن أن يقلعه أحدٌ مهما كان.

ثانيًا: إن البحث عن الحلال والحرام، وما هو جائز وما هو ممنوع، وبالتالي الأجوبة الجاهزة، أمرٌ يحرم الشعب من أن يتعلم أعظم درس في الحياة الأرثوذكسية، وهو التمييز والإفراز بين ما هو مقدس حسب تقديس الروح القدس، وما هو قدرات الإنسان، وما هو حسب هدف الحياة المسيحية، وهو الاتحاد بالرب يسوع. فالفكر يأتي هنا من حرية المسيحي ونظرته إلى ذاته كمسيحي قُدِّسَ بالروح القدس.

تجربة الغنوصية

عندما حذف مارقيون (ولد في روما ١٤٤م) كل أســـفار العهد القديم، وإنجيل متى ومرقس ولوقا، واحتفظ ببعض فصـــولٍ من إنجيل يوحنا، وحذف كل رسـائل بولس الرسـول ما عدا رومية وغلاطية، كان يعتقد أن إله العهد القديم غير إله العهد الجديد، وأن الخالق ليس هو الفادي. وقاومته كلُّ الكنائس، ولكن إغراء الاحتفاظ بأسفار العهد القديم ظل هو أحد مصادر حركة التهود، ولم يتوقف هذا الإغراء مما جعل آباء الكنيســـة يقدمون التأويل الرمزي لكثير من أحداث العهد القديم، ومع ذلك ظل العهد القديم ما عدا أسفار الأنبياء التي تقدم التعليم النبوي عن الذبائح والعبادة بشكلٍ عام، السند الحقيقي لرفض التفسير الحرفي والتفسير الرمزي، ولكن إذا قلنا إن كتابي الجلافيرا، والســـجود والعبادة بالروح والحق، هما شرح خريستولوجي لكل أحداث العهد القديم، لاسيما الجلافيرا على أسفار التوراة للقديس كيرلس، فإننا لن نكون قد انحرفنا عن الطريق المستقيم.

ظلت شـريعة موسـى تمثل انطلاقتين؛ إما حفظها كلها، وهو متعذِّر على المسيحيين من الأمم، وبالتالي اختيار ما هو مناسب للإيمان المسيحي، أو رفضها كلها، وهو التعليم الثابت للغنوسي مارقيون.

العلَّامة أوريجينوس وشريعة التطهير

في العظة الثامنة على سفر اللاويين وجد العلَّامة أوريجينوس أنه أمام خيارين: إمَّا الغنوسية أو خيار التسليم الرسولي الذي قَبِل العهد القديم، ولذلك يسأل: "علينا الآن أن نجد إجابة للسؤال الخاص بالمرأة التي تقدِّم معونةً لكل الذين يأتون إلى العالم، وأنا أقصد الأمهات، والتي يقال إنها غير طاهرة، ليس فقط لأنها قبلت زرعًا بشريًا حينما حبلت، لأنه كان عليها أن تقدِّم فرخي يمام أو يمامة لكي تتطهر من خطيةٍ، وهي التي أتت بالميلاد بشرًا في هذا العالم" (٨: ٣). وبعدها، يذكر العلامة: "لا أريد أن أقدم رأيًا قاطعًا dictum في هذا الأمر، ولكني أعتقد أن هناك أسرارًا خفيةً في هذه الوصية وأنه يوجد سِرٌّ غيرُ معروف وسببٌ غامض لماذا تُعتَبر المرأةُ (غير طاهرة) وتقدِّم ما أشارت إليه الوصية بأنها مذنبة حتى أنها تقدم ذبيحة خطية حسبما طلبت الوصية" (المرجع السابق).

لذلك أنشأت الممارسة اليهودية موضوع سؤال عند العلَّامة يجيب عليه في نفس العظة: "لماذا تعطى المعمودية للأطفال كما هو معروف في الكنيسة؟ كما لو كان هناك شيءٌ ما في الأطفال يستوجب الغفران، وإلَّا تعتبر نعمة المعمودية غير لازمة Superflouous" (المرجع السابق).

بالعودة إلى بداية العظة حيث يصف العلَّامة الرب يسوع بـ"الطبيب"، وهو ذات اللقب المعروف في صلوات أُم الشهداء، كتب العلَّامة: "تعال الآن يا يسوع الطبيب السمائي، ادخل هذا المستشفى، هذه الكنيسة. وانظر مَن المطروح هنا من هذا الجمع من الضعفاء. ها هي المرأة التي صارت نجسةً منذ ولادتها (مر ٥: ٢٥، ولاو ٢٢: ٢)، والأبرص الذي طُرِد من الجماعة إلى خارج المحلة بسبب نجاسة برصه (مر ٢: ٤٠، ولاو ١٣: ٤٦). الكل يطلب الشفاء من الطبيب (أيها الطبيب الحقيقي الذي لأنفسنا وأجسادنا، يا مدبر الكل حسب صلاحك – أوشية المرضى)، لكي ينال الشفاء، ولكي يطهُر. لأن يسوع هذا هو الطبيب، هو ذاته كلمة الله، وهو يجهِّز الدواء لمرضاه ليس من أصناف الأعشاب، ولكن بأسرار الكلمات" (٨: ١).

وينتقل إلى واقع الحياة حيث الأسفار المقدسة، ليقول: "إذا شاهد إنسانٌ ما الأعشاب الطبية متفرقة بمهارة خلال هذه الأسفار -كما لو كانت في حقول- ولا يدرك قوة كل الفقرات، فقد يظن أنها مثل الأعشاب التي لا نفع لها والرخيصة الثمن لأن الكلمات لا تبدو بديعة" (المرجع السابق).

العلَّامة أوريجينوس يشرح العهد القديم حسب الإنجيل

يظهر المنهج بشكلٍ أوضح في العظة ١٤ على إنجيل لوقا، حيث كان يعظ في قيصرية فلسطين. بدأ العظة بنصٍّ من القديس بولس: "مات المسيح، وهو مات عن الخطية" (رو ٦: ١٠)، ليس لأنه هو ذاته قد أخطأ؛ "لأنه لم يخطئ ولا وُجِدَ غِشٌّ في فمه" (١ بط ٢: ٢٢). لقد مات عن الخطية، لأننا نحن الأموات لا نحيا بعد للخطية، لأن الأسفار تقول: "إن كنّا قد مُتنا معه، سوف نحيا معه" (رو ٦: ٨)، لأنه عندما مات، مُتنا نحن معه وعندما قام قُمنا نحن معه، وهكذا أيضًا عندما اختتن كنا نحن الذين اختتنا معه. وبعد الختان تطهَّرنا بالتطهير الحقيقي، وهكذا ليس لدينا احتياجٌ لختان الجسد. أنتم تعرفون أنه (يسوع) خُتِّنَ لأجلنا. واسمعوا الكلام الصريح لبولس لأنه يقول: "كل ملء اللاهوت يحل فيه جسديًّا، وأنتم مملوؤن فيه الذي هو رأس كل سيادة وقوة. الذي فيه خُتنتم بختان غير مصنوعٍ بيد بقطع جزء من الجسد، أي بختان المسيح. دُفنتم معه في المعمودية وأقامكم معه بالإيمان بعمل الله الذي أقامه من الأموات" (كو ٢: ٩ - ١٢)، لذلك موته وقيامته وختانه كلُّ هذا لأجلنا" (العظة ٢٤: ١).

وهكذا يبدأ العلَّامة بالإنجيل، أي بشارة الخلاص، ويعود بعد ذلك ليشرح ختان يسوع في اليوم الثامن، وأن اسم يسوع هو اسمٌ مجيدٌ ومستوجِب العبادة والسجود؛ لأن هذا الاسم "فوق كل اسمٍ" (فيلبي ٢: ٢١)، وفوق كل اسمٍ يعني أنه هو "يهوه" (٢٤: ٢). ويعود العلَّامة أوريجينوس ويشرح سبب كمال أيام تطهير القديسة مريم حسب شريعة موسى، ويقف ليسأل عن التطهير الذي شمل يسوع ومريم أمه: هل كان يسوع نجسًا أو تدنس بنوعٍ من الدنس؟ أظن أنني أتكلم

بحماقةٍ، ولكن سلطان الأسفار يدفعني لكي أسأل لأنه مكتوبٌ في سفر أيوب: "ليس أحدٌ بلا دنس حتى ولو كانت أيامه يومًا واحدًا" (أيوب ١٤: ٤ – ٥). هذه الفقرة لا تقول: "ليس أحدٌ طاهرًا من خطية، بل ليس أحدٌ بلا دنس"، والدنس والخطية كلاهما مختلف (عن الآخر). الدنس شيء والخطية شيءٌ آخر ويعلِّم أشعياء ذلك بوضوح: "والرب سوف يغسل دنس أبناء وبنات صهيون ويطهر من وسطهم الدم بروح الدم الحارق" (أش ٤: ٢٤).

العلَّامة أوريجينوس ليس أوغسطينوس

السطور السابقة تؤكد أن العلَّامة لم يكن يعرف موضوعًا اسمه "الخطية الأصلية"، ولكنه كان يرى حسبما ورد في كتاب المبادئ، بل وفي السطور التالية أن "النفس عندما ترتدي الجسد البشري الذي فيه دنس"، ولكن يسوع تدنس بإرادته الخاصة لأنه أخذ الجسد البشري لأجل خلاصنا. اسمع ما يقوله زكريا (النبي) إنه "كان يلبس ثيابًا دنسةً" (٣: ٣)، (طبعًا في السبعينية، يسوع ويشوع هما اسمٌ واحد). وبهذا، فنَّد النبي زكريا الذين يقولون إن الرب يسوع لم يكن له جسدٌ بشري وإن جسد الرب مصنوعٌ من مادة سمائية ... " (١٤: ٤). وبعد أن فنَّد فكر الغنوصيين بأن يسوع أخذ جسدًا بشريًّا وأنه "لبس ملابس دنسةً"، تعرَّض لموضوع معمودية الأطفال.

معمودية الأطفال

يقول العلَّامة: "الفقرة التي سمعناها اليوم، تجعلني أعود إلى الموضوع السابق، وهو تعميد الأطفال الصغار (لمغفرة الخطايا) (أع ٢: ٣٨). ما هي خطايا هؤلاء الأطفال الصغار؟ ومتى أخطأ هؤلاء؟ وكيف نشرح الاغتسال في المعمودية؟ وكيف يتم في حالة الأطفال الصغار إلَّا بالشرح الذي ذكرناه سابقًا: (ليس أحدٌ بلا دنس لو كانت حياته يومًا واحدًا). ففي سر المعمودية، الدنس الخاص بالميلاد قد غُسِل، ولهذا السبب يتم تعميد الأطفال الصغار لأنه "إن لم يولد أحد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت السموات" (يو ٣: ٥)".

الشريعة روحية

دافع العلَّامة عن العهد القديم بالذات ضد مارقيون، وكتب أن الشريعة ليست من إلهٍ آخر لأن الله لم يرسل ابنه تحت شريعة إلهٍ آخر لكي يفدي الذي تحت الشريعة (غلا ٤: ٥)" (١٤: ٢٧). فقد حدَّدت الشريعة أن تقدِّم الأمُ عن ابنها البكر وعن نفسها زوجي حمام أو فرخي يمام، وهنا يقول أوريجينوس: "ربما أتجاسر وأقول شيئًا جديدًا، ومع ذلك لا يستحق تقدير ما نحن بصدده. الميلاد الجديد للمخلص لم يحدث (بزواج) رجل وامرأة، بل من عذراء فقط. وهكذا أيضًا زوجي الحمام أو فرخي اليمام ليس هو ما نراه بعيوننا اللحمية، بل هما ما فعله الروح القدس الذي حلَّ في شكل حمامةٍ واستقرت (لو ٣: ٢٢)، عندما اعتمد الرب في الأردن. وزوجي الحمام وفرخي اليمام هما مثل ما حدث. هذه ليست مجرد طيور تطير في الهواء، بل ما حدث هو عمل إلهي فائق يفوق الإدراك عندما نتأمل في فرخي الحمام أو فرخي اليمام. إنه لأجل العالم وُلِد وتألم وهو لم يتطهَّر بما حدَّدته الشريعة التي تقدم كل مولود إلى الرب، بل بالحري كما رتَّب كلَّ شيءٍ ليكون جديدًا (رؤ ٢١: ٥)، هكذا كان للرب تقدمةٌ حسب إرادة الله ضابط الكل في يسوع المسيح الذي له المجد من جيلٍ إلى جيل" (١٤: ١٠).

واضحٌ هنا أن الشرح الخريستولوجي يعلو على أحداث التاريخ، ويصبح الحدث هو الأساس الذي وقف في التاريخ لكي يعلو فوقه الاستعلان الجديد، وهو استعلان الله في يسوع المسيح.

ما نصفه بأنه رمزي لا يجب أن نراه وكأنه مجرد تكوين صورة عقلية في العقل وحده، بل هو صورة لها أساسٌ في التاريخ والواقع. ولعل العلَّامة وهو يقول إن العذراء ظلت عذراء بعد ولادة الرب يسجِّل لنا ما هو أعلى من الفهم البيولوجي لأنه يصف ميلاد الرب بالجسد بأنه ميلادٌ جديد.

عودٌ على بدء

١- تبدو أهمية مؤلفات العلَّامة أوريجينوس في أنها تقدم لنا تاريخ فهم مدرسة الإسكندرية للتدبير الذي لا يبدأ بالسقوط، بل بالخلق؛ لأن سفر التكوين لم يبدأ "في البدء سقط الإنسان"، بل "في البدء خلق الله"، وأضاف إليها الإنجيل: "في البدء كان الكلمة ... كل شـــيءٍ به كان" (يو ١: ١ - ٣)، وهو ما كرره الرسول بولس في كولوسي ١: ١٥.

٢- عندما يسأل العلَّامة ما هي خطيئة الأطفال؟ فالرد عند أوغسطينوس هو خطية آدم، أما عند العلَّامة فهو الدنس الذي يحدث للنفس عندما تدخل الجسد، وهي بلا شك لمسة أفلاطونية، أما وراثة الخطية عند أوغسطينوس فهي لمســـة مانوية؛ لأن أوغســـطينوس كان من أتباع ماني Mani ثم وجد ملاذه بعد ذلك في الأفلاطونية.

كلاهما؛ العلَّامة وأوغسطينوس، كان لهما إطارٌ فلسفي من ثقافة العصر.

الفصل الرابع

القديس أثناسيوس الرسولي

ربما كان تاريخ كتابة "تجسد الكلمة"، وهو الجزء الثاني، بعد رسالته إلى الوثنيين، هو الفترة ما بين ٣٣٥ – ٣٣٧، وهو الرأي السائد عند علماء التاريخ المعاصرين[١].

الخلق هو بداية أي خطاب أرثوذكسي

لا يبدأ اللاهوت المسيحي الأرثوذكسي بالخطية وسقوط آدم، بل بخلق الكون بواسطة اللوغوس – الكلمة ابن الله. وتأكيد هذه الحقيقة هو التعبير الواضح عن صلاح الله:

"الله صالح، بل هو بالأحرى مصدر الصلاح، والصالح لا يمكن أن يبخل بأي شيءٍ" (تجسد الكلمة ٣: ٣).

صلاح الله هو سبب عطية الوجود لكل الكائنات والوجود هو مجال استعلان محبة الله للبشر (الرسالة إلى الوثنيين ٤٢).

(١) راجع مقدمة تجسد الكلمة، ترجمة د. جوزيف فلتس، إصدار المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، ص ٢٧.

المحور الثاقب في لاهوت الإسكندرية

١- لم ينشغل آباء الإسكندرية بالخطية مثلما انشغل بها أوغسطينوس، بل كانت محبة الله للبشرية، فالخلقُ نعمة (تجسد الكلمة ٢: ٣). والصورة الإلهية تحتوي على شركة في قوة الكلمة (المرجع السابق). فالحياة حسب صورة الله هي غاية سعادة الإنسان، أما ترك الوصية، ولاحظ هنا أن أثناسيوس يتحدث لا عن آدم، بل عن البشرية: "أما إذا تعدوا وارتدوا وصاروا أشرارًا، فليعلموا أنهم سيجلبون الموت على أنفسهم"، وعندها يضيف أثناسيوس "حسب طبيعتهم .. ويبقون إلى الأبد في الفساد والموت" (تجسد الكلمة ٣: ٤).

٢- لم يكن سقوط الإنسانية هو سبب تجسد الكلمة، بل كان صلاح الله ومحبته هو سبب تجسد الكلمة، ولذلك بدأ الكتاب عن خلق الجنس البشري (تجسد الكلمة ٤: ١). وفي عبارة قاطعة كتب الرسولي: "ربما نتساءل: لماذا حينما نقصد أن نتحدث في تجسد الكلمة، فإننا نتحدث الآن عن بداية خلق البشرية؟" (المرجع السابق).

٣- لم يحاصر أثناسيوس سبب تجسد الكلمة في عدل الله وسقوط الإنسان كما فعل أنسلم، بل يكتب بالأصالة الآبائية السكندرية: "من الضروري عندما نتحدث في ظهور المخلص بيننا، أن نتحدث عن خلق البشر ... لأن نزوله إلينا كان لأجلنا لأن تَعدِّينا استدعى تعطف الكلمة، لكي يأتي الرب إلينا مسرعًا لمعونتنا، ويظهر بين البشر" (تجسد الكلمة ٤: ٣).

أثناسيوس وأنسلم والعصر الوسيط

أولًا: العلاقة بين الله والإنسانية هي علاقة خالق بمخلوقات. قصد الله الأزلي السابق على خلق الكون كله (أف ١: ٣)، هو: "أن يبقى الإنسان في غير فساد"، فهو لم يخلق البشر ليعبدوا الله ويخدموه، بل لكي يتمتع الإنسان بما يملك من عطية، وهي "الصورة الإلهية".

ثانيًا: انحراف الإنسان كان "التفكير في الشر، ولم يكن اعتداءً علي الله، بل "إن أفكارهم قادتهم إلى الفساد" (تجسد الكلمة ٤: ٤)، فما هو الهدف من هذه العبارة الموجزة جدًا؟ إن فكر الإنسان لم يحفظ الله في فكره (تجسد الكلمة ٤: ٥). أثناسيوس لا يذكر الانفصال عن الله؛ لأن هذه الفكرة بالذات وُلِدَت في أروقة الأفلاطونية، وتعدي الوصية جاء من رفض وصية الله (تجسد الكلمة ٤: ٦).

ثالثًا: الفساد هو تحولٌ في وجود الإنسان الذي حصل على الوجود من الله الكائن" (تجسد الكلمة ٤: ٥)، وهو ما يجعل الإنسان حيًّا بدون شركة. وقد كتب أثناسيوس عبارة هامة لو كانت قد دُرِسَت بعناية لكانت كفيلة بتحول العصر الوسيط إلى اتجاهٍ معتدل. هذه العبارة يجب أن تُنقَش على حجر جرانيت: "كلُّ ما هو شر فهو عدم، وكل ما هو خير فهو موجود" (تجسد الكلمة ٤: ٥). ولأن الله وهب للإنسان عطية البقاء أو الوجود على صورته، فإن التحول الذي حدث في فكر الإنسان كان هو رفض البقاء في حياةٍ حسب الصورة الإلهية، أي تلك الصورة التي تجد غاية وجودها في الله، ويكون الله هو مَثَل الوجود والحياة الذي يتبعه الإنسان.

يؤكد المعلِّم هذا في عبارةٍ موجزة، وهي أن البشر "حوَّلوا وجوههم عن الأمور الأبدية وبمشورة الشيطان تحولوا إلى أعمال الفساد الطبيعي" (تجسد الكلمة ٥: ١)، وهي أعمالٌ نابعةٌ من اعتبار الجسد هو الوجود الحقيقي الذي سبق وأن شرحه في الفصول الستة الأولى من رسالته إلى الوثنيين.

رابعًا: الصورة الإلهية هي "حياة الشركة في اللوغوس" (تجسد الكلمة ٦: ٥)، وهي "حياة حسب الله" (تجسد الكلمة ٥: ١)، لكي يحيا الإنسان ويتبع اللوغوس مثل تبعية الظل للنور (تجسد الكلمة ٣: ٣)، وبذلك يجد الإنسان السعادة الحقيقية التي تجعله عاقلًا ولديه الوعي بأنه صورة الله، ولذلك كانت مشورة الشيطان التي خدع بها البشر هي رفض العطية الإلهية والتحول إلى الذات.

وفي فقرة هامة في الرد على الأريوسيين يشرح المعلم العلاقة بين اللوغوس والبشر، ويقول إنها علاقة وجود: فهم – حكمة – إدراك، أي الكلمات التي ينطق بها البشر طالما هي كلمات حكمة.

ويسأل: "ما هي الحكمة الموجودة في المخلوقات؟" (٢: ٧٩).

هذه الحكمة نراها في الكلمات التي تصدر من البشر، فهي "صورة اللوغوس – الكلمة ابن الله" (٢: ٧٨).

هي التعبير عن الصورة الإلهية فينا، أي "صورة الابن" (٢: ٧٨).

"الحكمة الموجودة فينا هي صورة الابن الذي هو الحكمة لأننا بهذه الحكمة يصبح لدينا المعرفة والفهم مما يؤهِّلنا لأن نقبل خالق الحكمة وبواسطته نعرف إياه" (٢: ٧٨).

وكمسيحي عاش الحياة المسيحية الحقَّة كتب الرسولي: "إن ما تقوله الحكمة في داخلنا هي التي يقولها الرب ذاته ... لأن صورته الموجودة فينا هي الإلهام الذي يجعلنا نعمل أعمال الحكمة" (٢: ٧٨).

ومن يرى هذه الأعمال، يرى فيها ما استطاع البشر أن يصنعوه، لأن "صورة الحكمة التي صوَّرت الكون بدقة هي نموذج الحكمة والمعرفة المنسكبة على العالم ... ويحمل البشر هذه الحكمة في داخلهم وبها سيدركون حكمة الله الحقيقية ويعرفون أنهم تشكلوا بحق على صورة الله" (٢: ٧٩).

هذا الإيجاز الشديد يحتاج إلى شرحٍ موجز:

(أ) المعرفة الذاتية للإنسان هي بصمات حكمة الله (إذا كانت معرفة الخير)، وهي التي تؤهل الإنسان لمعرفة الحكمة – الابن اللوغوس.

(ب) إن تأمل الكون كما ذكر المزمور (٢٩: ١) يقود الإنسان إلى إدراك الحكمة الحقيقية، أي الابن نفسه. فالعلاقة هي علاقة شركة إلهية، وهي حسب تعبير الرسولي: "شركة في قوة اللوغوس" (تجسد الكلمة ٣: ٣).

لا نجد في كتابات العصر الوسيط أي حديث عن هذه العلاقة الكيانية بين اللوغوس والإنسانية، تلك التي شُرِحَت في إيجازٍ شديد في الرد على الأريوسيين (٢: ٧٨ – ٨٠). فمن القلب أو الوعي يجد الإنسان في كيانه التناغم بين ما يعرفه ويدركه ويراه من أعمال الكلمة اللوغوس. وعندما ضاع هذا الإدراك، واستقل الإنسان بمعرفته ورفض الحكمة، أي الابن، شوَّه صورة الله فيه مما جعل ضرورة حضور الصورة الحقيقية، أي صاحب الصورة لكي يعيد تجديد الصورة، وعلى هذا النحو، فقد أتى إلى عالمنا كلي القداسة ابن الآب "إذ هو صورة الآب لكي يجدد الإنسان الذي خُلق أولًا على صورته ..." (تجسد الكلمة ١٤: ١ – ٢).

استدراك ضروري

لم يكتب أثناسيوس كلمة "السقوط"، رغم أنني أنا نفسي كتبتها. على أن البحث ليس عن مجرد كلمة، وإنما عن رؤية دقيقة نقوم فيها باسترداد رؤية أثناسيوس نفسه، وليس بإسقاط ما ترسَّب من تقسيماتٍ سادت الفكر الغربي الروماني، الأب الحقيقي لفكر حركة الإصلاح البروتستانتية، ولذلك نعرض للتسلسل الذي قدَّمه أثناسيوس نفسه:

أولًا: "الآب الصالح يضبط المخلوقات كلها بالكلمة، وأن ما هو كائن هو كائن به وفيه يحيا ويتحرك (أع ١٧: ٢٨). ويشرح سبب كتابة فصول تجسد الكلمة، وهو حسب أثناسيوس: "الكلمة بسبب صلاح أبيه ومحبته للبشر ظهر لنا في جسد بشري لأجل خلاصنا" (تجسد الكلمة ١: ٢ – ٣).

فظهور الكلمة، ليس لأن الإنسانية سقطت، ولا لأن السقوط هو انفصالٌ عن الله، لأن كل الخلائق توجد وتحيا وتتحرك بالله وبالكلمة، بل لأن

الأمر هو أن "تجديد الخليقة تم بواسطة الكلمة الذي هو خالق الخليقة، وهكذا يتضح لنا أنه لا وجود لتناقضٍ في أن يتم الآب خلاص العالم بالكلمة الذي به خلق العالم" (تجسد الكلمة ١: ٤). فلا توجد ثلاثية: الخلق – السقوط – الخلاص، بل ثنائية: الخلق والخلاص. ثلاثية: الخلق – السقوط – الخلاص، ثلاثية لها محور ثابت هو الخطية، لكن ثنائية الخلق والخلاص تنفي الانفصال، وهي ما يجب أن نعود إليها. وهكذا يقول أثناسيوس: "الكائنات لم توجد من ذاتها، بل هناك تدبير (إيكونوميا) سابقة على وجودها" (تجسد الكلمة ٣: ١). فالله لم يترك الخليقة عُرضةً لما يُطوِّح بها في الإهمال؛ لأن الإهمال هو تصرف البشر الصادر عن إدراكٍ ووعيٍّ يجهَلُ الخالق.

ثانيًا: إن نعمة الصورة الإلهية هي النعمة التي أضافها الخالق للإنسانية التي خُلِقَت: "وأعطاهم شركةً في قوة كلمته حتى يستطيعوا أن يتبعوا الكلمة مثل ظله لأنهم بذلك صاروا عقلاء" (تجسد الكلمة ٣: ٣).

ثالثًا: كيف رأى الله ضعف البشر؟

كان الله يعلم "أن إرادة البشر يمكن أن تميل إلى أحد الاتجاهين (الخير والشر)، سبق فأمَّن النعمة المعطاة لهم بوصيةٍ ومكان، فأدخلهم في فردوسه وأعطاهم وصيةً" (تجسد الكلمة ٣: ٣). وكانت الوصية متعلقة بكيان الإنسان نفسه، أي بالصورة الإلهية، لكي يحقق الإنسان كيانه أو يكتشف ذاته؛ لأنه خُلِقَ "على صورة الله الكائن" (تجسد الكلمة ٤: ٦). هنا بالذات يصبح الادعاء بأن سقوط آدم هو "شهوة الألوهة" لا مجال له بالمرة، وهو ما يجب أن نراه في الكلمات الآتية:

(أ) الإنسان اشترك في قوة اللوغوس (تجسد الكلمة ٣: ٣).

(ب) الإنسان فانٍ Mortal إلَّا أنه خُلِقَ على صورة الله الكائن" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

(جـــ) من نال عطية الصـورة الإلهية لا يشـتهي الألوهة، بل كما يقول أثناســيوس نفســه إن الإنســان كانت لديه الإمكانية أن "يعيش كالله"، ويدعِّم أثناســيوس هذه الفكرة بنص (مز ٨٢: ٦ – ٧) حيث يقول المرنم عن الله "أنا قلت إنكم آلهة ...".

سيادة الموت

إذا قدَّمنا كلمات أثناسيوس نفسه، فهي تؤكد حسب تعبيره أن الإنسان قد جلب الموتَ على نفسه، وبدقةٍ كتب: "إذا تعدوا الوصية وارتدوا وصاروا أشرارًا، فليعلموا أنهم سوف يجلبون الموت على أنفسهم"، ولاحظ كيف يحدد أثناسيوس ذلك: "حسب طبيعتهم" (تجسد الكلمة ٣: ٤)، وبعدها: "والبقاء في فساد الموت إلى الأبد".

لم يذكر سفر التكوين أن الله قال: "يوم تأكل سوف أقتلك"، بل: "يوم تأكل منها موتًا تموت"، فهو حكم تعدي الوصية. هذا واضح: "حكم عليهم بحكم الموت الذي سبق إنذارهم به" (تجسد الكلمة ٤: ٤).

ويلاحظ عدم وجود عبارة سيادة شرعية في الأصل اليوناني لكتاب تجسد الكلمة، بل سيادة فساد الموت (تجسد الكلمة ٥: ٢، ٦: ٢)؛ لأن الكلمة اليونانية προειπον – proeipon تعني سيادة أولى، وتأتي ترجمة جامعة أكسفورد prevailed (والتي تعني: ثَبُتَ أنه أقوى من القوى المعارضة) أقرب إلى اليونانية من الكلمة العربية "شرعية" المعروفة في الفقه الإسلامي. وعلى ذلك فالترجمة الأقرب إلى اليونانية: "لأن الموت ... صارت له السيادة الأولى" (تجسد الكلمة ٦: ٢، ٦: ٦).

كما أن كلمة عقوبة لا وجود لها في الفصل الثامن، بل "التهديد في (حالة) التعدي ثبَّتَ الفساد فينا" (تجسد الكلمة ٨: ٢).

ومع ذلك، فالقضية ليست قضية مصطلحات، لأن الآباء لم يكن لديهم قاموس يعودون إليه لتحديد معاني الكلمات، بل كان لديهم:

(أ) الرؤية الواضحة لعلاقة جديدة بين الثالوث والإنسانية.

(ب) هذه العلاقة، هي علاقة عهد جديد مؤسَّس على شخص المسيح وما قام به من تغيير في بنية هذه العلاقة التي تقوم على الشركة في ألوهية الرب يسوع من خلال شخصه المبارك.

كلمات غابت عن تجسد الكلمة

١- غابت كلمة "السقوط". والقديس أثناسيوس يشرح الإيمان ابتداءً من الخلق ليصل إلى تجديد الإنسانية: "لم يكن ممكنًا أن يُقضى على فساد البشرية بأي طريقة أخرى سوى الموت عن الجميع، ومن غير الممكن أن يموت الكلمة لأنه غير مائت لأنه ابن الآب غير المائت" (تجسد الكلمة ١٠: ١). وهنا يظهر أن كل الذين حشروا كلمات: الفداء – الكفارة، وغيرها، لم يدركوا أن الرسولي يتمسك بألوهية المخلص الرب يسوع، وأنه لم ينحدر فَيَصِل إلى ما وصل إليه لاهوت العصر الوسيط الذي ضحَّى بمساواة الابن للآب، وجعل الابن ذاته إمَّا بديلًا عن الإنسان، أو أنه قُدِّم ثمنًا لله الآب. ففي الفقرة السابقة نلاحظ أن أثناسيوس يقول عن الابن إنه غير مائت لأن الآب غير مائت، ولهذا يكتب الرسولي شارحًا الإيمان:

لأن الابن غير مائت "اتخذ لنفسه جسدًا قابلًا للموت" (تجسد الكلمة ١٠: ١). والجسد القابل للموت حسب كلمات الرسولي، هو:

- جسدًا من جنسنا (تجسد الكلمة ٨: ٣)
- جسدًا مماثلًا لطبيعة أجسادنا (تجسد الكلمة ٨: ٤).

- جسدًا قابلًا للموت (تجسد الكلمة ٩: ١).
- جسدًا مماثلًا لجسد جميع البشر (تجسد الكلمة ٩: ٢).
- جاء إلى عالمنا وسكن في جسد مماثل لأجسادنا (تجسد الكلمة ٩: ٤).
- الكلمة بذاته اتخذ جسدًا ليقدِّمه ذبيحةً عن الأجساد المماثلة (تجسد الكلمة ١٠: ٤).

وسوف ندرس لماذا استخدم الرسولي تعبير "ذبيحة"، ولكن ما يكرره الرسولي هنا في هذا المجال (تجسد الكلمة ١٣: ٢، ١٤: ١، ٢٠: ١)، يؤكد أنه صاحب رؤية واضحة لا تتغير فيها الكلمات. هو يضع التعليم في شكل دائرة محدودة أولًا، ثم يوسع هذه الدائرة في براعةٍ ودقة بما يضيفه إليها من كلمات.

فالجسد القابل للموت، والجسد المماثل لأجسادنا هو تأكيدٌ واضح لإنسانية يسوع المسيح، فهو، يسوع، واحدٌ منّا والأخ البكر (أي الوارث) والابن الوحيد (تأكيد ولادته الأزلية من الآب)، ولكنه مثلنا تمامًا، وفي ذلك ردٌّ على ما نشأ من هرطقات في زمان الرسولي، تنكر حقيقة إنسانية يسوع.

٢- وقد غاب عن النص، تلك الخلفية التاريخية (الهرطقات التي أشرنا إليها بعاليه)، وهذه نجدها في كتب التاريخ وفي قرارات المجامع المكانية التي عُقدت ضد تعليم ماني، ومدارس الغنوصية، وهو ما أشار إليه الرسولي نفسه في الفقرات الأولى من الرد على الأريوسيين. فقد ظل هاجس وجود الخطية، ليس كفعل دون جوهر أو كيان اسمه الخطية، وهو ما نراه في غنوصية الفهم السائد في زماننا في بعض عبارات أرثوذكسية من الأسفار ومن الآباء، مثل: يا حامل خطية العالم. أو عبارة الرسول بطرس: "الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده" (١ بط ٢: ٢٤)، فالفعل "حَمَلَ" يعني أبعد، نقل الخطية من علاقة الثالوث بالإنسانية. ولا يعني الفعل هنا نقلًا ماديًّا، بل جعلها كلا شيء، أو بدقةٍ أكثر، جعلها عدمًا،

وهو الحد الذي شَقَّ ولا يزال يشقُّ الباطل: "لأن كل ما هو شر فهو عدم، وكل ما هو خير فهو موجود" (تجسد الكلمة ٤: ٥). فالفكر الإنساني كله لا يحتوي إلَّا على ما يمكن أن يفعله الإنسان، وعندما يقود الفكر الإنساني الإنسان إلى الشر، فهو يقوده إلى غير الموجود non-existence.

والسؤال الحرج هنا، هو كيف نرث الشر الذي لا وجود له؟

والجواب الذي نخاف منه، هو أن كل ما هو إنساني ليس أبديًّا، لا قوةَ له على البقاء. ومن يدخل أيَّ مكتبة، سوف يرى بحرًا هائلًا من الأفكار المدوَّنة في كتابات العلماء والفلاسفة والشعراء ... إلخ، وقد نراها جيدةً أو هزيلةً، ولكنها كلها تعجز عن الاحتفاظ بأي عملٍ إلى الأبد. فقد ندرس أحدث كتب الطب -على سبيل المثال- عن القلب، وكيف يمكن أن تعيش بقلب حالته الصحية جيدة، ولكن لا يمكن أن تعيش إلى الأبد. لقد مات ابن مؤسس معهد القلب في أنديانا ووالده د. ناصر (لبناني الأصل) من أفضل أطباء القلب، ولكن المعرفة لا تنقذ الإنسان من الموت الجسداني، ولا من الموت الروحي، ومَن وجد حياته في فكره الذاتي أيًّا كان، فقد سعى إلى الموت دون أن يدري.

لذلك، كانت صياغة مكونات عقيدة الكفارة، وعلى وجه التحديد عبارة: "خطية غير محدودة"، هي صياغة تجهل حدود فكر الإنسان؛ لأن فكر الإنسان قد يحمل الإنسان إلى ما هو أبعد من كيانه وأعظم من عقله، ولكنه يظل مع ذلك فكرًا إنسانيًّا لا قدرةَ له على البقاء. فكيف يمكن للفكر الإنساني أن "يؤطِّر" الله بحيث لا يتحرك إلَّا في الإطار الذي يضعه له؟ وعندما نناقش هذا الإطار (مكونات عقيدة الكفارة)، نرى أنه تصوُّرٌ يجهل ثلاث حقائق:

١- إن فكر الإنسان، مهما كان، ليس أبديًّا.

٢- إن فكر الإنسان يعجز عن أن يلمس الله أو يؤثر فيه.

٣- إن فكر الإنسان محدودٌ، وتصوُّر أنه غير محدود يجعل من الفكر الإنساني فكرًا إلهيًّا صادرًا عن كائنٍ إلهيٍّ، وهو غير ذلك.

الوجود الطبيعي والوجود حسب الصورة

ما هو طبيعي هو ما يؤسِّس الخلق من العدم. فعندما يخلق الإنسانُ شيئًا ويدعِّمه بكل قوة وجهد وذكاء، يظل في حاجةٍ دائمة إلى الإصلاح أو التجديد أو التطوير. هذا هو لُب الثقافة والحضارة. فما هو إنساني يظل يعمل في حدود التكوين والهدف الذي خلقه الإنسان من أجله. والطائرة نموذجٌ فريدٌ لما نتكلم عنه. لم يكن لدى الإنسان أي تصوُّر عن طيرانه هو، ومحاولات الطيران من اختراع أول طائرة في أمريكا وما جاء بعد ذلك وحتى اختراع الطائرة النفاثة، لم تكن تطرأ في بال أحد، إذ مَن كان يمكنه أن يتصور أن هذا الجسم المعدني الذي يزن ويحمل عدة أطنان، يطير في الهواء؟ كيف يحمل الهواء هذا الحجم الهائل من أجسام معدنية، بعضها يطير بسرعة الصوت؟ ونحن نعرف أن الصيانة الدائمة ضرورية لأن المعادن، مثل صانعها، تصاب بالتعب Fatigue من كثرة الاستعمال.

المحدود وغير المحدود والمطلق والنسي

الوقوع في ورطة المحدود وغير المحدود، شبيهٌ بما أورط فيه المعارضون لسر الشكر أنفسهم عندما استندوا إلى مقاييس الإنسان البيولوجية مثل حضور الرب ذاته في العلية مع التلاميذ، وتساءلوا كيف يعطي جسده وهو جالس بينهم، بل وبيديه (مع ملاحظة أن ما تم في العلية تذكره كل القداسات)، لأن إشكالية المحدود وغير المحدود، والمطلق والنسبي، هي إشكالية بعيدة تمامًا عن اللاهوت الأرثوذكسي؛ لأن حتى هذه المصطلحات: المحدود، عكس غير المحدود، والمطلق غير النسبي، لا تُناقَش حتى فلسفيًا؛ لأن المقارنات يجب أن تكون بين المتشابهات،

وإلَّا لماذا المقارنة من الأصل، وهو ما ذكره أرسطو في المجلد الكبير (الطبيعة وما بعد الطبيعة ك ٣: ١٨)، وحسب عبارته المشهورة: "الأشياء المتشابهة تقارَن لأننا نستطيع أن نقارن إنسان بإنسان، ولا يمكن مقارنة الإنسان بالحصان. بل حتى في الاستعارة، فحين تقارن إنسانًا يجري بسرعة مثل سرعة الحصان، تكون المقارنة بين سرعة وسرعة، وليس بين الإنسان والحصان. أما المطلق والنسبي، فهي إشكالية لا وجود لها في الأسفار أو عند الآباء؛ لأن حتى قول أحدهم بأن اشتراكنا في قداسة الله هو اشتراكٌ نسبي، فهو قولٌ تعدَّى كل أساسات الإيمان، ويجرد الأرثوذكسية من الإيمان بالتجسد، أولًا لأن المطلق دخل عالم الإنسان وصار في "صورة العبد" (فيلبي ٢: ٦)، فلم يعد مطلقًا ولا نسبيًّا، وإنما وحَّد المطلق بالنسبي، فصار الإله المتجسد "واحدًا من طبيعتين"، لاهوت مساوي للآب وناسوت مساوي لنا حسب التدبير، حسبما نقول في صلواتنا القبطية الأرثوذكسية. ولم تعد أفعاله مطلقة، بل حيَّةً alive ولذلك يقول: "أنا هو الحياة"، وحسب أقدم بردية قبطية: "أنا هو الحياة الحقيقية"، فالحياة تُدرَك بالحياة لا بفرض ألفاظٍ عامةٍ عليها. وثانيًا لأن هذه الحياة دائمة بلا انقطاع، فقد أباد الصلبُ الموتَ وقدَّم المصلوبُ الحياةَ لا الموت عندما صُلِبَ.

الفكر بكل فروعه، وبكل ما تطور إليه عبر تاريخ الإنسانية، لا يمكن أن يرقى أو يقدم مجالًا أكبر وأبقى من الذي قدَّمه تجسُّد الكلمة. فمهما تصوَّر الإنسان ورسم حدودًا للمعرفة، يأتي تجسد ابن الله بلا حدود بالمرة. وما دار من حوارٍ ساخنٍ في القرون الخمسة الأولى، وصار يُعرَف باسم الخريستولوجي، وكل تحديد جاء قبل وبعد ٤٥١ حدد الاتحاد بالناسوت، لم يرسم دائرة حدود لعمل الكلمة المتجسد الذي لم يترك ولم يفارق الجسد، بل كما قال هو: "ها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر" (مت ٢٨: ٢٠). فهو لم يدخل التاريخ ليخرج

منه بالموت، بل دخل التاريخ في بيت لحم وصُلِبَ خارج أسوار أورشليم، وقام حيًّا في اليوم الثالث حسب الاعتراف الأرثوذكسي. لقد دخل يسوع إلى قلب وفكر الحياة المسيحية سِرًّا Mystery لا تحدده مقولات الفلسفة ولا يستطيع الفكر المجرد Abstract أن يفرض أي تحديد على حياةٍ تتحرك حسب المحبة، لا حسب قواعد قانونية.

من الذي يستطيع أن يضع حدودًا للمحبة؟ لا مكان لتناقض المطلق مع النسبي في المحبة. ولا مجال لسيطرة المطلق على النسبي، فالاتحاد ليس سيطرةً، وكل ما يُوصَف بأنه نظرية في الفداء أو الكفارة هو محاولة للعب بالنسبي لإبعاد المطلق، بينما المطلق يسعى دائمًا إلى أن يمجد الإنسان الذي قبله بمجدٍ أبدي وبحياةٍ أبدية ليست نسبية ولا مطلقة، بل هي حياة شركة النسبي (الإنسان) في المطلق (الألوهة).

كلمات أثناسيوس الخالدة

كلما درست "تجسد الكلمة"، كلما أدركتُ أنني لا أزال أقف على حافةٍ معرفيةٍ هي دائرة الفهم الشخصي الذي يفرض معطياته على كلمات أثناسيوس. ولعلنا ندرك من دراسة الفصل الخامس كم ابتعد الفكر القبطي المعاصر عن التعليم الأرثوذكسي.

كتب الرسولي في الفصل الخامس: "لم يكتفِ الله بأن يخلقنا من العدم، ولكنه وهبنا أيضًا بنعمة الكلمة إمكانية أن نعيش حياةً حسب الله".

الأصل اليوناني لتلك الكلمات κατά Θεόν ζήν ημιν يدعونا إلى ترجمة النص إلى "أن نعيشَ حياةً إلهيةً"، وهو الذي كتب "أن الإنسان فانٍ بطبيعته لأنه خُلِقَ من العدم، إلَّا أنه بسبب خلقته على صورة الله الكائن، كان ممكنًا أن

يقاوم قوة الفناء الطبيعي (الخلق من العدم)" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

إن حياة أو كيان الإنسان، أو الوجود الإنساني هو حسب الأصل، أي أصل الوجود الإنساني، هو العدم، ولكن حسب نعمة الله هو وجودٌ وحياةٌ إلهية، حسب صورة الله الكائن.

وعلى ذلك، فالموضوع الأصلي هو "الوجود الإنساني" الضارب بجذوره في العدم، أو "الحياة الإلهية"، التي وُهِبَت لنا لكي تكون لنا شركة في قوة الكلمة، ولكي نتبع الكلمة مثل تبعية الظل للنور (تجسد الكلمة ٣: ٣).

الحياة حسب صورة الكلمة هي الوجود العاقل الذي أدرك به الإنسان أن حياته "نعمة" وُهِبَت له من الله بالكلمة؛ لأن الشركة في الكلمة تجعل الإنسان حسب لغتنا التي لم تقف عند القرن الرابع، وجود نعمة، لأن "خلق الإنسان من العدم هو طبيعة هشَّة وجودها ليس منها، بل هو "نعمة"، وهي بالضرورة عطية تدعِّم الوجود الإنساني. وعندما يظن الإنسان أن وجوده عائدٌ إليه ويفقد الشركة في الحياة الإلهية، فإنه يقع ضحية الموت، ويصير للموت سيادةً بسبب التعدي. والتعدي هو الوجود حسب الإنسان، لا حسب الله. ولذلك لم يتردد الرسولي في أن يكتب أن الجنس البشري كان في طريقه إلى الفناء (تجسد الكلمة ٥: ١)، وكان الرجوع إلى العدم ممكنًا (تجسد الكلمة ٥: ٥)، وكان على الله أن لا يترك البشر تحت سلطان الموت؛ لأن هذا يتعارض مع صلاح الله (تجسد الكلمة ٥: ١٠).

ما بين الشركة والطبيعة الفاسدة

"**الشركة**" ليست كلمة تقال أو تُكتَب من أجل عرض حالة الإنسان، بل **هي الوجود حسب النعمة الذي يمنح الإنسان الانتصار والبقاء بعيدًا عن الموت.**

إن مشـــكلة الإنســـان الحقيقية هي ازدواجية الخطية والموت. فهما مثل العملة المعدنية لها وجهان: الأول هو الخطية، والثاني هو الموت. ومشـكلة العصـر الوسـيط هي فصـل الخطية عن الموت. وقد جاء هذا الفصـل في كتاب أنسـلم Anselm "لماذا تجسد الله"، وفي الحوار بين أنسلم و Boso[1] بدأ أنسلم بشرح الإيمان بخطية الإنســان لا بخلق الإنســان على صــورة الله. الخلق يســبق تعدي الإنســان. وتعدي الإنســان يعود إلى الإنســان، إلى طبيعته وإلى شــركته في الحياة الإلهية. وازدواجية الحياة الإنســانية؛ الخلق من العدم، والشــركة في حياة الله، هي مثل ازدواجية الخطية والموت.

ولكن ما هو الفرق الأساسي بين أثناسيوس وأنسلم؟

ازدواجية الطبيعة الإنسـانية القابلة للعودة إلى العدم، هي التي جاءت فيها الخطية بالموت لتجعل الإنسان مقيَّدًا بالوجود الطبيعي.

"العدل"، كلمة غابت تمامًا عن كتاب تجسد الكلمة

وبينما يتمسَّك أنسلم والذين تعلَّموا منه، بصدام الإنسان بالعدل الإلهي، يسجِّل الرسولي:

١- إن الإنسان دُعيَ إلى الوجود بصلاح الله الذي "لا يبخل بأي شيء" (تجسد الكلمة ٣: ٣).

٢- إن الله يعلم أن إرادة الإنســان يمكن أن تميل إلى الخير وإلى الشــر، لذلك "سـبق فأمَّن النعمة المعطاة للإنسـانية بوصـيةٍ ومكان (الفردوس) ... لكي يحفظ النعمة" (تجسد الكلمة ٣: ٣، ٤).

---

(١) راجع دراستنا: القديس أثناسيوس في مواجهة التراث الديني غير الأرثوذكسي، الطبعة الثانية، يونيو ٢٠١٥، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة.

٣- إن خطية الإنسان هي رفض النعمة، هي الابتعاد عن النعمة. ليس هناك أيُّ تعليمٍ عن العصيان أو التمرد، وإنما التحول في طبيعة الإنسان من حياةٍ حسب الصورة، إلى حياةٍ حسب فهم الإنسان، وهي "احتقار التفكير في الله ورفضه" (تجسد الكلمة ٤: ٤). وهو تحول وعودة إلى "الحالة الطبيعية" (تجسد الكلمة ٤: ٥)، وهي "حالة عدم الوجود". فإما الوجود وإما الموت. إما الصورة الإلهية وإما الفساد الطبيعي.

هذه هي الحقيقة الأرثوذكسية التي لم يعرفها ليس فقط العصر الوسيط الأوربي، بل والتي غابت أيضًا عن العصر الوسيط القبطي، وعن التعليم القبطي المعاصر.

المعونة والخلاص من الفناء

كتب الرسولي: "الإنسان فانٍ بطبيعته لأنه خُلِقَ من العدم" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

ولكن:

"بسبب خلقته على صورة الله الكائن"،

"كان قادرًا على أن يقاوم الفناء الطبيعي، ويبقى في عدم فناء".

كيف؟

"لو أبقى الله في معرفته"،

وهو وجوده في عدم فساد، "فقد كان ممكنًا أن يعيش منذ ذلك الحين كالله" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

ويعود الرسولي ليكرر نفس تحديد حياة الإنسان، أو بالحري وجوده"

"الله لم يكتفِ بأن يخلقنا من العدم"،

لكن

"وهبنا بنعمة الكلمة إمكانية أن نعيش حسب الله" (تجسد الكلمة ٥: ١).

الإنسان بين نعمة الألوهة وفساد الطبيعة

كل ما سبق من مقاطع كاملة مما كتبه الرسولي، يقطع بأن الإنسان لم يكن يسعى إلى شهوة الألوهة لأنه "أُعطي شركةً في الحياة الإلهية بنعمة خاصة من الكلمة لم تُمنَح لمخلوقٍ آخر" (تجسد الكلمة ٥: ١ – ٢).

وأن خطية الإنسان لم تُوصَف بالسقوط، بل هي:

– اختراع الشر (تجسد الكلمة ٥: ٣).

– والتفكير فيه لدرجة رفض تأمل الله (تجسد الكلمة ٤: ٥).

– وابتداع الشر (تجسد الكلمة ٤: ٤) هو سبب تحول الإنسان من صورة الله الكائن إلى صورته التي تقف على حافة العدم، لأن "الشر عدم" (تجسد الكلمة ٤: ٥). فالوجود الإنساني، إما حسب صورة الله، وإما حسب صورة البشر، وهي صورٌ متعددة تستعصي على الحصر. ولعلنا نرى في تعدد الميثولوجيا المصرية والكنعانية واليونانية، ثم صور الطغاة الذين عاشوا في النصف الأول من القرن الماضي مثل ستالين وهتلر، وغيرهما، مثالًا على تعدد صور الوجود الإنساني.

بمحبته للإنسان (تجسد الكلمة ٤: ٥)، دعا الله الإنسان إلى الوجود (المرجع السابق). وهنا يجب أن نقف عند هذه العبارة: "من عدم الوجود إلى الوجود، لأن البشر حصلوا على وجودهم من الله الكائن، لذلك كان من الضروري أن يرجعوا إلى ما هو غير موجود (العدم) وهو الشر الذي اخترعه الإنسان ولازال يخترعه (تجسد الكلمة ٤: ٥).

هنا مفترق الطرق بين التعليم السكندري الذي يمتد بجذوره إلى كتابات

أوريجينوس، وبين تعليم العصر الوسيط الذي يبدأ بأنسلم، وهو الفرق الجوهري بين تحوُّل الإنسان، واعتداء الإنسان على كرامة الله.

لازلنا نسمع صوت أنسلم في عظات بعض الأقباط الأرثوذكس بأن الخطية اعتداءٌ على كرامة الله، وهي تحدي لشريعة الله وسلطانه. أما تحول الإنسان من الحياة حسب نعمة الصورة إلى حياة حسب الإنسان، فهو فقدان الوجود. ومِن فقدان الوجود بشكل واضح، ما نراه في الجرائم الوحشية التي تؤكد وحشية المجرم وافتقاده لكونه إنسانًا.

الفساد

"الفساد"، كلمة تكررت بشكل واضح، وهي تعني الانحلال وسيادة الموت والفناء (تجسد الكلمة ٤: ٥). الفساد هو تحلل الكيان الإنساني إلى ما هو غير موجود.

الفساد = الموت = الفناء

الإنسان لم يكن "خاطئًا"، بل "ميِّتًا" أولًا، ومن ثمَّ "خاطئًا".

الإنسان جلب الموتَ على نفسه "أما إذا تعدوا الوصية وارتدوا (عن الخير) وصاروا أشرارًا فليعلموا أنهم سيجلبون الموت على أنفسهم حسب طبيعتهم" (تجسد الكلمة ٣: ٤).

والموت هو "البقاء في فساد الموت إلى الأبد" (تجسد الكلمة ٣: ٥).

الخلق الأول في عدم فساد (تجسد الكلمة ٤: ٣) هي نفس عبارة صلاة الصلح في القداس الباسيلي.

مُلك الموت

الموت هو المشكلة الأساسية وليست الخطية. وكلُّ كاذبٍ مدعٍ عليه أن يتوقف عن الهلوسة. ماذا كتب أثناسيوس نفسه؟

١- البشر سيجلبون الموت على أنفسهم "حسب طبيعتهم" (تجسد الكلمة ٣: ٤)، الأمر الذي يعني أن الطبيعة لم تستطِع حفظ النعمة.

٢- حكم الخالق لا يعني مجرد الموت، بل "البقاء في فساد الموت إلى الأبد"، حكمٌ أبدي.

٣- لأن البشر حُكِمَ عليهم "بحكم الموت الذي سبق إنذارهم به". وكتب الرسولي: "ومن ذلك الحين لم يبقوا بعد كما خُلِقوا، بل إن أفكارهم قادتهم إلى الفساد وملكَ عليهم الموت" (تجسد الكلمة ٤: ٤).

٤- كتب الرسولي عبارةً خالدة، وهي أن الشر هو "حالة عدم الوجود"، وأن الشر عدم (لأنه من صُنع الإنسان الذي جاء من العدم إلى الوجود)، "وكل ما هو خير فهو موجود". وأضاف الرسولي: "إن البشر حصلوا على وجودهم من الله الكائن، لذلك كان لا بُد أن يُحرَموا إلى الأبد من الوجود" (تجسد الكلمة ٤: ٥).

هذه قضية أكبر من قضية الخطية، لأن الإنسان معلَّقٌ ما بين الوجود حسب الله، والوجود حسب الطبيعة، أي الفساد، وهو ما يعني الوجود القابل للتحلل والضياع، بل الفناء (تجسد الكلمة ٤: ٥).

٥- أهم من هذا كله: "الإنسانُ فانٍ بطبيعته لأنه خُلِقَ من العدم، إلَّا أنه بسبب خلقته على صورة الله الكائن (كان له وجود أو كيان)، كان ممكنًا أن يقاوم قوة الفناء الطبيعي" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

وكلمة "مقاومة" في الترجمة العربية غير دقيقة، لأن الكلمة في الإنجليزية هي "blunt" وهي أقرب للكلمة اليونانية التي تعني "يكسر حدة"، فهي خاصة

بتحول السكين الحاد إلى سكين ثُلمَت حِدته. وتحول الإنسان من قاهر للطبيعة إلى مستعبَد للطبيعة، وهو الفناء أو العدم.

٦- التحوُّل جاء بمشورة الشيطان، وهو تحوُّلٌ إلى "أعمال الفساد الطبيعي"، وهي الأعمال الإنسانية التي تصدر من طبيعة فانية. وماذا ترتب على ذلك؟ "صاروا بالطبيعة فاسدين، أي موتى" (تجسد الكلمة ٥: ١).

وقد حدث التحول حسب أثناسيوس:

- نعمة الاشتراك في الكلمة هي ضد الفساد.

- ولكن اختيار أعمال إنسانية صادرة من فساد الطبيعة، يعني أن كل ما يفعله الإنسان هو وليد الموت، ويؤدي إلى سيادة الموت على الإنسان. الأمر يشبه إلى حدٍّ كبير الإدمان على شيء، وهو ما يجعل الإنسان عبدًا لما يحبه.

- كان الكلمة اللوغوس يسكن في البشر، ولذلك "فإن فسادهم الطبيعي لم يمسَّهم، ولكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم" (تجسد الكلمة ٥: ٢).

هنا مفترق الطرق؛ لأن الذي دخل كان هو الموت وليس الخطية حسب هذا النص القاطع من سفر الحكمة (٢: ٢٣ - ٢٤). هكذا يجب أن نفهم أن الموت دخل بالخطية، وليست الخطية بالموت. هل هذا بمثابة تضخيم وتعظيم لحجم الموت يتجاوز الحجم الحقيقي؟ بكل يقينٍ لا.

- دخول الموت بالخطية يعني أن الموت جاء بما هو ضد الوجود الإنساني. لقد اختار الإنسان حفرة الموت بكسر الوصية. هو لم يختار العصيان، بل الموت. هو لم يخطئ لكي يموت، ولكنه مات فأخطأ بترك صورة الله الكائن وبتحوله إلى صورته الذاتية الفانية التي جاءت أصلًا من العدم.

طبعًا يبدو لمن عاش وسمع وقَبِل لاهوت العصر الوسيط أنه لا يوجد فرق، ولكن دخول الموت غير دخول الخطية.

– بعد أن دخل الموت إلى العالم، كتب الرسولي: "من أجل هذا"، وهي عبارة تعد خاتمة لما قبلها، وهو استعلان محبة الله (رو ٥: ٨)، ثم المصالحة. وما هو سبب المصالحة مع الله بالمسيح يسوع ربنا (تجسد الكلمة ٥: ١)، وهي، أي المصالحة، سبب موت المسيح. فالرسول يقول لنا لماذا مات المسيح؟ والجواب: من أجل ما سبق وذكرته "كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم، وبالخطية الموت"، وصار الموت ظاهرةً كونيةً "اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع". هل تتعارض كلمات الرسول بولس مع كلمات المعلم السكندري؟ أبدًا على الإطلاق. والسبب هو أن الشيطان بالحسد خدع الإنسان وقدَّم له الموت. وكلمات الرسالة إلى العبرانيين: "ذلك الذي له سلطان الموت" (عب ٢: ١٤) تؤكد أن طريق الموت جاء بالعصيان وتحت خداع معرفة الخير والشر، لأن الله لا يعرف الشر، وهو ضابط الكل وواهب الحياة، ليس بالمعرفة، مهما كانت، بل بقدرته كخالقٍ صالح. فالله –كما كتب الرسولي: "لا يضن ولا يبخل بالوجود على أحد، وهو لا يحسد أحدًا على الوجود لأنه الخالق" (تجسد الكلمة ٣: ٣). لذلك، كما لاحظ مار إفرام ملفان الكنيسة السريانية: إن كلمات سفر التكوين: "هوذا الإنسان صار كواحدٍ منا" تعبِّر عن سخرية الله من محاولة الإنسان أن يكون مثل الله (راجع أناشيد الفردوس ٣: ٢). فهي محاولة فاشلة، أراد الإنسان شيئًا، وجاء بالعكس، وهو ازدواجية المعرفة التي بكل أسف ما تزال معنا.

وكما كتب النيسي: "الشر هو الرغبة في الخير، ليس الخير كما هو، بل الخير كما يتصوره الإنسان". ولذلك، فإن تحوُّل كيان الإنسان، ليس مجرد سقوط كما شاع في العصر الوسيط، وليس كما درجنا نحن على استعمال تعبير (سقوط آدم)، وليس تحوُّل آدم، فزاد حجم الخطية في خطابنا المعاصر.

– لا يمكن فصل الموت عن الخطية. وإبادة الموت، الموضوع الأساسي في

(تجسد الكلمة)، يعني بالضرورة إبادة الموت ومع الموت الخطية (راجع ٣: ٤ – ٥، ٤: ٤: ٥: ١، ٥: ٣، ٦ كله، ٧: ١، ٨: ٢، ٨: ٤، ٣٠: ٢، ٤١: ٥).

هذه الفقرات ذات أهمية بالغة:

– التحول هو "إذا تعدُّوا الوصية وارتدُّوا (عن صورة الله) وصاروا أشرارًا فليعلموا أنهم سوف يجلبون الموت على أنفسهم حسب طبيعتهم" (تجسد الكلمة ٣: ٣). وتعبير (حسب طبيعتهم)، هو تعبير ذو دلالة بالغة، وهي تعني أن الإنسان لم يدرك حقيقة وجوده القابل للفناء.

– إذا استطعنا أن نميِّز بين الإيمان بخلود النفس، وهو تعليمٌ ذاع في كل بقاع العالم، وبين نعمة الإبقاء على الإنسانية مهما كانت؛ لأن بقاء الإنسان حيًّا رغم حكم الموت، لم يكن بسبب قدرة الإنسان، بل حسب كلمات الرسولي نفسه: "تجسد لكي يخلصنا وبسبب محبته للبشر قَبِلَ أن يتأنس" (تجسد الكلمة ٤: ٣). "كان من المستحيل التهرب من حكم الشريعة، لأن الله هو الذي وضعَ الشريعة بسبب التعدي" (تجسد الكلمة ٦: ٢). ولكن "هذا غير لائق أن تهلك الخليقة وترجع إلى العدم والفساد، تلك الخليقة التي خُلِقَت عاقلة، وكان لها شركة في الكلمة" (تجسد الكلمة ٦: ٤). وهنا لا يمكن أن نحسب أثناسيوس مع الغرب الكاثوليكي (أنسلم)، والبروتستانتي (لوثر)، لأن عبارة "سيكون من غير الجدير بصلاح الله أن تفنى خليقته بسبب غواية الشيطان للبشر" (تجسد الكلمة ٦: ٥) هي الفيصل بين أثناسيوس واللاهوت الغربي بشقيه، وهو ما نعرض له بالتفصيل.

النقطة الفاصلة

السائد في الغرب طوال حقبة سيادة التعليم الكاثوليكي، وبالذات توما الإكويني هو أن النفس خالدة بالطبيعة، ولذلك كانت خطية آدم وحكم الموت

على إنسان خالد بالطبيعة، تقتضي أن يأتي مخلص يلاشي عقوبة الموت لأنها تصطدم بعدل الله. أما في الإسكندرية، فالإنسانُ فانٍ mortal بالطبيعة، ولكنه يستمر في البقاء بسبب حفظ الله له وبسبب صلاح الله ومحبته التي لا تترك الإنسان للفناء. لذلك يقول أثناسيوس: "فما الذي كان يجب على الله الصالح أن يفعله؟ هل يترك الفساد يسيطر على البشر والموت يسود عليهم؟" (تجسد الكلمة ٦: ٦).

يعبِّر أثناسيوس عن بقاء الإنسانية بعبارة صارمة: "أما وقد خلقه وأتى به من العدم إلى الوجود، فقد كان سيصبح من غير اللائق بالمرة أن تفنى المخلوقات أمام عيني الخالق" (تجسد الكلمة ٦: ٩).

وهنا يفترق طريق الإسكندرية عن العصر الوسيط، لأن المعضلة هي:

١- قصد الله من خلق الإنسان أن يكون له شركة في الكلمة (تجسد الكلمة ٦: ٤).

٢- صلاح الله الذي لا يسمح "بفناء الخليقة بسبب غواية الشيطان للبشر" (تجسد الكلمة ٦: ٥).

٣- لم يترك الله الصالح "الفساد يسيطر على البشر والموت ليسود عليهم" (تجسد الكلمة ٦: ٦).

٤- سيادة الموت على الإنسان "يتعارض مع صلاح الله" (تجسد الكلمة ٦: ١٠).

كان الإنسان يُمسِك بالفساد الطبيعي وبالحياة حسب نعمة الصورة، لذلك كتب أثناسيوس "أن البشر فاسدون بالطبيعة، لكنهم بنعمة اشتراكهم في الكلمة كان يمكنهم الانتصار على الفساد الطبيعي (تجسد الكلمة ٤: ٦).

سُكنى الكلمة في الإنسان

سُكنى الكلمة في الإنسان هي عطية أو هبة الآب في اللوغوس. فالإنسان يصير عاقلًا بسبب سُكنى الله الكلمة فيه. هي نعمة الوجود (تجسد الكلمة ٤: ٥)، فالإنسان كائن مثل الله الكائن (المرجع السابق). كان الله قد أعطى وصيةً، وجاء تعدِّي الإنسان بسيادة الموت death prevailed. الموت يتعارض مع صلاح الله، وتراجُع الله عن حكم الموت أمرٌ لا يليق بالله. كما أن موت الإنسان لا يليق بصلاح الله.

لا يوجد هنا مجال لحوار عدلٍ مع رحمة، ولكن بقاء الإنسان في الموت لا يتفق مع صلاح الله ومحبته للبشر.

التوبة جيدة، ولكنها لا تستطيع أن تنقذ الإنسان من حكم الموت، لأن "التوبة عاجزة عن حفظ أمانة الله، لأن الله لن يكون صادقًا إن لم يظل الإنسان في قبضة الموت" (تجسد الكلمة ٧: ٣).

وهنا ننبه إلى الأساس الذي لا يجب أن يضيع بسبب القراءة السطحية:

١- الله صالح، وقد أوجب الصلاح الإلهي خلاص الإنسان، ولذلك نرى دائمًا التأكيد على خلق الإنسان على صورة الله (تجسد الكلمة ٣: ٣، ٤: ٦، ٥: ١، ٦: ٤، ٧: ٤، ١١: ٣، ١٢: ١، ١٣: ٢، ١٤: ١، ٢٠: ١). فالوجودُ هبةٌ، ولكن هذه الهبة ليست هي مجرد الوجود، بل هي شركة في طبيعة الكلمة.

٢- في الفصل ١٣ يؤكد الرسولي **إن الملائكة ليسوا هم صورة الله** (تجسد الكلمة ١٣: ٧)، وحجة الرسولي ليست فقط في أن الملائكة مخلوقات، بل **لأن صورة الله الحقيقية هي الابن متجسدًا، فهو خالقٌ ومتجسِّدٌ، يستطيع أن يصير إنسانًا بقدرة ألوهيته**، أما الملائكة فليس لديهم هذه القدرة، لذلك

يتحدث أثناسيوس عن مجيء الابن متجسدًا في هذه الفقرة: "لهذا أتى كلمة الله بذاته لكي يستطيع –وهو صورة الآب– أن يجدد خلقة الإنسان على مثال الصورة" (تجسد الكلمة ١٣: ٧).

٣– ويشرح أثناسيوس ما ذكره في الفصل الثالث عشر في الفصل الرابع عشر، فيقدم الرسولي تشبيهًا جيدًا، سهلًا ممتنِعًا، وهو تشبيه الصورة المرسومة على قماشٍ وقد تلطخت، فيأتي صاحب الصورة لكي يتمكن الفنان من إعادة تجديد الصورة على ذات قماش اللوحة ... فقد أتى إلى عالمنا كلِّي القداسة ابن الآب، إذ هو صورة الآب لكي يجدد الإنسان الذي خُلِقَ على صورته (تجسد الكلمة ١٤: ١ – ٢).

ماذا حدث للإنسان؟

إذن، لم يكن الأمر مجردَ خطيةٍ وتعدٍّ، بل ما يؤكده أثناسيوس هو أن "نعمة الصورة قد نُزِعَت" (تجسد الكلمة ٧: ٤).

لا يذكر أثناسيوس شيئًا عن انفصال الإنسانية عن الله، ولا يوجد ما يشير إلى ذلك في كل ما كتب. الكون، بل الإنسان نفسه لا وجود له إلَّا بالرحمة والجود والصلاح الإلهي، وبالتالي الكلام عن الانفصال يعني الإطاحة بالإنسان إلى العدم. هذا أحد أساسات تدبير الخلاص.

لم يكن بين الله والخليقة فجوة أو هوة Gulf. وتصوُّر وجود هوة بين الله والإنسان هو تصوُّرٌ ساد العصر الوسيط، حيث لا علاقة بين الكون والإنسان والله القدوس الذي يكره الأشرار. لكن أي قراءة، ولو سطحية لكتاب تجسد الكلمة سوف تبين لنا أن الرسولي يرى كل الخليقة في الله، لأن الخلق من العدم يعني أن "الكائنات لم توجد من تلقاء ذاتها لأن هناك تدبيرًا سابقًا على وجودها" (تجسد الكلمة ٣: ١). أما الانفصال فهو فكرة يمكن قراءتها عند أفلاطون، وربما دخلت في الفكر المسيحي في كتابات العلّامة أوريجينوس.

ولا تظهر فكرة الانفصال بالمرة في أسفار العهدين، بل تؤكد أسفار العهد القديم التاريخية أن العالم والشعوب في حراكٍ مستمر يؤكد عدم تخلي الله عن العالم وعن بني إسرائيل.

لقد نال الإنسان الوجود من الله (تجسد الكلمة ٤: ٥)، ولكن كل ما هو موجود معرَّضٌ للفناء، ويستخدم القديس أثناسيوس مصطلح "الفناء الطبيعي" (تجسد الكلمة ٤: ٦، ٥: ١)، ولكن عدم لياقة عودة الخليقة إلى العدم (تجسد الكلمة ٦: ٤)، لا يرجع إلى أن الخليقة لها قدرة على البقاء (تجسد الكلمة ٤: ٥)، بل لأن الله رأى أن هذا غير لائق بصلاح الله، وغير نافع (تجسد الكلمة ٦: ٥ — ٦، ٧)، وغير لائق أن تفنى المخلوقات أمام عيني الخالق (تجسد الكلمة ٦: ٩).

إذن، لا يمكن، بدون الغش والتدليس، أن يوضَع أثناسيوس كلاهوتي، في موقفٍ يتوسط الشرق والغرب، أو بين الأرثوذكسية ولاهوت حركة الإصلاح، وذلك لعدة أسباب:

١- لأن ما حدث للإنسان بالتعدي لم يكن سقوطًا، بل تحوُّلًا في كيان الإنسان من الحياة إلى الموت.

٢- لأن خطية الإنسان أدَّت إلى نزع "نعمة مماثلة صورة الله" (تجسد الكلمة ٧: ٤)، وفقدان الصورة الإلهية يعني أن البشر فقدوا معرفة الله التي كانت الصورة تمنحها. لأن البشر كانوا يدركون الله بتأمل الصورة التي وُهِبَت لهم.

الصورة الإلهية هي المصدر الأول لمعرفتنا بالله كخالق

"عندما خلق الله ضابط الكل الجنس البشري ... كان يعرف جيِّدًا ضعف طبيعة البشر وعجزها عن أن تعرف الخالق من ذاتها، ولا تستطيع أن تكوِّن أية فكرة عن الله على الإطلاق، وذلك لأن الله غير مخلوق، أما الكائنات فهي مخلوقة من العدم، والله روحٌ بلا جسد، أما البشر فقد خُلِقوا من جسد أرضي من

أســـفل، وبوصـــفٍ عام، فلدى المخلوقات عجزٌ في قدرتها على أن تدرك وتعرف خالقها" (تجسد الكلمة ١١: ١).

هكذا قدَّم الرسولي لنا حقيقة الوجود الإنساني الذي لديه عجزٌ لأنه خُلِقَ من العدم ومن تراب الأرض. على أن الرسولي لم يقف عند هذا الوصف السلبي، بل أضاف: "الله بسبب صلاحه تحنَّن على الجنس البشري ولم يتركهم بعيدًا عن معرفته لئلا يصبح وجودهم في الحياة بلا منفعة بالمرة" (المرجع السابق).

فما هي المنفعة التي قصدها أثناسيوس؟ هي معرفة الخالق، لأن المعرفة هنا ترفع الإنسان إلى مستوى أعظم من مستوى الحيوانات. المعرفة هنا هي "نصيب المخلوقات في صـــورة الابن الكلمة. لأن هذا هو صـــلاح الله ونعمته". والمعرفة المقصـــودة هنا هي المعرفة اللَّدُنية التي تبع من الذات لا من الكتب، لأنه عندما خلق الجنس البشري لم يكن لدى الإنسان أسفارًا، ولكن "بسبب نعمة صورة الآب الذاتي، فإنهم عندما يرون تلك الصورة، أي كلمة الآب، يمكنهم بواسطته أن يصلوا إلى معرفة الآب" (تجسد الكلمة ١١: ٣).

في هذه المرحلة من حياة الإنســـانية كانت المعرفة بالله هي التي تحقق سعادة الإنسان لأنه بها يدرك غاية خلقه ويجد في الله الصلاح والنعمة.

أثناسيوس لا ينكر الأسفار، إذ يطلب فحص "نصوص الكتب المقدسة ... لأن هذه النصـــوص قد نُطِق بها وكُتِبَت من الله على أيدي بشـــرٍ تكلموا عن الله" (تجســـد الكلمة ٥٦: ١ – ٢). وهو لا ينســـى التســـليم الذي قدَّمه معلمو الكنيسة (المرجع السابق). ويؤكد أن دراسة الكتب ومعرفتها معرفةً حقيقية تتطلبان حياةً صالحةً ونفسًا طاهرةً وحياة الفضيلة التي بالمسيح (تجسد الكلمة ٥٧: ١).

في العصر الوسيط، وبالذات بعد توما الإكويني وحتى مقولة كارت بارت، كان الرأي الســـائد في مدارس اللاهوت هو أن الإنســـان فَقَدَ كل معرفة صـــالحة حقيقية، وأن المعرفة الوحيدة الصـــالحة هي في الأســـفار وحدها. وذيوع تعليم كارل

بارت أدى إلى آثار جانبية مدمرة، وهي:

١- إذا كان الأمر هكذا، فكيف نفهم ما هو جيد وصالح في عقائد الشعوب؟

٢- إذا كانت الأسفار وحدها هي المرجع الوحيد، وأن كل معرفة أخرى هي معرفة فاسدة، فما هو معيار التمييز بين ما هو جيد وصالح، وما هو فاسد؟ ومن هو الذي يقوم بهذه المهمة؟

أما في الإسكندرية، فقد كان التعليم السائد الذي سبق القديس أثناسيوس عند أكليمنضس وأوريجينوس هو أن معرفة الإنسان بالله مغروسةٌ في النفس الإنسانية عند خلقها، وأن الانحراف لا يجب أن نرده إلى فساد الإنسان بشكل كامل، بل إلى ثنائية الخير والشر. أما التمييز بين الخير والشر، فيجب أن يُرد إلى الأسفار المقدسة.

غياب "السقوط" من كتاب تجسد الكلمة

كان تحوُّل الإنسان مصدره هو "حسد إبليس" الذي جعل الإنسان يظن أن معرفة الخير والشر تجعله مثل الله. لم يكن الأمر إذن هو شهوة الألوهة، لأن الإنسان إلهٌ في الكون، وهو صورة الله، وبالتالي كان تحول الإنسان هو تراجُع الإنسان من صورة الله إلى صورته الذاتية المستقلة عن الخالق، ففقد الإنسان غاية وجوده مما جعل "البشر يموتون ... وصار للموت سيادةً على كل البشر، سيادةً أقوى من سيادته الطبيعية" (تجسد الكلمة ٥: ٢).

هنا بالذات يجب أن نرى أن الإنسان الذي خُلِقَ من العدم -الذي هو حقيقية الوجود الإنساني- غير قادر على البقاء الأبدي، وليس في طبعه الخلود الذي وُهِبَ بقيامة المسيح.

من المؤكَّد، ليس فقط في الفصل الخامس، بل خلال عرض أثناسيوس أن دمار الإنسان جاء بالموت، وأن فساد الإنسان كان السبب في معرفة فاسدة وصَّفها أثناسيوس نفسه بأن: "البشر لم يقفوا عند حدٍّ معيَّنٍ في خطاياهم ... وصاروا يخترعون الشر" (تجسد الكلمة ٥: ٣).

وأردف أثناسيوس: "حتى جلبوا على أنفسهم الموت والفساد، ثم توغلوا في الظلم والتعدي ولم يتوقفوا عند شرٍّ واحد، بل كان كلُّ شرٍّ يقودهم إلى شرٍّ جديد حتى أصبحوا نهمين في فعل الشر" (تجسد الكلمة ٥: ٣).

ماذا كتب الرسولي عن الموت؟

إذا حصرنا عدد المرات التي ذكر فيها الرسولي "الموت"، لوجدناها ٧٢ مرة.

ابتداءً من الفصل الثالث: "الأكل من الشجرة يعني موتًا تموت لأنه تعدَّى وصية الله" (تجسد الكلمة ٣: ٥).

– جاء الموت بحكمٍ جعل الفساد الطبيعي يملك بسيادة أكبر (تجسد الكلمة ٤: ٤).

– وكان الانحلال يعني العدم (تجسد الكلمة ٤: ٥).

– "لأن الإنسان فانٍ بطبيعته لأنه خُلِق من العدم" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

والعبارة التي يجب أن نتوقف أمامها بعض الوقت: "لكن البشر حوَّلوا وجوههم عن الأمور الأبدية، وبمشورة الشيطان تحوَّلوا إلى تصرفات الفساد الطبيعي" (تجسد الكلمة ٥: ١).

– "إن الانحلال جعل سيطرة الطبيعة الفاسدة تؤدي إلى مزيدٍ من الشَّر" (تجسد الكلمة ٥: ١ – ٣).

عمومية الفساد والموت

"عمَّ الفسادُ البشر"، أي صار سمةً عامةً بسبب الموت الذي جعل الإنسان يرتد إلى العدم ويصارع الموت بقدراته الطبيعية مما جعل "خليقة الله آخذة في الانحلال" (تجسد الكلمة ٦: ١).

"كانت شريعةُ الموت قائمةً ضد البشرية" (تجسد الكلمة ١٠: ٥)، ولكن هذه الشريعة أُبطِلت بواسطة المسيح به وفيه (تجسد الكلمة ١٠: ٥).

– جاء الموت "بسبب تمرد الإنسان، بل وبعدم الاكتراث بالنعمة" (تجسد الكلمة ١١: ٤)، ليس التمرد فقط، بل وأيضًا عدم الاكتراث بالنعمة الذي هو بكل يقين الاستهانة بنعمة الصورة وبعدم جدواها، وهو ما جعل الإنسان يصنع الأوثان (تجسد الكلمة ١١: ٤)، لأن غواية الشيطان حجبت معرفة الإله الحقيقي (تجسد الكلمة ١٣: ١).

– "فالمسيح جاء لكي يطلب ما هلك لأنه جاء لكي يسترد الإنسان" (تجسد الكلمة ١١: ٦، ١٤: ١ – ٢). إذن، فمجيء الرب لم يكن لمغفرة خطية آدم، بل لإعادة الإنسان إلى حياة الشركة.

التجسد كان ولازال لإبادة الموت

"جسد الكلمة من ذات طبيعة البشر، ولكنه كان متَّحدًا بمَن هو غير مائت الله الكلمة؛ فلم يَعُد خاضعًا للفساد" (تجسد الكلمة ٢٠: ٤). لذلك صار الموت هو "بسبب طبيعة أجسادنا المائتة ننحل ... لأننا كالبذور التي تلقى في الأرض، هكذا عندما ننحل بالموت، بل نُزع في الأرض لنقوم ثانيةً، فالموت أُبيد بنعمة قيامة المخلص" (تجسد الكلمة ٢١: ٢).

رد الوجود الإنساني إلى الله وعودة الإنسان إلى الحياة.

في الفصل ٢٥ من كتاب تجسد الكلمة يُبدي أثناسيوس اهتمامه بأسئلة الشعب: "لو أراد واحدٌ من شعبنا أن يسأل -لا حُبًّا في الجدل، بل حُبًّا في التعلُّم- لماذا لم يمت بأي شكلٍ آخر غير الصليب؟" (تجسد الكلمة ٢٥: ١). والجواب إنه جاء لكي "يحمل اللعنة"، والفعل "يحمل" يعني "يرفع" اللعنة، لا حملها كما نحمل نحن الكتب مثلًا. ويؤكد أثناسيوس نفسه أن المسيح "قَبِل موت اللعنة". وكان موت "الرب فديةً عن الجميع" لأن هذه الفدية نقضت حاجز الفصل بين اليهود والأمم (أف ٢: ١٤)، وبذلك "صارت الدعوة لجميع الأمم". وعندما "بسط الرب ذراعيه على الصليب وحَّد اليهود والأمم في شخصه" (تجسد الكلمة ٢٥: ٣).

وفي عبارة ذهبية: "كما قدَّم جسده للموت عن الجميع، هكذا بنفس هذا الجسد أيضًا أعدَّ الطريقَ للصعود إلى السماء" (تجسد الكلمة ٢٥: ٦). وسبق هذا تطهير الهواء من الشياطين، لأن مجرد تعليق الرب على الصليب في الهواء قد طرح الشيطان إلى أسفل (تجسد الكلمة ٢٥: ٥).

إذا انتبهنا إلى أن أثناسيوس يجيب على سؤال الشعب: "لماذا لم يمت بأي شكل آخر ..." (تجسد الكلمة ٢٥: ١)، فعلى القارئ أن يلاحظ بدقة أنه لا ذِكر بالمرة لغفران خطية آدم، بل كان الرد:

رفع اللعنة وإزالتها – مصالحة اليهود مع الأمم — طرح الشيطان إلى أسفل — إعداد الطريق للدخول إلى السماء.

ألا يكفي هذا؟ لا.

– في الفصل ٢٦ تحوَّل ناسوت الرب إلى "عدم الفساد وعدم التألم اللذين حصلا لجسده كعلامةٍ للظفر والانتصار على الموت" (تجسد الكلمة ٢٦: ١).

– مات الجسد، ليس بضعفٍ، بل "لكي يُباد الموت فيه (في الجسد) بقوة المخلص" (تجسد الكلمة ٢٦: ٦).

هل لاحظ القارئ الفطن أن أثناسيوس لا يذكر الانتصار على الخطية، بل على الموت؟

وفي دقةٍ متناهيةٍ كتب الرسولي:

– "إن الموت لم يَعُد له سلطانٌ بالمرة، بل قد مات حقًّا" (تجسد الكلمة ٢٧: ١).

– مات الشيطان (تجسد الكلمة ٢٧: ٣، راجع ٢٩: ٥)، وهو يعني انعدام قدرته، وحتى عندما يمارس صور الخداع، فهو بلا قوة.

– المسيح أبطل الموت (تجسد الكلمة ٢٩: ٦).

وفي عجالةٍ سريعة:

– الإنسانُ جلب على نفسه حكم الموت (تجسد الكلمة ٣: ٤، ٥: ١)، وهو البقاء في الموت إلى الأبد (تجسد الكلمة ٣: ٥).

– الموتُ حكمٌ (تجسد الكلمة ٤: ٤). الموتُ يملك على الإنسان (تجسد الكلمة ٤: ٤، ٦: ١). الموت حرمانٌ من الحياة الأبدية (تجسد الكلمة ٤: ٥).

– الموتُ فسادٌ (تجسد الكلمة ٥: ١)، أشعل فينا الفساد الطبيعي، أي ميل الإنسان نحو ما يرغب (تجسد الكلمة ٧: ٤، ٩: ٢). الموتُ أُبيد وسلطانه توقَّف تمامًا (تجسد الكلمة ٨: ٤)، ويؤكد ذلك: أبطل فساد الموت (تجسد الكلمة ٩: ٤). رفع، أي أزال حكمَ الموت (تجسد الكلمة ٩: ١).

– الموت أُبيد بنعمة القيامة (تجسد الكلمة ٢١: ٢)، بل من داخلنا نحن البشر (تجسد الكلمة ١٦: ٥).

– ولم يكن الموت هو موت الرب، بل حسب تعبير الرسولي: "لم يأتِ لكي يتمم موته هو، بل موت البشر، ولذلك لم يسلِّم جسده للموت بموت البشر، فهو الحياة ولا موت فيه، بل قَبِلَ في الجسد ذلك الموت الذي أتاه من البشر لكي يبيد ذلك الموت تمامًا عندما يلتقي به في جسده" (تجسد الكلمة ٢٢: ٢).

الوراثة

الوراثة في العهد القديم كانت خاصة بوراثة الأرض، عندما قُسِّمت للأسباط، فهي ميراث كل سبط، وحُفِظَ الكهنوت لسبط لاوي، ورغم ذلك لم يذكر العهد القديم أن الكهنوت وراثة، رغم أنه كان يُورَّث.

نحن في المسيح لم نرث أرضًا لأننا لسنا أسباط بني إسرائيل (راجع على سبيل المثال تك ١٥: ٧، لا ٢٠: ١).

أما في العهد الجديد، فالوراثة هي شركتنا في ميراث الابن البكر ربنا يسوع (أف ١: ٥). وقد ورث الرب يسوع ملكوت الآب، لأنه أسَّسه بنفسه ووُهِبَ لنا فيه (رو ٨: ١٧)، ونحن نرث ذلك الملكوت هبةً من الآب لا بأعمالٍ حسنة صالحة، بل بدعوةٍ من الله الآب (أف ١: ١ – ٣، كولو ٣: ٢٨، راجع ١كور ٦: ٩، ١٠: ٦).

لا يذكر العهد الجديد كله وراثة الخطية، ولا حتى بشكلٍ غير مباشر. وما يذكره رسول الرب في رومية ٥: ١٢ إلى آخر الإصحاح، فهو خاص بعمومية الخطية، وأنها انتشرت في الجنس البشري.

هل من وجود لفكرة الوراثة في كتاب تجسد الكلمة؟

في الفصل ٢١ يؤكد أثناسيوس أن حكم الموت قد أُبطِل وأن فساد الجسد قد أُبطِل لأن الموت أُبيد "بنعمة القيامة" (حسب الأصل اليوناني، راجع ترجمة Thomson ص ١٨٤ – ١٨٥).

الفســـاد قد أُبطِل، والآن في موت أجســـادنا نحن ننحل لكي ننال قيامةً أفضل (عب ١١: ٣٥)[١]، ونحن لا نفنى عندما ننحل بالموت، بل نُزرع في الأرض لنقوم ثانيةً لأن الموت أُبيد بنعمة القيامة.

هذه ليســـت من قوى الطبيعة، أو من النظام الكوني لأن كل المخلوقات لا يمكن أن تعطي قيامةً.

في الفصل العاشر كتب الرسولي: "لأنه بذبيحة جسده الخاص وضع نهايةً لشـــريعة الموت الذي كان قائمًا ضـــدنا، وصـــنع لنا بدايةً جديدةً للحياة برجاء القيامة" (تجسد الكلمة ١٠: ٥). ويعود الرسولي إلى كلمات بولس: "لأنه بإنسانٍ واحد قد ساد الموت على البشر"، سيادة الموت على البشر جاءت بحكم شريعة الله "يوم تأكل منها موتًا تموت"، وقد ذكرنا من قبل كيف انفلت البشر وتحولوا في مناحي الشـر، ولكن "بسـبب تأنس الكلمة الله، فقد حدثت إبادة للموت وتمت قيامة الحياة – كما يقول بولس لابس المسـيح: "فإنه إذ الموت بإنســان، بإنســان أيضًـــا قيامة الأموات" (راجع رو ٥: ١٢ وما بعده) هذه القيامة أتمها الله وهو الذي وهبنا إياها" (تجسد الكلمة ٩: ٥).

إذن، فداء الإنســان هو إبطال حكم الشــريعة، لأن الموت عجز عن أن يميت المســيح، فالموت، كما ســبق وكتبنا، لم يكن موت المخلِّص نفســه "فإن المخلص لم يأتِ لكي يتمم موته هو بل موت البشـــر ... ولكنه قَبِلَ ذلك الموت الذي أتاه من البشـــر لكي يبيد ذلك الموت تمامًا عندما يلتقي به في جســـده" (تجسد الكلمة ٢٢: ٣).

(١) لا توجد كلمة "طبيعة" كما وردت في ترجمة د. جوزيف فلتس ص ٦٠: "وبحسب طبيعة أجسادنا المائتة تنحل في الوقت الذي حدده الله".

الموت أُبيد بقوة المخلص

يكتب أثناسيوس بأسلوب حَلَقي Circular إذ يبدأ بحلقةٍ محددة، ثم يضيف إليها حلقات أخرى تؤكد ما جاء في الحلقة الأولى.

موت الرب على الصليب يمهِّد له حلقات الفصول ٥ – ٧، وتبدأ الحلقات الأخرى لشرح التجسد وموت الرب على الصليب لكي يصل في الفصل ٢٦ إلى حلقة أخرى، وهي: "الجسد قد مات ليس بسبب أي ضعف في طبيعة الكلمة الذي اتحد بالجسد، بل لكي يُباد الموت فيه بقوة المخلص" (تجسد الكلمة ٢٦: ٦).

وحقًا جاءت تسبحة البصخة: "لك القوة والمجد والبركة إلى الأبد ..." تؤكد التسليم الكنسي الذي حفظ لنا قوة رب المجد في قبوله الموت.

إبادة الموت بقوة المخلص

في الفصل ٤٢ يدعِّم أثناسيوس شرحه: "المخلص هو الحياة، فقد انتظر أن يأتيه الموت ليُبيده ... لأنه لم يأتِ لكي يتمم موته هو، بل موت البشر ... قَبِلَ في الجسد ذلك الموت الذي أتاه من البشر لكي يُبيد ذلك الموت تمامًا عندما يلتقي به في جسده".

ويكمل الرسولي الشرح:

"الرب كان مهتمًا بصفة خاصة بقيامة الجسد التي كان مزمعًا أن يتممها، إذ أنها دليلٌ أمام الجميع على انتصاره على الموت، ولكي يؤكد للكل أنه أزال الفساد، وأنه منح أجسادهم عدم الفساد" (تجسد الكلمة ٤٢: ٢).

"أمات الموت ..." (تجسد الكلمة ٣٠: ٢)، كان الموت في داخلنا، ولذلك كان من الضروري ليس فقط إبادته في جسد المسيح، بل إبادته فينا نحن.

ولعلنا نلاحظ أن الرسولي فنانٌ يرسم الحقائق بالكلمات، وبكل دقة ممكنة لا يغيِّر كلماته الأساسية، وإنما يضيف إليها ما يشرح ما سبق.

يتضح لنا مما تقدم أن كلمة الوراثة لا تظهر بالمرة في كتاب تجسُّد الكلمة. أما الكلمات التي استخدمها أثناسيوس، فهي:

أولا: انتشار الموت والفساد؛ لأن نعمة مماثلة الصورة الإلهية نُزِعت من الإنسانية (تجسد الكلمة ٧: ٤).

ثانيًا: جاء الموتُ بحكم إلهي (تجسد الكلمة ٤: ٤)، ولا يمكن أن يُبطَل الحكم لأن الله صادق (تجسد الكلمة ٦: ٣)، ومن غير اللائق أن الله بعد ما تكلم بشيءٍ مرةً يتضح أنه كاذبٌ (تجسد الكلمة ٧: ١)، والتوبةُ تعجز عن حفظ أمانة الله (تجسد الكلمة ٧: ٣).

ثالثًا: لم يكتب أثناسيوس كلمة "العدل"، أو ما يمكن أن يكون قريبًا من الفعل أو الاسم، بل كان أثناسيوس يرى أن "من غير اللائق أن تهلك الخليقة" (تجسد الكلمة ٦: ٣).

رابعًا: أن الله منح الإنسانية "بنعمة الكلمة أن تعيش حسب الله κατα θεον ζήν ήμιν، أي حسب الصورة الإلهية" (تجسد الكلمة ٥: ١).

مشكلة الإنسان

لا يرى أثناسيوس أن مشكلة الإنسان مشكلةٌ خاصةٌ بالإنسان وحده، أو خاصة بالله وحده، بل هي خاصة بالله والإنسان معًا بسبب عطية الصورة، وبسبب أن غاية خلق الإنسان هي شركته في الحياة الإلهية، وأن يتبع الإنسانُ الكلمةَ تبعية الظل للنور (تجسد الكلمة ٣: ٣).

لكن تحوَّل البشر وخضعوا للموت (تجسد الكلمة ٨: ٤)، فعادوا إلى

الفساد. والفساد هو الطبيعة التي خُلِقَ منها الإنسان، وهي العدم. وتُوصَف هذه الطبيعة بأنها الفساد لأنها تنحل، والانحلال هو تفكُّك البنية الإنسانية، وهو الموت. وعندما يميِّز الرسولي بين الفساد الطبيعي (الموت)، وفساد الموت، يقرر أن الثاني (فساد الموت) جاء مع الخطية. الأول هو "فاسدين بالطبيعة" (تجسد الكلمة ٥: ١)، لأن الإنسان خُلِقَ من العدم، فهو فانٍ (تجسد الكلمة ٤: ٦)، فالفناء الطبيعي هو موت الإنسان "الإنسان فانٍ بالطبيعة، لأنه خُلِقَ من العدم، إلَّا أنه بسبب خلقته على صورة مَن هو كائنٌ، أي الله كان ممكنًا أن يقاوم (أو يكسر حدة) قوة الفناء الطبيعي ويبقى في عدم فساد" (تجسد الكلمة ٤: ٦).

ومرةً ثانيةً، لا توجد أي إشارة إلى ما فرضَه البعض توهُّمًا على فكر أثناسيوس، نقصد "السقوط"، و"العدل الإلهي".

الولادة بلا خطية

في المقالة الثالثة ضد الآريوسيين، وابتداءً من الفقرة ٣٣ نرى أن أُلوهية الرب يسوع هي استعلان إعادة تكوين الإنسان، هذه المرة ليس من العدم كما في الخلق الأول، بل "يُخلق من جديد" هذه المرة، في المسيح. فقد **قَبِل الرب خواص الجسد الإنساني (فقرة ٣٢) لكي يكون لهذا الجسد كل خواص الكلمة**، أي تألُّه الناسوت، لأن "كل ضعفات الجسد قد انتقلت إلى الكلمة، ونحن نقوم من الأرض، إذ أن لعنة الخطية قد أُبطِلَت بسبب ذلك الكائن فينا والذي قد صار لعنةً لأجلنا. وكما أننا نحن جميعًا من الأرض وفي آدم نموت، هكذا نحن إذ نولد من فوق من الماء والروح، فإننا في المسيح نُحيا جميعًا. **فلا يعود الجسد فيما بعد أرضيًّا، بل يصير إلهيًّا كالكلمة، وذلك بسبب كلمة الله الذي لأجلنا صار جسدًا**" (ضد الآريوسيين ٣: ٣٣).

بداية هذا التكوين الجديد

جاء الكلمة وتجسَّـــد "لكي ينقل بداية تكويننا إلى ذاته، ولكي لا نرجع فيما بعد كمجرد تراب إلى التراب" (ضـــد الأريوســـيين ٣: ٣٣). هذه هي أحد أساسات التدبير. ويتابع القديس أثناسيوس: "ولكن بنسجنا / بتضفيرنا Knit بالكلمة الذي من السماء، سيحملنا هو إلى السماء". مشابهتنا لجسد الكلمة هي نقل ملامح صاحب الصورة إلى الصورة التي تشوَّهت كما جاء في الفصل ١٤ من كتاب تجسد الكلمة.

ما كتبه أثناسيوس في الفقرة التالية جديرٌ بأن يُنقَش ويُعلَّق داخل كنائسنا: "**لأننا لم نعد نموت بحســـب بدايتنا الأولى في آدم، بل لأن بدايتنا وكل ضـــعفات الجســـد قد انتقلت إلى الكلمة، فنحن نقوم من الأرض**، إذ أن لعنة الخطية قد أُبطلت بســـبب ذاك الذي هو كائنٌ فينا، والذي حمل اللعنة لأجلنا، وكما أننا نحن جميعًا من الأرض وفي آدم نموت، هكذا نحن نولد من فوق من الماء والروح لكي نحيا جميعًا في المسيح ... " (ضد الأريوسيين٣: ٣٣).

وعند ذِكر المعمودية والارتباط الوثيق بالكلمة، يغيب تمامًا موضـــوع وراثة الخطية. وقد أكَّد هو نفســـه ذلك عندما ذكر أمثلةً لكثيرين تقدَّســـوا وتطهَّروا من الخطية مثل أرميا الذي تقدَّس من الرحم ويوحنا المعمدان، فقال: "لأنه لو كانت أعمال ألوهية الكلمة لم تتم في الجسد لتعذَّرَ تألُّه الإنسان. وأيضًا لو أن ضعفات الجسد لم يأخذها الكلمة، لتعذَّرَ تحرر الإنسان منها تمامًا" (ضد الأريوسيين ٣: ٣٣). ولو كانت الضـــعفات قد توقفت في فترة ما –كما كتبتُ ســـابقًا– لظلت الخطية وظل الفســـاد باقيان في الإنســـان كما كان الحال مع الجنس البشـــري قبل التجسد" (ضد الأريوسيين ٣: ٣٣).

وعندما تكلم أثناســـيوس عن أرميا الذي تقدَّس من الرحم (أرميا ١: ٥) ويوحنا الذي عندما كان جنينًا في البطن ارتكض بابتهاجٍ عند سماع صـــوت والدة الإله

(لو ١: ٤٤)، كأمثلةٍ على الكثيرين الذين تقدسوا وتطهروا (المرجع السابق)، فقد قدَّم قطعةً لاهوتيةً بارعة، إذ استخدم الرسولي التاريخ نفسه ليؤكد صدق التعليم.

المنظومة اللاهوتية لكنيسة الإسكندرية كما عبَّر عنها ق. أثناسيوس

في المقالة الثانية في الرد على الأريوسيين، يكتب المعلم العظيم شرحًا موجزًا لكلمات الرسول بولس في أفسس ١: ٣، فيقول: "وكيف اختارنا قبل أن نُخلق، **إن لم نكن ممثَّلين فيه**، كما قال هو؟ وعمومًا، **كيف سبق فعيَّننا للتبني قبل أن يخلق البشر إن لم يكن الابن نفسه قد تأسَّس قبل الدهور**، آخذًا على عاتقه تدبير خلاصنا، أو كيف يضيف الرسول قائلًا: "نلنا نصيبًا معيَّنين سابقًا" (أف ١: ١١)، لو لم يكن الرب نفسه قد **تأسَّس قبل الدهور** حتى يأخذ الرب على ذاته التدبير الذي لأجلنا؟ أو كيف كما يقول الرسول "**إن لنا ميراثًا لأننا عُيِّنّا**"، ولكن لأن الرب نفسه قد تأسس قبل (خلق) العالم إلَّا لأنه كان له قصد –لأجلنا– أن يأخذ على عاتقه بالجسد كل ميراث الحكم لكي ننال ميراث التبني فيه" (ضد الآريوسيين ٢: ٧٦).

قبل خلق العالم

ويتابع القديس أثناسيوس: "كيف حصلنا على النعمة "قبل الأزمنة الأزلية"، بينما لم نكن قد خلقنا في الزمان، لو أن النعمة التي وصلت إلينا لم تكن في المسيح" (ضد الأريوسيين ٢: ٧٦).

إذن، هذا التدبير الأزلي:

١– لم يكن حسب سقوط الإنسان، لأنه لم يكن قد وُجِد. وبعد أن وُجِد لم يكن وجوده هو الذي أسَّس النعمة، لأنها كانت في المسيح، فهو صورة الله الكائن في الآب والذي خلق الإنسان حسب صورته.

٢– لم يكن سقوط الإنسان هو سبب تجسُّد الابن، بل كان التجسد

معروفًا في التدبير الإلهي، ولذلك نحن معيَّنون قبل خلق العالم لأننا أخذنا التبني من الله الآب كعطية تُعطى لنا في الابن، وتعود هذه العطية إلى أقنوم الابن ذاته لا إلى الإنسان.

عودة إلى تجسد الكلمة

١- ذكر القديس أثناسيوس أن "ظهور المخلص بيننا يستدعي الحديث عن خلق البشر" (٤: ١)، وقبل القفز والعودة إلى دائرة العصر الوسيط، والبقاء في دائرة فهم التدبير علينا أن نتابع "خلق الله الإنسان وكان **قصده أن يبقى في غير فساد**" (١: ٤). فخلق الإنسان استدعى محبة البشر، لأن القصد من خلقه لم يصل إلى هدفه، فقد وَهَبَ الإنسان حياةً إلهيةً وهي صورة اللوغوس الابن (٥: ١)، وكان الكلمة يسكن في الإنسان (٥: ٢). وعندما -بغواية الشيطان- سقط، كان هو الذي ترك الله خالقه.

٢- لم يقرأ الآباء أثناسيوس وكيرلس العهد القديم مثل قراءة العصر الوسيط وعصر حركة الإصلاح، أي باعتباره تاريخًا يفرض نفسه على العهد الجديد، الأمر الذي يعني أن الخلقة القديمة هي التي تشرح الخلقة الجديدة، ولذلك لا مكان لسقوط آدم، بل المكان الحقيقي هو آدم الجديد، وأصبح الجديد هو الذي يفسر القديم.

الخلاصة

الخطية ممارسة بالإرادة والفكر واستخدام الخيال. الخطية قرار شخصي لا يورَّث. وهي تنتشر بين البشر بالممارسة. وعمومية الخطية عند الرسولي لا دخل لها بالوراثة، وإلَّا كيف أفلت يوحنا المعمدان، ومن قبله أرميا النبي من حكم الوراثة؟

تنطق فصول كتاب تجسد الكلمة بعمومية الخطية وانتشارها بين البشر "لأن البشر حوَّلوا وجوههم عن الأمور الأبدية، بمشورة الشيطان إلى أعمال الفساد الطبيعي وصاروا هم أنفسهم سبب ما حدث لهم من فساد الموت" (تجسد الكلمة ٥: ١).

الفصل الخامس

القديس كيرلس الأورشليمي

٣١٤ – ٣٨٧

وهو معاصرٌ للقديس أثناسيوس الرسولي. وتُعتبر عظاته للموعوظين أحد المصادر الأساسية لفهم الليتورجيا والإيمان في القرن الرابع. ما يجب أن ننتبه إليه هو أنه لا يجب أن نقرأ أوغسطينوس في عظات كيرلس الأورشليمي، بل بولس الرسول نفسه.

في العظة ١٣: ٢ يقول: "لا تتعجب من أن العالم كله قد افتُدي لأن الفادي لم يكن مجرد إنسان، بل الابن الوحيد الذي مات من أجل العالم". وهنا يظهر بولس الرسول: "خطية إنسان واحد، آدم، استطاعت أن تجيء بالموت للعالم. فإذا كان بعصيان إنسان واحد ملك الموت على العالم، فكيف لا يكون مُلك الحياة بالحري يملك بحق الواحد (رو ٥: ١٨) [لاحظ أن لفظة "البر" وهي كلمة قرآنية غير لفظة "الحق" في الترجمة القبطية **ⲟⲩⲁⲓ ⲡⲉ ⲉϫⲉⲛ ⲣⲱⲙⲓ ⲛⲓⲃⲉⲛ ⲉⲩⲑⲁⲓⲟ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡ̀ⲱⲛϧ**] في آدم طُردنا من الفردوس بسبب الشجرة التي أكلنا منها، أليس من السهل على المؤمنين أن يعودوا إلى الفردوس بواسطة شجرة يسوع؟".

والإشارة إلى الجرح الذي أصاب الإنسانية (٢: ٥) جعل طبعنا ميالًا

للخطية، ولكن الوراثة لم ترد بالمرة، لا سيما عندما يشرح مغفرة الخطايا في المعمودية؛ لأن المعمودية تغفر الخطايا ولكن لا توجد خطية في الأطفال (٣: ١٢ – ١٧: ٣٧)، والمعمودية هي ثباتٌ لهم في الكنيسة.

الفصل السادس

القديس باسيليوس الكبير
٣٣٠ – ٣٧٩

هو واحد من عشرة أخوة، والأخ الأصغر من باسيليوس هو غريغوريوس النيسي. شرح أيام الخليقة الستة الأولى، ولم يذكر وراثة الخطية مطلقًا. وذكر خلق الإنسان على صورة الله، وأن الآب كان يتكلم بصيغة الجمع: "نخلق الإنسان على صورتنا" ردًا على ادعاء اليهود (٩: ٦).

في العظة على المزمور ٤٨ يذكر: "البشر عظماء، وحتى الإنسان البائس لازال مكرمًا (أمثال ٢٠: ٦)، لأن الكرامة قد أُعطيت لطبيعته. هل توجد خلائق أخرى على الأرض خُلِقَت على صورة الله؟ ... البشر قد خُلِقوا أقل من رتبة الملائكة لأنهم مُتَّحدون بأجسادٍ ترابية. وحقًّا خلق الله البشر من تراب وقال: "خدامه لهيب من نار" (عب ١: ٧)، ولكن يبقى أن لهم قوة الفهم التي تجعل البشر يعترفون بخالقهم وصانعهم. "ونفخ في أنفه" (تك ٢: ٧)، أي أن الله وضع في البشر نوعًا من الشركة في نعمته حتى يعترفون بالتشبُّه بالله من خلال الشبه الذي نالوه" (فقرة ٨).

وفي رسالته رقم ٢٣٣: ١ يؤكد أن صورة الله هي في "العقل القدرة الفائقة التي جعلتنا صورة خالقنا. والتشبُّه بالله خالقنا على قدر ما تستطيع الطبيعة الإنسانية" (مقالة عن الروح القدس ١: ٢).

العقل الإنساني

"ما أجمل حركة العقل لأنه دائم الحركة، يكوِّن دائمًا صـــورًا لأشـــياء لا وجود لها كما لو كانت موجودة، ودائمًا ما يسير نحو الحق. ولكن يوجد في العقل مَلَكتين حسب ما هو معروفٌ عندنا نحن الذين نؤمن بالله، مَلَكة شريرة في العقل هي من الأرواح الشريرة التي تجذبنا أن نصبح مثلهم في تمردهم على الله. أما المَلَكة الثانية فهي إلهية وصالحة، وهي التي تقودنا إلى التشبُّه بالله. وإذا انفرد العقل، ظل قادرًا على قياس الأشـــياء الصـــغيرة. أما إذا انخدع، فإنه يفقد قدرته على التمييز ويتعلق بخيالات لا وجود لها حتى أنه يتخيل الخشـــب إلهًا وهو ليس إلهًا لأن الخشب يظل خشبًا، ولا يرى في الذهب والفضة أنها نقود، بل آلهة يجب السجود لها ... وعندما يخترق الروح العقل بألوهيته يصـــبح العقل قادرًا عل تذوق جمال ما هو كائن ... أما إذا قادت الأرواح الشـــريرة العقل فهو يســـقط في عبادة الأوثان" (رسالة ٢٣٣: ١ – ٢).

الشـــر والخطية هو ســـيادة مَلَكة من مَلَكات العقل وليس وراثيًّا، لأنه في نفس العظة على مزمور ٤٨ يؤكد أن تحول الإنسان عن الله يعود إلى "فشل البشر في الســـمو نحو ما هو نبيل، وفشـــلهم في فهم أنه لا يجب أن يهملوا في اتباع الله، وأن يصـبحوا مثل خالقهم. وأصـبحوا عبيد لذَّات الجسـد حتى أنه يمكن مقارنتهم بالحيوانات التي لا حسَّ لها وصار بعضهم مثل حصانٍ يصهل على زوجة صديقه (أر ٥: ٨)" (عظة على مزمور ٤٨).

في ردِّه على أتباع ماني الذين نشـــروا الادعاء بأن للشـــر إلهٌ هو الذي خلق الشـــر يقول: "كان هناك زمانٌ عندما كان لآدم حياة سمائية بغض النظر عن المكان (الفردوس)، لأن إرادته كانت متجهة نحو الله، والســـبب في ذلك هو أنه كان يحيا بنســـمة الحياة التي جعلته قادرًا على أن يفحص الســـماء، وأحب آدم الله الذي خلقه ووضعه في الفردوس، وعاش في صحبة الملائكة. ولأن الله كان هو الذي يصونه، تمتع آدم بكل خيرات الله. وكما لو كان قد شـــبع من الســـعادة التي أغثرته بالجمال الذي

كان يستهوي عينيه الجسدية بما كان يراه إلى التحول لرؤية أمور ترابية. فطُرِد من الفردوس ونُزِعت منه الحياة الطوباوية وصار شريرًا وصارت حياته مهددة بالموت، لأن الله حياة والموت هو حرمان من الله" (الله ليس خالق الشر: ٦).

لا وجود بالمرة لفكرة وراثة الخطية، وهي فكرة مانوية، بل هو تحول الإنسان وابتعاده عن الله (راجع مقال عن الروح القدس ٢٦: ٦١).

الفصل السابع

القديس غريغوريوس اللاهوتي
(٣٢٩ -+ ٣٩٠)

دُعيَ الناطق بالإلهيات بسبب موهبة الشعر والقدرة الفائقة على استخدام اللغة اليونانية. كان محبًّا للاعتكاف ولكن القديس باسيليوس استطاع أن يقنعه بالسيامة، فسامه أسقفًا على سازيما، وكانت قرية صغيرة، ولم يدخلها كأسقفٍ.

دُعيَ إلى مجمع Seleucia في عام ٣٧٩ حيث ألقى عدة عظات بليغة. حضر مجمع ٣٨١ الذي أكد ألوهية الروح القدس، ولكنه ترك الأسقفية وعاد إلى حياة التوحد، وترك لنا عدة عظات وأشعار فخمة وبعضًا من الرسائل. وتُعد العظات (٢٧ – ٣١) ضمن ٤٥ عظة من أهم العظات اللاهوتية التي ألقيت في القسطنطينية في عام ٣٨٠.

وكان أستاذنا توماس تورانس يدعوه بالأسد نظرًا لشدة جرأته في اقتحام دائرة التعليم النيقاوي.

في العظة ٣٨ يقول النزينزي: "تصوَّر الله الكائنات السماوية والقوات الملائكية، وهذا التصوُّر صار عمل كلمته الذي أكمل (الخليقة) بروحه".

ويقول: "إن الله الخالق الذي خلق الأبوين، خلقهما دون أن يكون لهما

القدرة على التحرك تجاه الشر، بل بقدرة التحرك نحو الخير، أي الله ذاته ... وعند آدم وحواء، إنني مضطر أن أختصر الكلام وأن أعبر وأقول إنهما كانا يجدان صعوبةً في الاتجاه نحو الشر أو الخير ...ولكن جاء خداع لوسيفر الذي كان ولا يزال هو "الظلمة" التي جاءت مع الكبرياء ومعه القوات الساقطة المرتدة والخاضعة له، صانعو الشر بالتمرد على الخير وبأن يصبح (الكل) من الذين يجربوننا" (العظة ٣٨: ٩ – ١١).

والفقرات المختارة من هذه العظة تهمنا لفهم تاريخ العقيدة:

"أعطى الله الكينونة للعالم الروحي، وحسبما أستطيع التعبير عن هذه الموضوعات وأشرح هذه الموضوعات العظيمة بفقر اللغة. وعندما اكتمل العالم الروحي وكانت الخليقة جيدة، وبرأ الله خليقته وعالمًا جديدًا ماديًّا ومنظورًا، مكون مما هو أرضي وما هو سماوي ...".

"والآن، الكلمة الخالق الذي قرر أن يعلن قوته، فخلق من الاثنين كائنًا واحدًا أعني المرئي وغير المرئي في الخلقتين. فخلق الجسد من مادة كائنة ووضع فيه نسمته، ولما كانت النسمة فيه صار الإنسان نفسًا عاقلة، وهي صورة الله، وهي على نحوٍ ما من العالم الثاني (الروحي) ووضع الإنسان العظيم ليس في حجمه الضئيل، على الأرض، ملاكًا جديدًا ومن طبيعة ثنائية (سماوية وترابية) لكي يخدم (يعبد) مع كل الكائنات الأخرى التي لها طبيعة مزدوجة، لأن الإنسان جُمع مع الخليقة المنظورة في حدوده، فصار الملك على الكل ترابيًّا وسماويًّا معًا، زمانيٌّ إلَّا أنه خالدٌ ... فيه الروح والجسد اتحدا فصارا واحدًا، روحًا بسبب النعمة التي وُهِبت له، وجسدًا بسبب المكانة العالية التي رُفِعَ الإنسان إليها ... كائنًا حيًّا سوف ينتقل إلى حياةٍ أخرى لكي يكمل سر خلقه، يتأله بسبب انعطافه نحو الله" (راجع الآباء اليونانيين ٣٦: ٣٢٠).

ومن العظات الرائعة، له عظة في عيد القيامة، حيث قال:

"بالأمس كنت مصلوبًا معه. اليوم تمجَّدتُ معه. بالأمس متُّ معه. اليوم قمتُ معه. بالأمس دُفنتُ معه. اليوم أقوم معه. ولكن لنتقدم لمن تألم وقام لأجلنا. هل تظنون أنني كنت سأقول ذهبًا أو فضةً أو قماشًا منسوجًا ... علينا أن نقدم ذواتنا وهي أثمن ما نملك وما يليق تقدمته، علينا أن نعيد الصورة التي عليها خُلقنا. علينا أن نرى كرامتنا وأن نكرم أصلنا our archetype وأن نكرم قوة السر لمن لأجله مات المسيح" (١: ٤).

الخلق وتحوُّل آدم وحواء عن الحياة الإلهية

في المقالة ٣٨ يشرح القديس غريغوريوس خلق الإنسان وتحوُّله عن الحياة الإلهية: "وضع الله هذين المخلوقين في الفردوس، أيًّا ما كان هذا الفردوس. وأكرم الله هذين بحرية الإرادة لكي يصبح الله مَلكًا لهما بحريةٍ اختارها كلٌّ منهما ... وفي الفردوس كان عليهما الاهتمام بزراعة الشجر الذي يعطي عدم الموت، وهو ربما التأمل في المعاني اللاهوتية النقية الواضحة وغير المعقدة لأنها تامة. وكانا عراةً أنقياء يعيشان حياةً بسيطة لا تحتاج إلى لباس أو غطاء. كانت هذه هي البداية السعيدة. وأعطاهما الله شريعةً تمس حياتهما وحرية الإرادة عندهما. وكانت الشريعة هي وصيته: ما هي الأشجار التي يجب الأكل منها ويمسها. وكانت الشريعة خاصة بشجرة المعرفة ليس لأنها شر عندما غُرِسَت في البدء ولم تُمنع لأن الله ليس لديه سوء نية ... وعلى أعداء الله أن لا يشنُّوا حربًا بألسنتهم بخصوص شجرة المعرفة ويقلدون الحية ... لأنه كان من الأفضل الأكل من شجرة المعرفة في الوقت المناسب لأن الشجرة –حسبما أفهم وأتأمل– هي التأمُّل لدى الذين نضجوا في ممارسة التأمل. والشجرة ليست جيدة بالنسبة إلى الذين من السذاجة والسلوك بطمعٍ، متعلِّمًا أن الطعام المطبوخ ضارٌ بالنسبة للأطفال الصغار الذين يحتاجون إلى اللبن. ولكن بحسد إبليس ورغبة المرأة في الاهتمام والفرح بالمظاهر انخدعت بما هو سهل ولذيذ وقادت معها الرجل لأنها، أي المرأة كان من السهل خداعها alas يا ضعفي لأن ضعف أبي الأول (آدم) هو ضعفي، لأنه نسى الوصية التي

أُعطيت له وانحاز إلى الأكل من ثمرة لم يعرفها من قبل وبسبب خطيته طُرِدَ حتى لا يأكل من شجرة الحياة، بل طُرد من الفردوس نفسه ومن الله، وصنع أقمصةً من جلد، وهي ربما نماذج عقلية لاستخدام الجسد وهي نماذج سلوكية للموت ومتناقضة. وهذا أول ما عرفه عندما عرف خجله واختبأ من الله".

والفقرة التالية هامة جدًا، إذ قال غريغوريوس النزينزي عن تحول الإنسان إلى ما هو مائت، إن "آدم كسب لنفسه الموت والانقطاع عن الخطية حتى لا يصبح خالدًا (فينا). وصارت عقوبته رحمةً لأنني بالرحمة حُبِل بي، وهكذا أعتقد أن الله يُعاقِب" (راجع مجلد ٣٦: ٣٢٤).

أعترف بأنني تعبت في الترجمة لأن أسلوب الشاعر العظيم غريغوريوس أسلوبٌ فخم يحتوي أحيانا على انتقالٍ مفاجئ غير مألوف لأن الفقرة الأخيرة "كيف كانت عقوبة آدم رحمةً من الله حتى لا تصبح الخطية أبدية"، مما جعل الشاعر يقول: "إنني بالرحمة حُبِلَ بي" وهي التحول الشعري من نص المزمور "بالخطية حُبِلَ بي" إلى التأمل بأن الموت كان رحمةً حتى لا يخلد الموت فينا.

ماذا عن خطية آدم؟

العبارات العامة عند غريغوريوس: "لقد خُدعنا لأننا كنا في دائرة حسد الشرير" (٤٥: ٢٨). ولعلنا ندرك مما سبق أن قلب حسد إبليس لنا هو أننا تعلمنا عدم الصبر ولم يكن لدينا النضوج العقلي الذي يؤهلنا لعدم الموت، فالخطية هي عدم نضوج الإنسان بكفاية تجعله قادرًا على التأمل في الله والبقاء في شركة عدم الموت.

يواجه القديس غريغوريوس تأويل أعداء الله من المانويين مؤكدًا عدم شر شجرة المعرفة، وفي نفس الوقت مقاومة الشعور بالذنب السائد في مدرسة ماني، ولكنه يعلن كيف سقطنا في آدم لأن الجنس البشري وحدة واحدة، وهي فكرة واضحة جدًا (١٦: ١٢ – ١٩: ١٤ – ٢٢: ٢٣ – ٣٣: ٩ – ٣٨: ١٢).

هل كانت خطية آدم هي شهوة الألوهة؟

كان البابا شـــنودة الثالث هو الذي ســـجَّل هذه الفكرة دون مرجعية آبائية، وحسب تصوُّر البابا شنودة نفسه، ومن حق كل مسيحي أن يشرح فهمه، ولكن شرح البابا شنودة تجاوَز نقطتين:

الأولى: عدم الرجوع إلى الآباء، وبالذات الذين شـرحوا مكونات الصـورة الإلهية للإنسان.

الثانية: اعتبار كل مَن يخالف شرحه هرطوقي.

وعلى هذا المنهج سار "حماة الأنبا شنودة الثالث"، لا حماة الإيمان.

فماذا كتب القديس غريغوريوس نفسه عن هذا الأمر؟

في الفقرة التالية، بعد أن شـــرح ألقاب المســـيح في المقالة ٣٠ وهي عن ألوهية الرب يســـوع وأكَّد وحدة جوهر الآب والابن: "ســـيروا به والذين لهم ميزة الحياة الإلهية وهي ارتباطهم الذي يخصهم أو بالحري حسب ما يخص الحياة الإلهية لكي تصـــبحوا آلهةً صـــاعدين إليه لأجل الذي تنازل من فوق (الســـماء) وجاء لأجلنا" (٣٠: ١).

وحسـب دراسـة محتويات مجلد المصـطلحات اليونانية عند الآباء يظهر أن القديس غريغوريوس كان هو أول من اســـتخدم الكلمة اليونانية Theosis ومن المقالات اللاهوتية يمكننا أن نكتب:

١- التألُّه هو نموٌّ مطرد له جذوره في الصـــورة الإلهية، وهي نعمة الله التي وُهِبَت للخليقة.

٢- التألُّه هو نموٌّ مطرد في المسـيح يسـوع حقَّقه الرب بتجسـده وآلامه

وموته وقيامته، وأكمله بعطية الروح القدس، وهو ما يُوهَب في سـر المعمودية، ويُعطي لكل فرد ويكمل العطاء في الحياة الآتية.

٣- أحيانًا يضع حياة الوحدة على أنها صعود بالاتحاد، وبما يمكن ترجمته عربيًّا بالتناغم مع الله Collaboration أو الصعود إلى الله وتألُّه الإنسان (٣٠: ١).

بعد أن صدرت الطبعة العربية لرسالة الدكتوراه للأب نورمان راسل[١] أصبح من سخف القول أن نقول إن تألُّه الإنسان كان هو شهوة الألوهة، وهذه الشهوة كانت هي سقوط آدم. وبدون أن ندخل في تفاصيل قد يشعر القارئ أنها مملة، فإن القول بأن السقوط هو شهوة الألوهة هو مجرد ادعاء، لأن التألُّه هو تجديد الإنسان وردَّه إلى ما كان عليه قبل الخطية، وهي حياة -عند كل الآباء، لاسيما غريغوريوس اللاهوتي- كانت إلهيةً، وهي تأمل ما هو سمائي، وقد عبَّر عنها قداس القديس غريغوريوس: "أعطيتني علم معرفتك — وضعت فيَّ موهبة التعقل أو النطق"، وربما من الأفضل لنا أجمعين غلق هذا الملف، والعودة إلى دراسة نورمان راسل.

(١) التألُّه في التقليد الآبائي، ترجمة ما يكل رأفت شهدي، وآخرين، مركز أبيفانيا للنشر والتوزيع، القاهرة، دون تاريخ.

الفصل الثامن

القديس غريغوريوس النيصي
٣٣٠ – ٣٩٥

هو الأخ الشقيق والأصغر للقديس باسيليوس. أُقيم أسقفًا على Nyssa وطرده مجمع الأريوسيين حيث كان الإمبراطور الأريوسي فالنس Valens يدعِّم كل تحركات الأريوسيين، ولكنه عاد إلى نيصا بعد وفاة فالنس وحضر المجمع المسكوني الثاني ٣٨١ واشترك مع غريغوريوس الثيؤلوغوس في محاربة الأريوسية إلى أن رقد في ٣٩٥.

يُعدُّ من أخلص تلاميذ العلَّامة أوريجينوس. وكتب شرحه في التعليم الكبير للموعوظين على غرار نظام العلَّامة أوريجينوس في كتابه "المبادئ"، وقسَّم كتابه إلى: (الفصول من ١ – ٤ شرح التعليم عن الله الواحد والثالوث)، (الفصول من ٥– ٧ خلق الإنسان وأصل الشر)، (الفصول من ٨ – ٣٢ يشرح تجديد الإنسان، والتجسد والصلب والقيامة)، (الفصول من ٣٣ – ٤٠ شرح المعمودية والإفخارستيا والإيمان والتوبة).

وعاد النيصي إلى موضوع خلق الإنسان في عام ٣٧٩ لكي يكمل شرح باسيليوس للأيام الستة حيث شرح قيامة الإنسان.

خلق الإنسان على صورة الله

مثل القديس أثناسيوس، يؤكد غريغوريوس النيصي على أن الإنسان خُلِقَ لكي يشترك في اللوغوس Logos وقد شرح هذا في الفصل الخامس. ولاحظ علماء الآباء تأثير الفلسفة اليونانية وبالذات الأفلاطونية التي جعلت النيصي يكتب أن الإنسان الأول كان بلا جسد انقسم إلى ذكر وأنثى (خلق الإنسان فقرة ١٦ — ٧ – ٨). ورغم ذلك عاد النيصي إلى قصة الخلق في سفر التكوين، وهي خلق الإنسان على صورة الله ومثاله، ولم يفرِّق بين الصورة والمثال، وذلك لأن المثال مثل الصورة، فالصورة هي تكوين الإنسان حرًّا لكي ينمو تكوينه الواعد إلى المثال، في شرحٍ مطوَّلٍ عن خلق الإنسان سوف نقدمه للقارئ في أجزاء:

أولًا: ألوهية الله الكلمة

"مَن أراد أن يدعوه الكلمة أو الحكمة أو القوة أو الله، أو أي لقب مجيد، فليس لنا جدل معه ... فهو الله الكلمة والحكمة والقوة التي خلقت الطبيعة الإنسانية. ولم يكن الخلق خاضعًا لضرورةٍ، وإنما من فيض المحبة خلق وصوَّر الإنسان. إذ لم يكن من الصواب أن يظل نور الإله غير معروف أو يبقى مجده غير مشهودٍ به، أو لا يتمتع أحدٌ بصلاحه ..."

ثانيًا: خُلق الإنسان لكي يتمتع بصلاح الله

"فإذا كان خلقُ الإنسان تم حسب غنى محبة الله وصلاحه لأن الإنسان كوِّن بهذا الشكل لكي يتناغم مع صلاح الله، فأُعطي أن يشترك في صلاح الله ... وحيث أن الإنسان خُلِقَ بعناصر تجعله قادرًا على أن يتمتع بصلاح الله، لذلك وُهِبَ الحياة والعقل والحكمة وسائر صلاح الله ... وحيث أن عدم الموت هي واحدة من صفات الألوهة الصالحة، فلم يكن من الصواب أن يُحرَم منها الإنسان ..." (التعليم الكبير، فقرة ٥).

ثالثًا: طبيعة الإنسان

"خلقة طبيعتنا مزدوجة، جانبٌ منها خُلِق ليكون مثل الله، والجانب الآخر مختلف لأننا ننقسم حسب تكويننا"، وهذا على نحوٍ ما غامض في الفقرة التي تخبرنا وتقول: أولًا: "خلق الله الجنس البشري في صورة الله خلقهم"، وبعدها تزيد إلى ما قيل: "ذكرًا وانثى خلقهم"، وهذا بالذات غريبٌ عما نعرفه من صفات الله".

وأضاف النيصي: "تقدم لنا الأسفار بهذه الكلمات (السابقة) تعليم عظيم وعقيدة سامية، والتعليم هو أنه لنا طبيعتين، الإلهية وغير المتجسدة والحياة العقلية الخاصة بالحيوانات، وكلتا الطبيعتين منفصلتين كلٌ عن الأخرى، وأحيانًا كلٌ عكس الأخرى، وبذلك يمكن أن تكون الطبيعة الإنسانية هي وسط بين الاثنين، ونستطيع أن نرى في كل طبيعة أولًا الإلهية العاقلة والتي لا يوجد فيها تمييز أو اختلاف بين الذكر والانثى. وثانيًا الطبيعة غير العاقلة الظاهرة في شكلها الجسداني والتي تسمح بالتقسيم إلى ذكر وانثى، وهذا نراه في كل البشر" (في خلق البشر: ١٦ — ٢ – ٥).

الله لم يخلق الشر

خُلِق الإنسان على صورة الله، ولذلك يكتب النيصي: "الحقيقة إن الحياة الإنسانية التي نراها الآن هي في حالة لا يمكن أن توصَف بأنها حقيقية وصالحة، وهو أمرٌ لا يمكن أن يكون برهانًا على أن الإنسان خُلِق في حالةٍ من عدم الصلاح. البشر هم عمل الله الذي خلق بصلاحه من العدم، ولذلك لا يستطيع أحدٌ أن يدَّعي أن الخالق خلق بشرًا أشرارًا لأن البشر خُلِقوا صالحين، لكن السبب في حالتنا الآن هو أننا حُرمنا من خواص كياننا نراه في سببٍ آخر ... الشر لا وجود له في الإرادة الإلهية ... ولكنه وُلِد من داخلنا **لأن الرذيلة هي غياب الفضيلة** والشر ليس له وجود، لأن الله لم يخلقه، بل هو منتج الإرادة الإنسانية" (التعليم الكبير: ٥).

فحرية الإرادة هي سبب ما آل إلينا من موت "لأنه بحرية الإرادة تعاملنا مع الشر وبسبب اللذة الحسيِّة خلطنا الشر بطبيعتنا مثل سُمٍّ مميت خُلِط بالعسل. وهكذا سقطنا من حالة القداسة لأننا كنا نظن أننا أحرارٌ من الشهوة ...".

باقي النص يعود إلى سفر التكوين ليشرح أصل الشر، وهو التعليم الذي قُدِّم بشكل معتم، وعليه غطاء يُلزِمنا بأن نراه في شكله المعتم لأنه يخبرنا بأن الإنسان الأول قد ارتكب ما هو ممنوع، وهنا يضع غريغوريوس النيصي لمسته الخاصة، وهي أقمصة الجلد، حيث يقول: "حسب اعتقادي يجب أن نأخذ تعبير (أقمصة الجلد) حرفيًّا. وما هو الحيوان الذي ذُبِح وسُلِخ لكي يغطي العريان؟ ولكن حيث أن كل جلد حيوان هو جلد ميت، أعتقد أن الجلد يعني صفة الموت ... الموت الذي أُخِذ من مخلوقٍ بلا عقل غطَّى الطبيعة التي خُلِقت لعدم الموت. وغطَّت شكله الخارجي ولكن لم تغطِّ حياته الداخلية، ولكنها حكمت الجانب العاقل في الإنسان ..." (التعليم الكبير: ٨).

هناك أبحاثٌ قام بها علماء الآباء من الكنيسة اليونانية، لا سيما البحث الشامل للأستاذ الراحل P. Nellas الذي أفرد فصلًا عن أقمصة الجلد عند النيصي على أنه تصوُّر لدخول الموت الذي يَرمُز له قميص الجلد، وبالتالي لا توجد وراثة خطية، بل وراثة موت.

الفصل التاسع

القديس يوحنا ذهبي الفم
٣٤٧ – ٤٠٧

يمثل القديس يوحنا ذهبي الفم التعليم الأنطاكي الأرثوذكسي. وكانت مؤلفاته شائعة ومعروفة.

عندما صاغ أوغسطينوس تعليمه بالخطية الأصلية، تمكن يوليانوس Felanam من جمع شذرات من يوحنا ذهبي الفم لكي يرد بها على أوغسطينوس، غير أن هذا الأمر فُهِم على أنه تأييد لتعليم بيلاجيوس، وهو غير صحيح.

أُلقيت العظات التسعة على سفر التكوين (باترولوجيا جريكا ٥٤: ٤٨١ – ٦٣٠) في أنطاكية . أكد فيها ما كان سائدًا، وهو أن صيغة الجمع: "لنعمل الإنسان" هي حديث الآب مع اللوغوس الكلمة (٨: ٨ – ٩).

شجرتان

خدعت الحيةُ المرأة، وخدعت المرأةُ آدم. وقارن ذهبي الفم بين شجرتين: "الشجرة الأولى قدَّمت الموت للعالم، والثانية أعطت لنا عدم الموت. الأولى كانت سبب طردنا من الفردوس، والثانية أعادتنا إلى السماء. الأولى بالتعدي حكمت على آدم الشقي بالتأديب المخيف، والثانية حررتنا من ثقل خطايا كثيرة وأعطتنا

الثقة في الله" (باترولوجيا جريكا ٥٤: ٥٤).

ولم يذكر ذهبي الفم تعليم أوغسطينوس الذي لم يكن معروفًا في كل الكنيسة الشرقية الناطقة باليونانية.

أما عن خطية آدم، فقد شرح ذهبي الفم ذلك في العظة الثانية للموعوظين، وهي مجموعة من ثماني عظات ذكر فيها بإسهاب ما حدث في الفردوس، وهو عدم استخدام حرية الإرادة بشكلٍ صحيح، وطُرِدَ آدم من الفردوس لكي يعمل ويتعب. ولا يقف ذهبي الفم عند ذلك، بل يقول: "الله الصالح لم يتركنا إلى الانقضاء، ولم يهمل الجنس البشري لكي يوضِّح للشيطان سوء عمله، وللإنسان كيف يهتم بهم كخالقهم. وأعطاهم الله بالموت الخلود. وها نحن نرى كيف استطاع الشيطان أن يجعل الجنس البشري يُطرد من الفردوس وكيف أعادهم الله إلى السماء. فصارت الهبة أعظم من العقوبة" (٢: ٣ – ٧).

فقدان آدم نعمة الخلود، شهادة ذهبي الفم

عاش ذهبي الفم في الفترة ما بين (٣٤٧ – ٤٠٧)، وهو أنطاكي خدم في هذه المدينة، وكانت لغتها الأصلية الآرامية إلى جوار اليونانية. وكانت صلات القرابة بالزواج أو المصاهرة تشمل يهودًا ومسيحيين كانوا أصلًا من اليهود. ومن العظات الست ضد المتهودين (نشرتها الجامعة الكاثوليكية بواشنطن) نعرف أن الأعياد كانت مشتركة، وهذا ما ضايق ذهبي الفم لدرجة جعلته يبدو كما لو كان ينادي بعداء السامية.

يمتاز ذهبي الفم بالأسلوب الجماهيري الواضح وبقدرته الواضحة على معالجة أدق المواضيع. تمتاز العظة الحادية عشرة على رسالة رومية بشرح مباشر للإصحاح الخامس (٥: ١٢ – إلخ):

(رو ٥: ١٢): كأنما بإنسانٍ واحدٍ دخلت الخطية وبالخطية الموت ...

كتب ذهبي الفم: "تمامًا كما بتصرف الأطباء الأكفاء الذين يفحصون دائمًا وبعمق جذور المرض، ويصلون إلى السبب المباشر لظهوره ...، فقد حاول أن يشرح كيف وبأي طريقة دخل الموت إلى العالم وساد علينا. فذكر أن هذا حدث بخطية الإنسان الواحد (أي آدم). وماذا يعني بقوله: "في شخصه اجتاز الموت إلى جميع الناس"؟ يعني أن الموت قد اجتاز إلى الجميع لأنه (أي آدم) سقط في الخطية **وأولئك الذين لم يأكلوا من الشجرة، جميعهم في شخصه صاروا مائتين**".

الأكل من الشجرة لم يذكره القداس الغريغوري بكل تفاصيل ما حدث في الإصحاح الثالث في سفر التكوين، بل جاء في عرض سبب الموت لأن الأكل لم يكن هو وحده سبب الموت، بل "تركت ناموسك عني برأيي. أنا اختطفت لي قضية الموت". ويؤكد هذا ما يذكره ذهبي الفم نفسه، وهو سبب قول الرسول بولس: "فإنه حتى الناموس (الشريعة) كانت الخطية في العالم على أن الخطية لا تُحسَب خطية إن لم يكن ناموس" (رو ٥: ١٣).

كانت الشريعة في العالم، ومع ذلك كانت الخطية في العالم، ويكتب ذهبي الفم: "إن البعض تصوروا أن زمن ما قبل الشريعة هو زمن هابيل وقايين وزمن نوح ... وحتى ولادة موسى، غير أنه لا بُد أن نسأل ما هي الخطية التي وجدت في ذلك الزمان؟ يقول البعض إن الرسول بولس يشير إلى الخطية التي حدثت في الفردوس، طالما أنها لم تكن قد بطلت بعد، بل أن ثمرها قد أينع، **حيث أن الخطية حملت الموت إلى الجميع**، وقد ساد الموت واستبد، لكن لأي سبب أضاف "على أن الخطية لا تُحسَب إن لم يكن ناموس"؟ لقد أضاف "على أن الخطية تُحسَب حسب الشريعة. فكيف لم تكن شريعة ومع ذلك كيف ساد الموت على جميع الذين عاشوا قبل الشريعة؟". وسؤال الرسول بولس: "كيف ساد الموت قبل إعطاء الشريعة؟ يجيب عليه بأن الموت ملك على شبه تعدي آدم، ولهذا فإن آدم هو مثال المسيح، لأنه كما أن أولئك الذين أتوا من آدم على الرغم

من أنهم لم يأكلوا من الشجرة، إلَّا أن الموت قد ملك عليهم لأن آدم صار سببًا للموت الذي دخل إلى العالم بسبب الأكل من الشجرة[1]".

يركز ذهبي الفم على كلمة **الواحد** في هذا الإصحاح: آدم واحد، والمسيح واحد، والأكل من الشجرة كان سبب الموت، وملك الموت من **الواحد**، وملكت الحياة من **الواحد**.

(1) العظة ١١ على شرح رومية، الترجمة العربية، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، نصوص آبائية ١٧٤، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٢٤٦ – ٢٤٧.

الفصل العاشر

معمودية الأطفال

كانت معمودية الأطفال سؤالًا منذ العلَّامة ترتليان ضد مارقيان الغنوسي (١: ٢٢): "لا توجد نسمة حياة في الوثنيين لأن أنفاسهم ليست نقيةً من فساد الوثنية. وبسبب هذا قال الرسول إنه عندما يتقدس أحد الوالدين، فأولادهم مقدسين (١ كور ٧: ١٤). وهذا هو ما يتميَّز به المسيحي بواسطة الانضباط الكنسي، أعني المعمودية والتعليم المسيحي، وإلَّا كما قال، فالأولاد نحسون بالولادة. وأن الرسول يقصد أن أولاد المؤمنين معيَّنون للقداسة وبالتالي للخلاص، لأن عربون هذا الرجاء هو التأكيد الذي قدَّمه الرسول للزواج وقدسيته التي احتاجت للدفاع. وبالإضافة إلى ما ذكرت، فأنا لم أنسَ ما قاله الربُّ بعباراتٍ قاطعة: "إن مَن لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله" (يو ٣: ٥)، أي -بكلمات أخرى- لا يمكنه أن يكون مقدَّسًا" (مقالة عن النفس: ٣٩).

ولم يذكر ترتليان أي شيء عن وراثة الخطية، بل كتب بعد ذلك:

"كلُّ نفسٍ بالولادة لها طبيعة في آدم، إلى أن تولد من جديد في المسيح، وإلَّا تظل دنسةً وفاعلةً للخطية" (مقالة عن النفس ٣٩).

دنس الولادة من الأب والأم

هو الولادة الجسدانية، وقد أقرت شريعة اللاويين بوجود دنس، ولم تذكر التوراة ما هو هذا الدنس. إذا كانت الفلسفة الأفلاطونية هي الخلفية التاريخية، فإن دخول النفس الإنسانية إلى العالم هو دنس النفس باتحادها بالجسد. وقد عبّر ترتليان عن ذلك بأنه دنسٌ قديم (مقال عن جسد المسيح ١٧: ٣).

وحسب ترتليان وبالنص: "نحن حقًّا حملنا صورة الترابي (الأرضي) بمشاركتنا في التعدي وبمشاركتنا في الموت، وبطردنا من الفردوس. الآن رغم أن صورة آدم نحملها نحن في الجسد، إلَّا أننا لم نتعلم أن نخلع الجسد ... ولكن نحن حقًّا مَن هو مواطن في السماء ..." (مقال عن قيامة الجسد: ٤٩).

كان العلَّامة أوريجينوس يميل إلى الوجود السمائي للنفس قبل أن توجد في الجسد (المبادئ ١: ٢ — ١: ٤ — ٣: ٢)، وفي شرح رسالة رومية ٥: ١٢ اعتبر العلَّامة أن εφη تعني السبب، وقرأ النص على أنه "الكل خطئوا فيه"، ولكن هذه هي ترجمة روفينوس وليست النص اليوناني الأصلي.

ذهبي الفم

لم ينكر ذهبي الفم معمودية الأطفال، ألّا أنه في تعليم الموعوظين (٣: ٦) قال: "لقد ذكرنا عدة فوائد للمعمودية، وبينما نحن ذكرنا عشرة فوائد تعطى في المعمودية وأننا لهذا السبب نعمد الأطفال، **رغم أنهم لم يخطئوا** ولكن لكي ينالوا التبرير والتبني والميراث ونعمة أخوة وأعضاء المسيح وهيكل الروح القدس".

وفي العظة (٢٨: ٣) على إنجيل متى يذكر: "أن نفوس الأطفال ليست شريرة وهي في يد الله".

ورأى ذهبي الفم أن كلمات الرب يسوع: "دعوا الأطفال يأتون إليَّ"، تؤكد أن الأطفال، بل الطبيعة الإنسانية ليست شريرة" (عظة ٥٦ على إنجيل متى).

عظات ذهبي الفم على رسالة رومية

لم يكن ذهبي الفم من أتباع أوغسطينوس، أو خصمه اللدود بيلاجيوس، ولذلك في العظة الحادية عشرة على رسالة رومية، لا سيما (رو ٥: ١٢): "من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع"، نجد أن ذهبي الفم فهم كلمات بولس على هذا النحو: "تمامًا كما يفعل الأطباء الأكفاء ... عندما قال إننا تبررنا، وبعدما أظهر أن هذا البر استُعلِن في إيمان إبراهيم بالروح القدس، وبموت المسيح لأنه مات لكي يبررنا ... وقد حاول كيف وبأي طريقة دخل الموت إلى العالم وساد عليه. ويقول إن هذا حدث بخطية الإنسان الواحد (آدم) اجتاز الموت إلى الجميع لأنه أي آدم سقط في الخطية، وأولئك الذين لم يأكلوا من الشجرة جميعهم صاروا في شخصه مائتين"[١].

رومية ٥: ١٣: "فإنه حتى الشريعة كانت الخطية في العالم على أن الخطية لا تُحسب إن لم تكن شريعة ...".

"لقد تصوَّر البعض أن عبارة: "فإنه حتى الشريعة"، أي حتى أُعطيت الشريعة، تعني ذلك الزمان الذي سبق الشريعة، أي زمان هابيل، نوح، وإبراهيم إلى أن وُلِدَ موسى، غير أنه لا بُد أن نسأل ما هي الخطية التي وُجِدت في الفردوس، طالما لم تكن قد حُكِمَ عليها، رغم أن ثمرها قد أينع، وقد ساد الموت واستبد. لكن لأي سبب أضاف: "على أن الخطية لا تُحسَب إن لم تكن شريعة"؟ لقد أضاف ذلك لمواجهة اليهود، فإذا لم تكن خطية تُحسَب لأنه لم تكن شريعة (تُحاسِب). فكيف ساد الموت على جميع الذين عاشوا قبل الشريعة؟ .. يبدو لي إن هذه العبارة لها علاقة مباشرة بما كان في فكر الرسول بولس وما كان يريد قوله. فماذا كان يريد أن يقول؟ أراد أن يقول إن الخطية وُجِدَت في العالم حتى ذلك

(١) تفسير الرسالة إلى رومية، القديس يوحنا ذهبي الفم، ترجمة د. سعيد حكيم يعقوب، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، نصوص آبائية –١٧٤، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٢٤٦.

الحين الذي أُعطيت فيه الشـريعة. من الواضـح أن هذا هو ما يقصـده، فبعد أن أُعطيت الشـريعة سـادت الخطية. أتت من المعصـية. لأنه يقول (إن الخطية لا تُحسَب إن لم تكن شريعة). فلو كانت الخطية جلبت الموت بسبب مخالفة الشريعة، فكيف مات الذين عاشـوا قبل الشـريعة؟ لأنه إن كان الموت يأتي من الخطية، وإذا كانت الخطية لا تُحسَـب إن لم تكن شـريعة، فكيف سـاد الموت قبل إعطاء الشـريعة؟ وبناءً عليه يكون من الواضـح أن الخطية لم تأتِ بسـبب مخالفة شـريعة موسى، لكن بسبب خطية آدم. وهذه الخطية هي التي أدت إلى هلاك كل شيء. وما هو الدليل على ذلك؟ الدليل أن الجميع ماتوا قبل الشريعة، لأنه يقول: "ولكن قد ملك الموت من آدم إلى موسـى وذلك على الذين لم يخطئوا على شـبه تعدِّي آدم الذي هو على مثال الآتي" (رو ٥: ١٤). وكيف ملك الموت؟ وكيف يملك على شـبه تعدي آدم؟ لأن آدم هو مثال المسـيح. وكيف يقول إنه مثال المسـيح؟ لأنه كما أن أولئك الذين أتوا من آدم على الرغم من أنهم لم يأكلوا من الشـجرة، إلَّا أن الموت قد ملك عليهم. وهكذا صار آدم سببًا للموت الذي دخل إلى العالم بسبب الأكل من الشـجرة. هكذا أيضًا فإن أولئك الذين ولدوا من المسيح، على الرغم من أنهم لم يعملوا أعمالًا بارةً، إلَّا أن المسـيح صـار سـببًا للبر (الحياة الحقة) الذي منحه للجميع بواسـطة صـليبه، لذلك فقد اهتم الرسـول بولس بالتركيز على عبارة "بالواحد"، وهذا ما يشـير إليه باسـتمرار قائلًا: "كأنما بإنسـانٍ واحدٍ دخلت الخطية إلى العالم"، وأيضًـا: "لأنه بخطية واحد مات الكثيرون"، و"ليس كما بواحدٍ أخطأ هكذا العطية"، وأيضًـا: "لأن الحكم من واحدٍ للدينونة"، و"إن كان بخطية الواحد قد ملك الموت بالواحد""[1].

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٧.

الحوار مع اليهودي

أدرك ذهبي الفم أن الرسول بولس يكتب حوارًا مع اليهود، وهو هنا على صواب فيما قدَّمه من إجابةٍ عن الواحد (آدم، والواحد يسوع) وفي العبارات التالية نسمع صوت ذهبي الفم: "في كل هذا لم يبتعد القديس بولس عن استخدام عبارة "الواحد" حتى أنه عندما يسألك اليهودي كيف خَلُصتْ البشريةُ ببرِ واحدٍ، أي بر المسيح؟ يمكنك أن تُجيب: وكيف أُدينت البشرية كلها بينما مَن خالف الوصية واحدٌ؟ مع الوضع في الاعتبار –وهذا أمر مؤكد– أن الخطية ليست مثل الهبة، وأن الموت ليس مثل الحياة، وأيضًا من المستحيل أن يوضَع الشيطان في مقارنة مع الله".

المنطق والواقع

"واحدٌ فقط أكل من الشجرة"، عبارةٌ كررها ذهبي الفم في العظة الحادية عشر على رسالة رومية، ولذلك يشرح رو ٥: ١٤: "ولكن قد ملك الموت من آدم إلى موسى ..."، فيسأل ذهبي الفم: "وكيف ملك الموت؟ على شبه تعدِّي آدم. ولهذا كان آدم مثالًا للمسيح. وكيف يقول إنه مثالٌ للمسيح؟ لأنه كما أن أولئك الذين أتوا من آدم على الرغم من أنهم لم يأكلوا من الشجرة، إلَّا أن الموت قد ملك عليهم، وهكذا صار آدم سببًا للموت الذي دخل إلى العالم بسبب الأكل من الشجرة"[1].

وفي شرح رو ٥: ١٧: "وما يقوله يعني الآتي: بماذا تسلَّح الموت ضد البشرية؟ تسلَّح بأن إنسانًا واحدًا فقط أكل من الشجرة"[2].

وعندما جاء ذهبي الفم إلى كلمات "فيض النعمة"، نجد أنه قد تجاوز

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

تمامًا ما جاء بعد ذلك في العصر الوسيط، فقال: "كل هذا دعاه الرسول بولس فيض النعمة مُظهِرًا هكذا أننا لم نحصل فقط على ما يضمد الجرح، لكن حصلنا على شفاء وجمال وكرامة، وعلى رُتَبٍ تفوق كثيرًا طبيعتنا الفانية ... كما لو أن شخصًا قد وضع آخر في السجن ... ووضع أيضًا زوجته وأولاده وخدامه لأنه مديون له بعشرة فلسات، ثم أتى شخصٌ آخر ودفع ليس فقط عشرة فلسات، بل ومنح آلاف العملات الذهبية، وقاد السجين إلى الحاشية الملكية، وإلى عرش السلطة العليا، وجعله شريكًا في الكرامة السامية ... لأن المسيح دفع أكثر جدًا من قيمة الدين الذي كان علينا، وما دفعه كان عظيمًا جدًا بقدر اتساع البحر إذا ما قورن بنقطةِ ماءٍ صغيرةٍ"[1].

وهنا يجب أن نلتفت إلى أن هذا التشبيه خاصٌّ بعِظَم النعمة، وليس دفع الثمن بمفهوم العصر الوسيط، لأن دفع الثمن هنا لم يكن دم المسيح، بل رد كرامة الإنسان، وهي الصورة الإلهية، وإعادة الإنسان إلى رتبته الأولى بمجدٍ فائقٍ.

(1) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

الفصل الحادي عشر

القديس كيرلس الكبير

٣٧٣ – ٤٤٤

يجب أن نقدِّم الشكر للدكتور نصحي عبد الشهيد، والأخوة الباحثين بمركز دراسات الآباء بالقاهرة د. جورج عوض، ود. جوزيف فلتس، ود. سعيد حكيم، فبفضل جهودهم وصلتنا كتابات القديس كيرلس التي غابت عن فكر العصر الوسيط برمته. وأصبح لدينا الآن مجموعة رسائل القديس كيرلس، وشرح إنجيل يوحنا، وعظاته على إنجيل لوقا، وحوار عن الثالوث، والكنز في الثالوث، والجلافيرا في شرح أسفار موسى الخمسة، والسجود والعبادة بالروح والحق، والمسيح واحد، وغيرها من ترجمات شرح أسفار الأنبياء الصغار، وشرح نبوة أشعياء. وهكذا عادت إلينا كتابات القديس كيرلس، وأصبح من السهل أن نقدم المنظومة اللاهوتية لكنيسة الإسكندرية في القرن الخامس.

المنظومة اللاهوتية لكنيسة الإسكندرية بحسب القديس كيرلس

عندما يقدم القديس كيرلس الإيمان، فهو لا يبدأ بما عُرِفَ بسقوط آدم، ليس فقط لغياب كلمة سقوط، بل لأن بشارة الحياة تبدأ من جديد بمجيء ابن الله الكلمة. فالخلق من العدم يعقبه التجديد.

الخلق، ثم التجديد.

آدم خُلِقَ لكي يتم تجديده بواسطة آدم الثاني.

لا يمكن فهم آدم الأول إلَّا من خلال آدم الثاني.

تؤكد المقدمة التي كتبها د. جورج عوض لترجمة جلافيرا التكوين[1] أن ظهورات الله الكلمة في العهد القديم لم تكن ظهورات ملاك يهوه حسب لاهوت العصر الوسيط، بل هي ظهورات الله الكلمة (ص ٣١ – ٣٢). فظهورات الله الكلمة ثابتة في سفر التكوين مثل حلم يعقوب (ص ٣٤)، لأن الله الكلمة استُعلِن بلا جسد (ص ٣٥).

وقد حشد لنا العهد القديم الكثير من الأشخاص والأحداث لكي يوثِّق لنا "إشارةً سريةً لقوة وساطة المسيح"، لأن الشريعة القديمة هي "معلِّم البدايات وتقودنا إلى أساسيات أقوال الله، وتقدم لنا الألغاز والظلال التي تحتوي بذرة سر المسيح ..." (ص ٣٧ – ٣٨). ولأن هدف هذه الأسفار "الملهمة بروح الله – كما يبدو– هو التطلع إلى سر المسيح (٢ تيمو ٣: ١٦)" (ص ٣٨).

آدم كمثال المسيح

"آدم الأول خُلِقَ من الطين، وسبَّب لنا الموت وقيَّدنا بشِباك الفساد، هكذا أيضًا آدم الثاني عندما تحوَّلنا وصِرنا مشابهين له بواسطة الروح القدس، خُتِمنا بختم عدم الفساد ..." (١ كور ١٥: ٤٥).

آدم كان البداية التي بها دخل الفساد والموت (رو ٥: ١٤ — ١ كور ١٥: ٢١ – ٢٢).

---

(١) القديس كيرلس الكبير، جلافيرا التكوين، ترجمة د. جورج عوض إبراهيم، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة، سلسلة نصوص آبائية رقم ١٩٢، ص ٢٥ وما بعدها.

وفي شرح نبوة ميخا يقول القديس كيرلس: "في الحقيقة إن سر المسيح حقًا مدهش واستعلان محبته لنا تفوق كل حدود الاندهاش، حتى أن حبقوق الموحى له –على سبيل المثال– اندهش من الأسلوب وطريقة استعلان المتجسد، فقال مندهشًا: "يا رب سمعتُ خبرك فجزعت": الابن الوحيد في الحقيقة، من خلال صورة مساواته لله الآب وبواسطة أنه كان غنيًّا وافتقر لأجلنا لكي نغتني نحن بفقره (٢ كور ٨: ٩) لكي يخلِّص الذي ضلَّ ويقوِّي الضعيف ويعصب الذي جُرِح ويعطي حياةً لمن فسد ويطهِّر الذي تدنس ويحرر الذي حُكِم عليه، ويبارك الذي لُعِن، ويرفع إلى البنوة مَن كان بالطبيعة عبدًا ..." (شرح ميخا ٧، راجع ص ٢٧٧ من المجلد الثاني، ٢٠٠٨).

ومن اختبار يشوع يكتب القديس كيرلس في الجلافيرا على سفر التثنية: ١٣، ص ٢٥١: "إن ما ورد في أسفار العهد القديم هو ما يوصف باسم "الحرف"، وإن كانت الترجمة الحقيقية هي "الأسفار"، لأنها ليست استعلان "الروح" لأن الحرف يقتل والروح يعطي حياة (٢كور ٣: ٦)، ولأن ما قدمه الرسول للعالم كله ودعاه "الروح"، لأن العهد الأول لم يكن بدون عيب، ولذلك كان من الضروري أن يعطي الثاني. الله جعل الأول بلا نفع ووعد بأن يعطي عهدً جديدًا" (الجلافيرا على سفر التثنية ١٣: ص ٢٥١)[1].

الرأس الواحد الذي جمع كلَّ شيءٍ من جديد

جمع المسيح يسوع كلَّ شيءٍ في شخصه، وهو ما يعني أنه لم يؤسِّس نظامًا، لأن النظام والشريعة هما واحد، والفرق فقط في الاسم، ولكن الوظيفة واحدة. أما الشخص فهو يحفظ علاقةً شخصية، والجدير بالمسيح هو أنه يعطي من حياته هذه العلاقة الشخصية التي لا تعطيها شريعة موسى.

---

(١) راجع ترجمة د. جورج عوض إبراهيم لجلافيرا القديس كيرلس على أسفار الخروج – اللاويين – العدد – التثنية، مؤسسة القديس أنطونيوس، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية، القاهرة، سلسلة نصوص آبائية رقم ٢٠٤، ص ٣٩٥ وما بعدها.

في شرح سفر التكوين وبداية استعلان المسيح كتب القديس كيرلس: "لأن خالق كل الأشياء هو بالطبيعة الحياة، وهو أيضًا أعطى الحياة للمياه التي تسبح فيها المخلوقات التي تسبح في المياه، وأعطى الحياه للهواء لأن الهواء هو حياة للطيور"[1].

الوجود هو ظهور الحياة، أي الوجود لكل الكائنات المخلوقة لأن كل كائن هو استعلان أُلوهة الخالق، وهو ما يؤكده القديس كيرلس بعد ذلك: "كان من الضروري أن صانع الأشياء، وهو بالطبيعة صالحٌ أو بالحري الصلاح ذاته أن يُعرَف لنا. وكان من الضروري أن الأرض التي امتلأت بالذين يعرفون كيف يمجدون (الله) ويعطون المجد لمن خلقهم ولمن يُستعلَن، لأن أشعياء النبي قال: "لأنك لم تخلق (الأرض) عبثًا، بل لكي تسكنها الخلائق" (أش ٤٥: ١٨) ... وبعد أن كان السبب أن السماء والأرض وكل ما فيها تظهر في نظام ضروري، جاء الله إلى خلق الإنسان الذي كان (تدبير خلقه) قبل كل الخلائق"[2].

هنا بالذات يسبق تدبير خلق الإنسان باقي المخلوقات "لأن الله لم يتكلم عن خلق الإنسان، بل خلقه الله بكلمته. ومن ذلك ندرك أن الإنسان حقًا كما هو معروف مخلوقٌ يشبه الله، وعلى الرغم من أنه ليس بالضرورة مَن يمثل المجد الفائق، إلَّا أنه لا يوجد مَن يساوي مجد الإنسان في كل مخلوقات الله، لأن الله أكرم الإنسان، ذلك المخلوق المثالي بالخطاب عنه بشكل مباشر. بعد أن صوَّره تمثالًا من الطين، جعله كائنًا عاقلًا ولكي ما يظهر بحياته العقلية، على الفور وضع فيه الروح الذي لا يموت والواهب الحياة لأنه مكتوب "ونفخ في وجهه نسمة الحياة فصار الإنسان كائنًا حيًّا" (تك ٢: ٧)"[3].

---

(١) شرح سفر التكوين ١: ١ – ٥، الترجمة الإنجليزية، المجلد الأول، ص ٥٥، سلسلة آباء الكنيسة، المجلد ١٣٧، ٢٠١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٥٦.

نسمة الحياة (تك ٢: ٧)

لم يتعرض أحد في الكتابات القبطية الحديثة لخلق آدم حسب تسليم الكتاب المقدس وآباء الإسكندرية. ويظن البعض عن جهل أن نسمة الحياة هي النفس Soul الإنسانية، ولكن تراثنا الذي تقدمه الليتورجية هو تسليم آباء الإسكندرية، لأن الكاهن ينفخ في وجه الذي ينال سر المعمودية ويقول له: "اقبل الروح القدس"، وهذا لا ينفي ما يُعطى في سر مسحة الميرون، بل يؤكد ثلاث حقائق غابت عن الوعي القبطي المعاصر:

أولًا: إن المعمودية هي الخلق الجديد، حسبما تؤكد الصلوات الليتورجية القبطية واليونانية والسريانية. فهي إعادة خلق الإنسان، ولذلك في تجديد هذا الخلق يُعطى للإنسان ما ضاع منه، وهو "نسمة الحياة" التي ردَّها الرب يسوع نفسه بعد القيامة حسب التسليم الرسولي في إنجيل (يوحنا ٢٠: ٢٢).

ثانيًا: إن رد عطية الروح القدس فينا، أي ما فقده آدم، لا تنفي ما تقدِّمه مسحة الميرون، وهي مسحة الملوك والأنبياء، ومسحة الحياة الجديدة الخاصة بملكوت ربنا يسوع المسيح الذي أعاد إلينا ميراث الحياة الأبدية الذي فقدناه بالموت.

ثالثًا: وهذا ما غاب عن التعليم المعاصر، أنها مسحة لتجديد الجسد والنفس، ولكن الجسد بالذات ينال ٣٦ رشمًا أو ختمًا من أختام الروح القدس توضع على كل أعضاء الجسد، لأن هذا هو عربون القيامة، فهي مسحة القيامة وحياة الدهر الآتي.

في رده على السؤال العاشر لطيباريوس، وهو يشرح معنى كلمة صورة ومثال، يشرح القديس كيرلس نسمة الروح القدس، فيقول:

"الكائن الحي على الأرض، أي الإنسان، خُلِق في البدء حسب صورة

خالقه، كما يقول الكتاب (كولوسي ٣: ١٠). ولكلمة الصورة معاني متعددة، ولكن الذي يشرح معنى كلمة "الصورة" هو كلمة "المثال"، مثال الله الخالق، لأن كلمة "المثال" تعني عدم الفساد وعدم الفناء ἀνώλεθρον ولكن الإنسان الحي العاقل بحسب طبيعته المخلوقة، إذا لم يكن قد نال هذه البركة الخاصة لكي يصير مثال الله لا يفسد ولا يفنى، كان سيظل غير قادر على أن يحيا حياة عدم الفساد بقدراته (المخلوقة) التي خُلق بها أي حسب طبيعته".

هكذا يظهر الخط الفاصل الذي لم يُستوعَب بعد في عصرنا، وهو أن القدرات الإنسانية حتى بعد تجديدها لا يمكن أن تعطي الإنسان حياة عدم الموت أو عدم الفناء، لأن هذه هي طبيعة الله غير المخلوقة، وهو ما جعل الآباء بعد القرن الرابع يصفون النعمة الالهية بأنها نعمة غير مخلوقة، لأن ما هو مخلوق لا يعطي للإنسان حياة الخلود، وهي حياة إلهية لا تُخلق لأن الخلود غير مخلوق، فهو صفة من صفات الله، واعتبار الخلود مخلوقًا يجعل الله مخلوقًا، وهو ما يهدم كل ما يمكن أن يقال عن الله.

ويكمل القديس كيرلس شرحه: "ولكي لا يعود الإنسان الذي خُلق من العدم (اللاوجود) إلى الطبيعة الأولى التي خُلق منها ويبقى الإنسان ثابتًا على الدوام في الوجود حسب قصد خالقه، جعل الله الإنسان شريكًا في طبيعته الإلهية، لأنه "نفخ في وجهه نسمة حياة" (تك ٢: ٧)، أي روح الابن، لأن الابن هو "الحياة" مع الآب، وهو الذي يحفظ كل الكائنات في البقاء، لأننا فيه، كل الكائنات التي وُهِبَت الحياة "توجد وتحيا وتتحرك" كما يقول بولس (أع ١٧: ٢٨)".

ويقول القديس كيرلس: إن "شركة آدم الأول في الحياة الإلهية كانت بواسطة عطية الروح القدس لأن الله أعطى لآدم مملكةً على كل الأرض" (التفسير الأنيق لسفر التكوين ١: مجلد ٦٩: ٢٠). هي السيادة التي أشار إليها سفر التكوين (١: ٢٦). ولكن هذه السيادة كانت في شركة لأن الله ختم طبيعته

(آدم) بالروح القدس الذي أعطاه له ليكون مثالًا للجمال الإلهي، لأنه خُلِق ليكون كاملًا كصورة الخالق، ولكي يقوى بالفضيلة، أي الحياة الحقيقية بقوة الروح الساكن فيه" (شرح انجيل يوحنا ٩: ١ – مجلد ٢: ٤٨٥).

وأعاد القديس كيرلس السكندري نفس التأكيد في شرحه لنفخة الرب يسوع بعد القيامة من الأموات، لأنه صار البكر الذي جعل تلاميذه أول أو باكورة الخليقة التي أُعيد إليها الروح القدس، لأن حكم الموت قد رُفع ورُدَّت الإنسانية إلى ما كانت عليه. ولا يتعارض هذا مع انسكاب الروح القدس في يوم العنصرة، لأن ما أخذه الرسل في العلية، هو ذاته صار عطيةً كونيةً لكل الخليقة التي تأتي إلى الرب بالإيمان، والتي صار الرسل باكورتها. وهذا ما يؤكده القديس كيرلس:

"أعلن المسيح أنه سوف يُرسل من فوق من السماء المعزِّي عندما يصعد إلى الله الآب، وقد فعل ذلك عندما صعد إلى السماء وسكب الروح بغزارة على كل الذين أرادوا أن يقبلوا الروح. وكل إنسان قادر على أن يقبل الروح بالإيمان وفي المعمودية المقدسة، وهذا يتمم ما سبق وقيل بالنبي: "سأسكب روحي على كل ذي جسد" (يوئيل ٢: ٢٨). كان من الضروري أن يُستعلَن الابن كعاملٍ مع الآب في إعطاء هبة الروح القدس لكي يفهم الذين يؤمنون بالمسيح أنه هو قوة الآب[1] الذي خلق الكون كله، وخلق الإنسان من العدم وأتى به إلى الوجود، لأنه في البدء وبواسطة كلمته أخذ الله الآب ترابًا من الأرض –كما هو مكتوب– وصنع كائنًا حيًّا، أي الإنسان ووهبه النفس –حسب إرادة الله– وأناره بشركةٍ في روحه لأنه "نفخ في أنفه نسمة الحياة كما هو مكتوب" (تكوين ٢: ٧)، ولكن بعد المعصية وسقوط الإنسان تحت سلطان الموت وفقدان الكرامة الأولى، أعاد الله بناء الإنسان وجدَّده إلى حياةٍ جديدةٍ بواسطة الابن، كما حدث في البدء عند

(١) قوة الآب لا تختلف في الفاعلية أو الكرامة عن كلمة أقنوم، ولذلك التمييز الخاص بين القوة والأقنوم قاد البعض في الوقوع في هرطقة انوميوس صاحب هذا التمييز.

خلقه. كيف جدَّده الابن؟ بواسطة موت جسده الذاتي ذَبَحَ الموت، وأعاد الإنسان مرةً ثانيةً إلى عدم الفساد، لأن المسيح قام لأجلنا. ولكي نعرف أنه هو –الابن– الذي خلق طبيعتنا وختمها بالروح القدس، أعاد المخلص لنا من جديد الروح بواسطة علامة منظورة، أي نفخته، وأعطاه لتلاميذه القديسين لأنهم كانوا باكورة ثمار الطبيعة التي جُدِّدت. موسى كتب عن الخليقة القديمة أن الله نفخ في أنف الإنسان نسمة حياة. وكما تم ذلك في البدء عندما خُلق الإنسان، هكذا أيضًا جُدِّد، وكما خُلِق ليكون "صورة" خالقه، هكذا الآن أيضًا بالشركة في الروح القدس يتحول إلى مثال خالقه، لأن الروح يطبع صورة المخلص على قلوب الذين يقبلونه، وهذا لا يحتمل حتى مجرد السؤال لأن بولس يعظ علانيةً الذين سقطوا بسبب الضعف، وعادوا إلى ممارسة (أعمال) الناموس (الشريعة الموسوية) يا أبنائي الذين أنا أتمخض بهم إلى أن يتكوَّن المسيح فيكم Christ be formed in you (غلا ٤: ١٩) لأنه يقول إن المسيح لن يتكوَّن فيهم إلَّا بالشركة في الروح القدس وبالحياة حسب شريعة الإنجيل. ولأن الذين صاروا باكورة الثمار، الخليقة التي دُعيت للتجديد ولعدم الفساد ومجد صورة الله، يثبِّت المسيح من جديد روحه في التلاميذ" (شرح انجيل يوحنا ٢٠: ٢٢ مجلد ٢: ٦٧٤ – ٦٧٥).

ويقول القديس كيرلس إن سعادة الإنسان الأول أنه "كان في حضن الله" (العبادة بالروح ٢: مجلد ٦٨: ١٤٨).

ما غاب من الوعي العام في زماننا:

أولًا: إن النفخة، وهي تعطى أيضًا في الرسامات، هي ما عبَّر عنه القديس كيرلس السكندري بأن حتى الآباء الرسل نالوا هذه النفخة من الرب نفسه، لأنهم باكورة الخليقة الجديدة التي ننتمي إليها بالروح القدس. هذا الانتماء لا يمكن أن يكون حسب التعليم السائد في بعض كنائسنا، وهو الحصول على مواهب الروح القدس لا الروح القدس نفسه، وهو يعني بالضرورة أنه لا يوجد دخول أو انتماء إلى الخلقة الجديدة لأن الروح القدس الذي يجددنا في المسيح ليس

موهبةً، بل هو عمل الله نفسه، ولذلك إعادة نسمة الحياة، وُصِفَت باسم "تجديد الروح القدس" (تيطس ٣: ٥)، وهو ردُّ ما فُقد.

ثانيًا: إن نسمة الحياة التي توهَب لنا والتي بها رُدَّت إلينا صورة الله ومثاله، هي التي تعطي لنا الحياة كمثال الله، وعندما توضع عطية الروح القدس في مستوى العطايا غير الأبدية مثل التكلم بالألسنة – طرد الشياطين – التعليم – النبوة ... الخ، فهذا فقدان لعودة الإنسان إلى الشركة في الحياة الإلهية، وهي شركة فيها: عطية الله – وقبول هذه العطية، أي أنها علاقة مزدوجة، وإنكار هذه العلاقة هو محاصرة الإنسان في مجال واحد، وهو أنه بقدراتٍ مخلوقةٍ يستطيع أن يكون شريكًا للروح القدس، وهو ما يهدم عمل الابن المتجسد الذي حقق لنا الخلاص في كيانه الإلهي – الإنساني، وحوَّل ناسوته ليكون رأس بداية الخلقة الجديدة. هذا التحوُّل الذي تم في جسده بدأ بالميلاد البتولي من العذراء والروح القدس، ونما صاعدًا إلى مسحة الأردن بعد معمودية الرب، ثم بالصلب والقيامة والصعود صار الرب ملكًا على الخليقة كلها، وصار هو مصدر الخلقة الجديدة التي تتم فينا به بالروح القدس.

عدم الفساد وعدم الفناء / الطبيعة والنعمة:

عدم الفساد αφθαρτος هو ما يوصف به الله وحده. وحتى خلود الملائكة هو عطيةٌ من الله، وليس طبيعة الملائكة (الكنوز في الثالوث ٢٠ مجلد ٧٥: ٣٤٥ – حوار عن الثالوث ٧ مجلد ٧٥: ١١١٦)، فالرسول بولس يذكرنا بهذه الحقيقة "الذي له وحده عدم الموت ساكنًا في نور لا يُدنى منه" (١تيمو ٦: ١٥).

الطبائع كلها جاءت من العدم ما عدا الخالق هو وحده الذي لم يُخلق، وهو وحده الذي له عدم الموت. الطبيعة ليست هي النعمة، لأن النعمة هي عطية من الله تضاف إلى الوجود الإنساني. ويؤكد ذلك القديس كيرلس في المقالة العاشرة من كتابه السجود والعبادة بالروح والحق: "إن التعليم الصحيح (الحق) الذي نؤمن به، وتعلنه الكنيسة، وهو التعليم الثابت أن نفس الإنسان خالدة αθάνατον

وأن الموت لا يُفسد النفس بذات الفساد الذي يصيب الأجساد، بل العكس صحيح، وهو أن الخالق يحرر النفس ويجعلها لا تذوق الموت، بل يُشركها في الحياة. ومنذ البدء خُلق الإنسان نفسًا حيَّةً عندما نفخ الله فيه نسمة الحياة كما هو مكتوب (تك ٢: ٧)، وأعتقد أننا سوف ننسب الضعف لمن هو الحياة وواهب الحياة لكل الكائنات، إذا قلنا إن ما خلقه مَن هو حيٌّ سوف يفنى مع الجسد المؤقت. ولكننا نؤمن بأن الحياة تتوَّج بالمعرفة وأن النفس خالدة، لأن الخالق الذي خلقها وخلق الكون أيضًا والذي نؤمن أننا به نحيا ونتحرك، شاء بصلاحه أن تكون كذلك" (مجلد ٦٨: ٦٩٧).

هذا الخلود كما سبق ورأينا ليس عائدًا إلى النفس، بل إلى عمل وصلاح الله. ولذلك، عندما فَقَدَ الإنسان الروح القدس وفارقه الروح القدس، مات. لكن موت الجسد لم يُصِب النفس، لأن هذا عائد بالدرجة الأولى إلى صلاح الله الذي يجعل كيرلس يقول: "الخلود هو عطية، وعندما يُعطى يصبح طبيعةً في الإنسان، ومن الملامح الضرورية التي تكوِّن النفس" (العبادة بالروح والحق ١٢: ١ مجلد ٦٨: ٨٨٧).

الفرق بين التسليم الإسكندري وتعليم العصر الوسيط:

في شرح انجيل يوحنا "فيه كانت الحياة" "وكل شيء به خلق" يفصل القديس كيرلس بين التسليم الشرقي الأرثوذكسي وما ساد الغرب تحت قيادة أوغسطينوس، فيقول:

"لم يكتفِ اللوغوس بأن يعطي الوجود فقط للمخلوقات، تلك التي جاءت إلى الوجود بواسطته، بل حفظ هذه المخلوقات حتى لا تتبدد وتضيع، فمزج نفسه على نحوٍ ما بالمخلوقات التي ليس لها ثباتٌ في طبيعتها، فصار الحياة لكل ما وُجِدَ لكي يبقى الكل في الوجود، وأن يحفظ كل المخلوقات في حدود الطبائع التي خُلقت بها. ومن أجل الضرورة قال (يوحنا) "فيه كانت الحياة" فهو لم يقل فقط "الكل خُلِقَ به"، بل أضاف "كل ما خلق كانت فيه الحياة"، أي حياة

الابن الوحيد كلمة الله أصل كل الأشياء والقوة التي تحفظها حسب الطبيعة التي خُلِقَت بها، أي كل الأشياء المنظورة وغير المنظورة في السماء وعلى الأرض وما تحت الأرض. والسبب في ذلك هو أنه (الابن) هو الحياة بالطبيعة وهو الذي يهب الحياة والحركة لكل مَن هو كائن حسب خصائص كل مخلوق. ولا يُقسِّم الكلمة ذاته (يعطي قِسمًا من كيانه لكل مخلوق) بل يسري هو نفسه He Spreads Himself في كل مخلوق حسب طبيعة كل مخلوق، ليس بأن يُقسِّم ذاته ويتحول، بل أن يجعل الخليقة متنوعة ومختلفة بالقوة التي تفوق النطق وحكمة الخالق. كل الأشياء لها حياة واحدة ولكنها تعطى لكل كائن حسبما يصلح لكل كائن وحسب قدرة طبيعة كل كائن على أن تشترك في الحياة" (شرح انجيل يوحنا ١: ٧ مجلد ٢: ٨٠).

فما هو الفرق الجوهري إذن بين التسليم السكندري وتعليم العصر الوسيط؟

١- الخليقة لم تفقد كيانها المخلوق ولا هبة الحياة بسبب السقوط، بل حُفظت من أجل تدبير الخلاص.

٢- صحيح أنها ضُربت حقًّا بالفساد والانحلال الجسداني في حالة الإنسان، بل أُخضعت لما هو باطل حسب تعبير الرسول في (رو ٨: ٢٠) ولكنها لم تَعُد إلى العدم.

٣- الخضوع للفساد يقول عنه القديس كيرلس نفسه "الطبيعة التي خضعت للفساد كان من المستحيل عليها أن تنهض لعدم فساد إن لم تأت الطبيعةُ الفائقة لكل فساد وتعطي لها التحول وتعيد ما سقط بواسطة ما يملك في كيانه الذاتي من صلاح، وبالشركة في الطبيعة الإلهية يعيد خلقها من جديد لتنال حياةً إلهيةً لم تكن لها ولا تنتمي إلى طبيعتها المخلوقة (شرح انجيل يوحنا ١١: ١٢ – العظة ١٢ من عظات عيد الفصح (مجلد ٧٧: ٦٠٩).

٤- يعبِّر القديس كيرلس عن الرجاء المسيحي في العظة ١٧ من عظات عيد القيامة: "كلمة الله هو الحياة بالطبيعة وجعل الفاسد بالطبيعة جسده الخاص لكي يحوله إلى عدم فساد بإبادة قوى الموت التي فيه، مثل الحديد إذا وُضِعَ في نارٍ حاميةٍ، صار هو نفسه، أي الحديد مثل النار، بل يتحول شكله ويأخذ على الفور شكل النار ويشعل النار في كل ما يقترب منه (الحديد) بسبب قوة النار التي فيه، هكذا صارت طبيعة الجسد بعد أن قبلت الطبيعة غير الفاسدة الواهبة الحياة لكلمة الله، فلم تعد طبيعة الجسد كما كانت من قبل، بل صارت أسمى من الفساد والموت" (مجلد ٧٧: ٧٨٥).

"هكذا "حشر" كلمة الله الآب كيانه في جسد إنساني لكي يحرر الجسد الإنساني من اللعنة القديمة وحشر نفسه في طبيعتنا وهو الحياة بالطبيعة لكي يبيد سلطان الموت لأن الطبيعة الإلهية حرة تمامًا من ميول الخطية، وحملنا (الرب يسوع) في جسده الذاتي وكنّا نحن جميعًا فيه لأنه تأنس لكي يبيد بالموت "الأعضاء التي لنا على الأرض" (كولوسي ٣: ٥) أي أهواء الجسد وشهواته ويقضي على ناموس الخطية الذي يعربد مثل طاغيةٍ في أعضائنا" (شرح إنجيل يوحنا ١٠: ٢).

السقوط أو التعدي

لم يدمِّر السقوط الصورة الإلهية فينا لأن دمار الصورة هو العودة إلى العدم (حوار عن الثالوث. الحوار الأول مجلد ٧٥: ٦٧٦)، ولكن جمال الصورة التي فينا شُوِّهت بالخطية، وهي إجابة القديس كيرلس على أسئلة طيباريوس، السؤال الثاني: "الخطية دنَّست جمال مثال الله الذي فينا وملأ الشيطان وجه الإنسانية الذي كان يلمع بعتمة ووسخ الخطية". ويؤكد ذلك في كتاب "العبادة بالروح والحق" قائلًا: "النعمة التي وهبها الله نُزعت والبركة التي أُعطيت في البدء خُلعت عن الإنسان فطُرِدَ من الفردوس" (مجلد ٦٨: ١٤٩).

وعندما يكتب ضد الإمبراطور يوليانوس الجاحد يقول عن آدم: "كان الإنسانُ قادرًا على رؤية الله لأنه خُلق عاقلًا وقادرًا على تمييز الأمور الإلهية حسب

قدرة الطبيعة التي خُلِق بها. فقد امتلأ الإنسان بكل شوق لما هو فائق لأن معرفته كانت نقيةً، إذ سعت وراء كل ما هو صالح" (ضد يوليانوس ٣: مجلد ٧٦: ٦٣٧).

وفي شرح نبوة أشعياء يقول: "كان الإنسان حرًا على الأرض لأنه خُلق وصُوِّر على الصورة الإلهية كما قال بولس المبارك: "لأعمالٍ صالحة قد أعدها الله لنسلك فيها" (١: ٥ مجلد ٧٠: ٢٤٩).

"السقوط أفقد الإنسان ملوكية وسلطان الإنسان على الخليقة" (الرد على طيباريوس ١٠). وعندما سقط الإنسان الأول، صار مثالَ الموت الجسداني، لأنه صار خاضعًا للموت (شرح إنجيل يوحنا ١٢ مجلد ٣: ١٠٦). والخضوع للموت كان أهم علاماته فقدان الروح القدس، وهو ما سبق وأشرنا إليه، وكان القديس كيرلس قد أكد من قبل في شرح إنجيل يوحنا (١١: ١ مجلد ٢: ٧٣٠) على أن صورة آدم صارت هي صورة "وسخ الخطية" (ضد تجاديف نسطور ٣: ٢ مجلد ٧٦: ١٢٨)، ورغم سقوط آدم، فلأن الله هو خالقه ظلَّ آدم قادرًا على أن يدعو الله، الآب (شذرة على انجيل يوحنا ٧ مجلد ٢: ٢٩٥)، رغم أن ذلك لم يكن حسب النعمة، لأنه فقد روح التبني (غلا ٤: ٤) ولكن الله هو الآب كخالق.

ما الذي ورثناه من آدم؟

وجد القديس كيرلس السكندري في مثل الابن الضال، التعليم عن هرب الإنسان وابتعاده عن الله (لوقا ١٥: ١٦) وطلب الأمور الأرضية الترابية (جيلافيرا على سفر الخروج ١ مجلد ٦٩: ٣٨٩).

الشرق كله مع الغرب يؤكد وراثة الموت، لأن الموت ساد على الطبيعة الإنسانية التي كانت بدايتها في آدم. والتعبير الشائع هو "تعدي آدم، وعندما ضاع منه حلول الروح القدس دخله الفساد وساد عليه الموت". وسفر التكوين (٦: ٣) يؤكد ذلك لأن الروح لم يبقَ في الإنسانية، ولذلك ساد عليه الموت: "دخل الموت الإنسان الأول، وهو بداية الجنس البشري لأن الموت دخل مع الخطية، وفسد

بذلك كلُّ البشـــر، بل إن الشـــيطان الحية التي اخترعت الموت بعد أن هَزم آدم بسبب عدم أمانة آدم، فتح لنفسه، أي الشيطان طريقًا لكي يدخل عقل الإنسان "فسدوا ليس أحد يعمل صلاحًا" (مزمور ١٤: ١). وعندما أدار آدم وجهه بعيدًا عن الله القدوس، أراد العقل بإرادته أن يميل للشر منذ الصبا .. ونحن جميعًا نقلد تعدِّي آدم، وهو ما يجعل الكل خطاةً، ولذلك نلنا نفس الحكم" (شـرح رسـالة رومية مجلد ٧٤: ٧٨٤).

وفي ذات شرح رسالة رومية يسأل القديس كيرلس: "ما هي علاقتنا بخطية آدم؟ هل نحن مسئولين عن خطيته، رغم أننا لم نكن حتى وُلدنا عندما أخطأ؟ ألم يقل الله "لا يموت الوالدين بسـبب أبنائهم، ولا الأولاد بسـبب آبائهم، ولكن النفس التي تخطئ تموت" (تث ٢٤: ١٦)؟ فكيف ندافع عن تعليم يؤكد موت الجميع؟ النفس -كما أقول- التي تخطئ تموت، ولكننا صرنا خطاةً بسبب عصيان آدم على هذا النحو: بعد أن سقط في الخطية واستسلم للفساد، والشهوات الدنسة غَزَت جسده، وهو ما كوَّن شريعة الشر في أعضاء جسدنا. طبيعتنا سرت إليها عدوى الخطية بسبب معصية الإنسان الأول آدم فصار "كثيرون خطاة" (رو ٥: ١٩)، ليس لأن هؤلاء أخطأوا مع آدم، لأنهم لم يكونوا موجودين، بل لأن لهم ذات طبيعة آدم التي سـقطت تحت قانون أو شـريعة الخطية، وهكذا دخل الضعف على طبيعة آدم، وصارت الطبيعة الإنسانية ضعيفة بالفساد الذي أصاب آدم بسبب المعصية ودخلت الشهوات الشريرة، وهي ذات الطبيعة التي حررها المسيح، لأنه كان في طاعة الله الآب ولم يخطئ" (مجلد ٧٤: ٦٨٨-٦٨٩). ونجد نفس التعليم في العظة العاشرة على رسالة رومية للقديس يوحنا ذهبي الفم.

ويسأل القديس كيرلس السكندري بدقة: "علينا أن نسأل كيف نقل إلينا آدم حكم (الموت) الذي أخذه بسبب التعدي؟ فقد سَمِع: "ترابٌ أنت وإلى التراب تعود" (تكوين ٣: ١٩)، غير الفاسد صار فاسدًا، وأَسَرَته سلاسلُ الموت. لقد وَلَدَ أولادًا بعد أن سقط في الموت وصرنا نحن نسله فاسدين، لأننا وُلِدنا من أبٍ

فاسدٍ. وهكذا ورثنا نحن لعنة آدم، وبكل تأكيد نحن لم نُعَاقَب لأننا لم نتعدى مع آدم الوصية الإلهية التي أخذها، ولكن لأننا صرنا مائتين ونقل إلينا اللعنة، إلى زرعه الذي صار أبًا له. نحن أموات لأننا من نسلٍ مائت" (De Dogm. 6, B: 560).

واضحٌ هنا تمامًا أن الوراثة ليست وراثة الخطية الآدمية، بل وراثة الموت، وهو ما يؤكده في شرح رسالة رومية ٥: ١٨-١٩ حيث يقول: "نالت الطبيعة الإنسانية مرض الخطية بسبب معصية الإنسان الأول آدم، وهو ما جعل كثيرين يصيرون خطاة".

كيف شرح القديس كيرلس نص رومية ٥: ١٢؟

"كما ذكرتُ، دخل الموت بواسطة الخطية في الإنسان الأول الذي خُلق كبداية للجنس البشري. وبعد ذلك انتشر الموت منه للكل، أي لكل الجنس البشري ... وبسبب انتشار الموت، صار عقل الإنسان متخصِّصًا في الشر منذ الحداثة (الشباب). نحن نعيش حياةً غير عقلانية ضد الله الكلي القداسة. وساد الموت، بل صار يفترس الكل كما قال النبي: "اتسعت الهاوية وفتحت فمها بغير قياس" (أشعياء ٥: ١٤ س)، ولأننا متمثلين بعصيان آدم، ولأن الكل أخطأوا، فكلُّنا سقط تحت حكم الدينونة مثل آدم" (مجلد ٧٤: BC٧٨٤).

وحسب الأصل اليوناني لرومية ٥: ١٢ εφώ بالذي جميعهم خطئوا فيه، أي الموت، وهو ما شرحه القديس كيرلس في العبارة السابقة: "متمثلين بعصيان آدم لأن الكل أخطأوا καθ όπάντες ήμαρτον".

"**الكل أخطأوا**"، وقوة التعبير في التشبه بعصيان أو خطية آدم. والقراءة الدقيقة تؤكد انتشار الموت في كل الجنس البشري.

الموت والخطية هما معًا حلقة واحدة. بدأت بالخطية والموت في آدم، وصار الموت والخطية في الجنس البشري. في آدم دخل الموت بالخطية، وبعد آدم

صار الموت هو سبب الخطية، أي أن بحث الإنسان الدائب عن الخلود كان هو سبب الخطية.

وفي عبارة بلا غموض يقول القديس كيرلس: "إن الموت هو العائل الذي يقود الإنسان إلى الموت. هو القوة السلبية التي تسيطر على الحياة حتى أن الموت لا يحتاج إلى قوة خارجية، بل يعمل بقوته التي سادت على الإنسان، حتى أن "الموت هو أُم الخطية" (مجلد ٧٤: D٧٨٤).

كيف؟

والجواب من كلمات القديس كيرلس نفسه: "الكل سقط تحت الفساد بسبب التشبه بعصيان آدم" (مجلد ٧٤: A٧٥٨).

وهو يشرح ذلك في فقرة أخرى: "حيث أن الموت هجم على مَن هم مثل آدم، أي الجنس البشري كله. ولأن الجنس البشري منه (آدم) مثل نبات أصاب جذره عطبٌ، فالكل حتمًا سوف يذبل (كلُّ الأغصان من هذا الجذر سوف تذبل) لأنها تفرَّعت منه" (مجلد ٧٢: A٧٨٥).

ونجد نفس العبارة في كتابه ضد الذين يشبهون الله بصفات إنسانية (٧٦: ١٠٩٢-١٠٩٧).

ويعود القديس كيرلس إلى كلمات الرسول بولس: "إنه كما كان يجب أن يقول إنه حُكم علينا بالموت في آدم بسبب عصيان آدم، والطبيعة الانسانية كلها عانت فيه (آدم) لأنه كان بداية الجنس البشري" (مجلد ٧٤: C٧٨٥).

وأيضًا: "وحقًا قال هو (بولس): من الواحد، وفي الواحد دينونة آدم انتشرت إلى الكل لأن الكل أخطأ مثل خطيته (آدم) لأنه كان جذر الجنس البشري. وكما قلت، الكل سقط في الفساد" (مجلد ٧٤: ٧٨٨).

وأيضًا: "لقد حُكم علينا جميعًا في آدم -كما ذكرت سابقًا- ومن الجذر الأول انتقل الموت للكل لأن الموت وُلِدَ من اللعنة" (مجلد ٧٤: C٧٨٨).

وهنا ننبه إلى أنه لا يجب أن نقرأ شرح أوغسطينوس في كلمات القديس كيرلس الكبير. فعندما يقول الرسول بولس إن آدم هو شبه الآتي، فهو يقصد آدم الأخير الرب يسوع، وعندما يكتب القديس كيرلس معيدًا لنا كلمات الرسول بولس، فهو يكتب هكذا: "آدم هو شبه الآتي، وكما صرنا في آدم، هكذا أيضًا في المسيح نتبرر بالطاعة" (مجلد ٧٤: D٧٨٩).

والمقارنة بين الخطية / آدم، والتبرير / المسيح، ليست مقارنة بين طبيعة وطبيعة أخرى، بل بين نتائج ما حدث في السقوط وما وُهِبَ في تدبير الخلاص. وحتى لا يظن أي قارئ أننا نريد أن نستبعد أوغسطينوس لسبب شخصي، فإن الدليل على أن القديس كيرلس الكبير لا يشرح سقوط الإنسان بذات الشرح الأوغسطيني، يأتي من القديس كيرلس نفسه، فهو يجيب موضحًا على سؤال لا زال في أذهاننا نحن، وهو:

"كيف إذن صار الكثيرون خطاةً بواسطته (آدم)؟ ولماذا وصل إلينا التعدي؟ وكيف يُدان الذين لم يكونوا قد ولدوا بعد؟ لدينا إجابة إلهية تقول: "لا يموت الآباء بسبب خطية الأبناء ولا الأبناء بسبب خطية الآباء، النفس التي تخطئ تموت (تث ٢٤: ١٦) ما معنى هذه الكلمات؟ أليس حقًا أن النفس التي تخطئ تموت؟ ونحن صرنا خطاةً بسبب معصية آدم على هذا النحو: أولًا لقد خُلقنا لعدم فساد وللحياة. وكان في آدم حياةٌ مقدسة في فردوس النعيم، وكان عقله منشغلًا دائمًا بالرؤى الإلهية، وكان الجسد هادئًا ينعم بالسكون، ولم يكن يعرف أيَّ لذةٍ مُشينَةٍ؛ لأنه لم يكن فيه فوضى المشاعر الغامضة الغريبة. ولكن عندما سقط في الخطية، سقط إلى عمق الفساد، وفورًا، اللذة والدنس أسرعت إلى طبيعة الجسد؛ لأن شريعة الشر تمكَّنت من أعضائنا. عند ذلك صارت الطبيعة مريضة بواسطة خطية التعدي التي للإنسان الأول، أي آدم. وهكذا "صار كثيرين

خطـاة"، ليس لأنهم اخطـأوا؛ لأنهم لم يكن لهم وجود. ولكن لأنهم من نفس الطبيعة التي لآدم، سقطوا تحت شريعة الخطية. وبالإضافة إلى ذلك، كما أن طبيعة الإنسان في آدم أسرعت إلى الفساد بالعصيان وسقطت في الأوجاع، هكذا أيضًا نالت الحرية في المسـيح؛ لأنها صـار مطيعة لله الآب في الذي لم يخطئ (الرب يسوع)" (مجلد ٧٤: ٧٨٨B -789 D).

* ولعل الأسئلة التي صاغها القديس كيرلس نفسه تبعده تمامًا عن مدرسة وفكر أوغسـطينوس الملوث بالمانوية؛ لأنه يقول إن الطبيعة مريضـة، والمرض هنا ليس وراثة الخطية؛ لأن حتى كلمة الوراثة لم تكن مطروحة في كتابات الآباء عن الخطية، بل عن ملكوت السموات ... وما أعظم هذه المفارقة.

* وبالطبع، الخطية هي عمل إرادي خاص بكل إنسان لا ينتقل إلى آخر بالوراثة، بل بقبول الخطية إراديًا.

* ولعل خاتمة (رو ٥: ٢١) عن مُلك الخطية بالموت؛ لأن الموت هو عرش الخطية، وهي جزءٌ هام من التعليم الأرثوذكسـي الذي هُجر في العصـر الوسيط بسبب انقطاع التواصل مع تعليم الآباء بسبب الجهل باللغة اليونانية، بل وبالقبطية، ولذلك ضـاع منا الوعي بأن هذا الملك reigning للخطية قد أُبيد تمامًا.(لأن الموت قد أبيد بالمسيح).

* يقول القديس كيرلس الكبير نفسـه في شـرح إنجيل يوحنا: "ملكت الخطية بموتنا وبالتالي صـار للموت قوةٌ تزداد بسـبب الخطية، ولكن ربنا ومخلصـنا يسوع المسيح جاء، وبالموت أباد الموت، وهو أيضًا أباد الخطية التي لها جذرٌ تجذَّر في طبعنا بسبب الموت" (شرح انجيل يوحنا ١: ٢٩).

هكذا يجب أن نفهم عبارة الرسـول بولس أما شـوكة الموت فهي الخطية (١كو ١٥: ٥٦).

الموت هو جوهر المشكلة والمأساة الحقيقية:

لم يعرف لاهوت الإسكندرية، وبالذات أثناسيوس وكيرلس، ذلك التركيز الشديد جدًا على موضوع الخطية، لكن هذا التركيز والإصرار على وضع الخطية في بؤرة الاهتمام والشرح اللاهوتي هو من إبداعات العصر الوسيط، ويمكن إرجاعه إلى أنسلم اسقف كانتربري (١٠٣٣ - ١١٠٩)، الذي كان بداية محاصرة الخلاص والفداء محاصرة دقيقة في دائرة إهانة كرامة الله التي استدعت تقديم فدية وترضية لكي ينال الإنسان العفو والغفران، ومنذ ذلك وحتى العصر الحديث، سار اللاهوت الغربي بشقيه الكاثوليكي والبروتستانتي في تحديد دائرة الخلاص على أنها دائرة الخطية، وأبعدوا الموت عن الموضوع برمته، فاحتلت الخطية المركز الأول، بل مركز الدائرة ومحيطها، وأصبحت كل معالجة لاهوتية خاصة بالفداء تدور حول الغفران والصفح. والدليل على ذلك، وإن بدا بعيدًا، ولكنه جزءٌ من محيط الدائرة، هو موضوع الغفرانات والمطهر، الذي برمته خاصٌ بالخطية وعقوبة الخطية والصفح .. وضاع موضوع الموت. بل استطاع الجانب التجاري أن يسرق الصَّلب والقيامة، عندما تمادى الغرب في الاحتفال بميلاد المسيح، لأن التجسُّد أصبح مجرد أداة Tool تنفع الصَّلب، والصَّلبُ بدوره هو تقديم ترضية للآب، وبعد تقديم الترضية تفقد القيامة مكانها، بل ودورها، وتصبح مجرد تكملة لما حدث. إذن، يفقد التجسد قيمته، فهو مجرد أداة، والقيامة هي تحصيل حاصل، وليست إبادة للموت لأن الموت أُبيد على الصليب، وأشهرت القيامة هذا الظفر، مما جعل عددٌ كبير من اللاهوتيين الأرثوذكس يصفون هذا التطور بأنه لاهوت غير شرعي Bustard Theology.

وهنا بالتحديد، كانت عودتنا إلى الآباء محفوفة بالمصاعب، لأن بعض الإكليروس الذي تربى في مدارس الإرساليات، ظن أن محورية الخطية الثابتة في كل كتب الكاثوليك والإنجيليين هي تعليم مسيحي كوني وليس أحد بضائع الغرب، غير أن نشر كتب الآباء والدراسات الآبائية كفيلٌ بتغيير الأمر، وإن كان ذلك يحتاج إلى مزيد من الوقت.

العلاقة العضوية بين الفساد والموت والخطية:

كان قيام الإمبراطورية الرومانية على يد شـــارلمان (٧٤٢-٨١٤) بداية زحف القانون زحفًا حثيثًا نحو امتلاك الحياة الإنسانية، لأن الإمبراطورية لا تريد إلَّا المواطن الصـالح الخاضـع والمطيع للقانون. لذلك كان من الضـروري إعادة صـياغة التعليم المسيحي عن الفداء ليتناسب وهدف الدولة من السيطرة على هذا المواطن، وبالتالي تم تضـــخيم دور الخطية بحيث أصـــبحت محورًا تدور حوله بعض عقائدنا الكبرى؛ التجسـد والصـلب والقيامة، بحيث بدت هذه الأعمال الإلهية وكأنها دائرة كبيرة مركزها الخطية. وهكذا تحول الغفران المجاني إلى غفران "مدفوع الثمن"[١]، في حين أن مأســاة الإنســان لم تكن في التعدي كما صــاغه القانون، بل في التعدي حســب اللاهوت، أي خروج الإنســان على دائرة الوجود الإنســاني نفســه، فهو يتعدى "الصـورة الالهية" التي خُلِقَ عليها ليكون صـورة كيانه، ويصـبح بذلك كيانًا مزيَّفًا غير قابل لحياةٍ خالدة، بل أسيرًا للفساد والموت.

ومن الناحية الأخرى، فقد غابت عن بعض الأدبيات القبطية المعاصـــرة التعبيرات اللاهوتية الإسكندرانية، وفي مقدمتها شركة الانسان في اللوغوس Logos وهي التي جعلت الإنســـان λογικός بنواله قوة إدراكٍ وفهمٍ جعلته يتأمل الله نفسـه (شـرح إنجيل يوحنا ١: ٩ – مجلد ١: ص ١١١). ما ضُـرب هنا هو كيان الإنسـان، فقد أفقد التعدي الإنسـان معرفة الله، وبفقدان المعرفة فقد الحرية لأن الله خلق الإنسـان "حرًا دون أن يكون على حريته قيدٌ" (القديس كيرلس جيلافيرا على سـفر التكوين ١: مجلد ٩: ١٤١٦). وكانت الحرية هي اسـاس تقديس الإنسـان لأن الإنسان خُلِق مقدَّسًا، فهو قدوس لأنه اشترك في الروح القدس منذ أن خلق، فكان قدوسًا (العبادة بالروح والحق ١٧ مجلد ٦٨: ١٠٧٦) لأن الخالق "ختم آدم بختم طبيعته لكي يكون قويًا في الفضائل (الحياة الحقيقية) بقوة الروح القدس الذي

(١) "غفران مدفوع الثمن" تعبير تم الدفاع عنه في التعليم المعاصر في كنيستنا القبطية بدءً من الربع الأخير من القرن الماضي.

حلَّ فيه" (شرح يوحنا ٩: ١ مجلد ٢: ٤٨٥). والتقديس هو تخصيص الإنسان وفرادته، أي أنه فريد مثل خالقه الفريد.

فما هو التعدي، أو ما هو السقوط؟ أنه ليس تعدي علامة خارجية، بل هدمٌ كبير في الكيان الإنساني، أنه ليس مجرد "جُرح أصاب طبيعتنا لأننا تحولنا من الوجود الحقيقي إلى وجود زائف وهمي بلا حياة حقيقية" (حوار عن الثالوث: الحوار الأول: مجلد ٧٥: ٦٧٦). الخطية هي هدمٌ لأهم مكونات الحياة الإنسانية، وهي الإدراك – الفهم الذي حول الوجود الإنساني الى وجود زائف.

قبل السقوط –كما يقول معلمنا الكبير– كان "عقل الإنسان قادرًا على أن يرى الله ويدرك الأمور الإلهية إدراكًا مباشرًا حسبما تستطيع الطبيعة التي أُعطيت أن تدرك، لأن هذه الطبيعة مُلئت بالعطش لما هو مجيد وصالح، لأنها كانت نقيةً ولم تعرف بعد المعرفة المشتتة التي تذهب في اتجاهاتٍ متفرقة" (شرح انجيل يوحنا ٢: ٩ مجلد ١: ١١١).

وفي شرح نبوة أشعياء يقول: "كان البشر أحرارًا في حياتهم هنا على الأرض لأنهم خلقوا على صورة الله –كما يقول المبارك بولس– "لأعمال صالحة سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها" (أفسس ٢: ١٠)، ولكن الشيطان مخترع كل شر خدعهم بشكلٍ فاق كل حدود الخداع، مما جعلهم يفقدون محبتهم لله ويعبدونه (الشيطان)، بل وضع على أعناقهم نير الخطية الذي لا يمكن الإفلات منه" (أشعياء ١: ٥ مجلد ٧٠: ٢٤٩). "هكذا فقد الإنسان ملكه Kingship ومجده الذي وُهب له في البدء" (العبادة بالروح والحق ٢ مجلد ٦٨: ٢٤٤).

آدم مثال الموت:

حسب التسليم الرسولي في (١كو ١٥: ٤٩) التحول الرهيب الذي حدث بسبب سقوط آدم هو تحولٌ إلى ما هو ترابي. تحولٌ حدث بسبب الخطية، فصار آدم هو المثال الذي نراه في كل البشر، وهو الموت (شرح يوحنا ١٢ مجلد

٣: ١٠٦). "التحول إلى ما هو ترابي هو فقدان ما هو سمائي وهو الخضوع للأهواء التي تعمل من داخل الإنسان، وهي ما يسمى بالفساد φθορά" (شرح يوحنا ١: ٩ مجلد ٢: ٤٨٣).

كان آدم هو الجذر الذي منه تفرع الجنس البشري كله "كان قد خلق على صورة خالقه وأقيم لكي يملك على الأرض لأنه كان بمثابة يد الله لأنه كان حيًا حياة مقدسة، ولكن بعد أن خُدِعَ بالحية تلك الخدعة المريرة، فَقَدَ كيانه الأول ولم يعد له الجذر الحقيقي الذي كان من المفروض أن ينمو منه، بل ولم يعد يمسك باليد التي أقامته ملكًا في القداسة، فسقط في حياةٍ أرضيةٍ" (العبادة بالروح والحق ٢ مجلد ٦٨: ٢٤٤). ولا يقف القديس كيرلس عند هذه النقطة، بل يواصل الشرح مؤكِّدًا أن ما أصاب الإنسان هو إصابة مزدوجة: **الأولى**: الفساد. **والثانية**: فقدان الروح القدس، وهو الموضوع الغائب من الكتابات القبطية المعاصرة، لأن يقول بعد ذلك: "فارقه الروح القدس لأنه لا توجد شركة بين الظلمة والنور القداسة والنجاسة"، ويشبِّه هذا "بعصا موسى التي وُضِعَت على الأرض (خروج ٤: ١)، والتي تشير إلى أن الإنسان الذي خُلِقَ أصلًا على صورة الله وكان في الفردوس وله الملك وكان في يد خالقه الله، أفلت من كل هذا وأراد حرًا مختارًا أن يكون عقله جسدانيًا، وبهذا الانحطاط المرير صار كما لو كان حيةً" (المرجع السابق). وأشار القديس كيرلس إلى فقدان الروح القدس مرةً أخرى في شرح انجيل يوحنا (١١: ١٢ مجلد ٢: ٧٣٠).

ما هو سبب ميل الإنسان منذ حداثته للشر؟ وجواب القديس كيرلس قاطع: "لأن الإنسان فَقَدَ النعمةَ السماوية، مما جعل الجنس البشري كله يسقط في الفساد والشر، وأصيبت الإنسانية بما يشبه المجاعة من حيث انعدام القوت السماوي، وهو ما يشبه ما حدث في مَثل الابن الضال الذي بدَّد في أرضٍ غريبةٍ الميراث الذي ورثه عن أبيه وكان يشتهي أن يملأ بطنه من خرنوب الخنازير" (لوقا ١٥: ١٦)، هذا ما حدث لنا نحن البشر لأننا نجري نحو الأمور الأرضية، ولأننا

تركنا الأفضل، بينما كان علينا أن نشتاق للأفضل والصالح" (جلافيرا على سفر الخروج مجلد ٦٩: ٣٨٩).

ماذا يعني الطرد من الفردوس؟:

عندما وُهِبَ آدم نسمة الحياة، أي الروح القدس، كانت هذه عطيةً خاصةً بالحياة في الفردوس، وكان الطرد علامةً على عدم قبول الله للإنسان الذي رفض الشركة، فطُرِدَ لكي يحيا الحياة التي اختارها آدم لنفسه.

في شرح إنجيل يوحنا يقول القديس كيرلس: "عندما طُرِدَ خارج الفردوس وعاش في العصيان نزل الإنسان إلى الأُم الذي أُخذ منها، أي الأرض، واستُعبِدَ للفساد والموت، ومنه نُقِل حكم الدينونة إلى سائر الجنس البشري" (١: ٧٤). "لكن أهم ما حدث خارج الفردوس هو ما يذكره سفر الحكمة (١: ٤-٥) وهو أن روح الحكمة القدوس يهرب من الشر ولا يسكن في جسدٍ مستعبدٍ للخطية، ولذلك سار الجنس البشري نحو الموت والفساد" (شذرات على رسالة رومية ٩: ١٤-٢٤). وفي شرح سفر التكوين، أو بالحري في العظات الأنيقة على سفر التكوين يشرح القديس كيرلس (تك ٦: ٤) "لا يسكن روحي في الإنسان"، فيقول: "فارق الروح القدس الإنسانية بسبب زيادة الشر" (مجلد ٦٩: ٧٧) وفقدت الإنسانية بفقدان روح القداسة الروح القدس الجمال الأول الذي كان للصورة" (العبادة بالروح والحق مجلد ٦٨: ١٤٩).

كيف صرنا خطاة في آدم؟

عندما يذكر العهد القديم في أكثر من موضع أن النفس التي تخطئ تموت (تث ٢٤: ١٦ – حزقيال ٨: ٤ و٢٠)، فإن التعليم بوراثة خطية آدم يبدو ملتبسًا على البعض، والسبب الأول والأخير هو أن الخطية = الموت، وأننا عندما نقرأ عن الخطية والموت يجب أن نميِّز بين ما حدث بعد المسيح، وما كان كائنًا قبل المسيح، حيث يقول الرسول: "وإذ كنتم أمواتًا بالذنوب والخطايا، أحياكم مسامحًا

لكم بجميع الخطايا" (كولوسي ٢: ١٣ – أفسس ٢: ٥) **فقد فَصَلَ الربُّ بين الخطية والموت عندما أباد الموت**، فلم يعد للخطية قدرة على أن تميت الإنسان لأن النعمة تملك في الحياة الأبدية التي نقلت الجسد من الموت إلى القيامة.

يقول القديس كيرلس: "حقًا تقول الأسفار "النفس التي تخطئ تموت"، وقد صرنا نحن خطاةً بمعصية آدم على هذا النحو: خُلِقَ آدم لعدم فساد وللحياة، وهي الحياة في فردوس النعيم التي تُوهَب للقديسين. وكان عقله (آدم) مستغرقًا في رؤية الله وكان جسده في سلام مع عقله لأن الشهوات لم تكن تحاربه، إذ لم توجد شهوات بعيدة عن حياته مع الله. ولكن عندما سقط استُعبِد للخطية وانحدر إلى الفساد، ومن هذا الزمان وبعده اخترقت الرغبات النجسة جسده، ونما قانون الخطية وأخذ يرتع في أعضاء الجسد. عند ذلك أصيبت الطبيعة الإنسانية بمرض الخطية بسبب معصية آدم، بهذا صار الكثيرون خطاة –ليس لأنهم بسبب خطية آدم– لأن هؤلاء الكثيرون لم يكن لهم وجود، ولكنهم يملكون ذات طبيعة آدم التي سقطت في براثن قانون الخطية. هكذا أصيبت الطبيعة الانسانية بالمرض وبالفساد الذي أصاب آدم، وهو ما جاء مع العصيان، وأدخل الشهوات الفاسدة فينا" (تفسير رسالة رومية ٥: ١٨–١٩ مجلد ٣: ١٨٦–١٨٧).

هنا العلامة الفارقة بين الشرق والغرب في شخصين: كيرلس الكبير من الشرق، وأوغسطينوس من الغرب، ويبدو الفرق في أن:

١– الإنسانية لم تشترك في خطية آدم بل في نتائجها.

٢– لا يوجد "ذنب أصلي"، هو ذنب آدم، اشترك فيه الجنس البشري الذي لم يكن له وجود.

الوجود المزيَّف:

عندما اختار آدم وجودًا بدون شركة مع الله، واختار ذاته فقط، سقط في وجود مزيَّف وصار مثل عملة مزيَّفة "عندما فارقه الروح وبعدها فارق الإنسانية وانتشرت الخطية، وصار الإثم عامًا، زُيِّفت الصورة" (شرح مزمور ٥٠: ١٣ مجلد ٦٩: ١١٠٠). "الذي ضاع هو جمال الصورة الإلهية" (حوار عن الثالوث ٦ مجلد ٧٥: ١٠١٣). وقد استخدم القديس كيرلس الكلمة القانونية الخاصة بتزييف العملات المعدنية παρεχαράττετο لأن مكونات الصورة الإلهية، أي الملامح الإلهية للإنسان χαρακτήρες لم تعد فعالة بل غطَّاها الزِّيف حتى سقط الإنسان في أدنى درك للجهل وعدم الإدراك فصار يجهل خالقه" (شرح انجيل يوحنا ١: ١٨٣). وفي الاجابات العقائدية على أسئلة طيباريوس يقول القديس كيرلس: "ملأ الشيطان وجه الإنسانية الذي كان يشرق بالنور بالوسخ" (١٨ مجلد ٣: ٥٩٠). وتحت رماد الوجود المزيف يظل الإنسان يبحث عن الخير، الجمال، الحق، الخلود، وهي الجذور الباقية من الصورة الإلهية التي عادت إلينا وجُدّدت في المسيح.

علاقة الخطية بالموت وإماتة الخطية:

"نحن نقول إنه منذ معصية آدم، عانت الطبيعة الإنسانية الفساد، وساد طغيان اللذات الجسدانية على العقل، حتى غَرَست في العقل نفسه دوافع جسدانية، ولذلك كان من الضروري لخلاصنا نحن الذين على الأرض أن يتأنس كلمة الله، وأن يجعل جسده الذاتي، الجسد الإنساني الخاضع للفساد والمريض بمحبة اللذات. ولما كان الكلمة هو الحياة وواهب الحياة، أباد الفساد الذي في الجسد، وانتهر الرغبات الجسدانية المغروسة فيه والتي تدفع إلى محبة اللذات. وبهذه الطريقة صار من الممكن أن تموت الخطية التي في أجسادنا. ولعلنا نتذكر أن بولس المبارك دعا هذه الحركات المغروسة في العقل "ناموس الخطية" (رو ٧: ٢٥) وهكذا صار الجسد الإنساني بتأنس كلمة الله واتخاذه ذات الجسد الذي جعله جسده الذاتي، ما أبطل الخضوع إلى الفساد، لأنه أُبيد، لأنه كإله جعل الجسد جسده

وأعلنه جسدًا خاصًا به" (رسالة ٤٥: ٩، راجع الترجمة الانجليزية، رسائل القديس كيرلس المجلد الأول ص ١٩٤-١٩٥، وراجع أيضًا صلاة القداس الباسيلي "المجرب أبطله عنا وحركاته المغروسة فينا". وهذا نفسه يشرح الفصل الثاني عشر من الفصول التي صارت تُعرف باسم الحروم الاثني عشر حيث يؤكد القديس كيرلس أن الجسد هو جسد الرب الواهب الحياه وجسده الخاص، وكل مَن لا يعترف بهذا، ليكن محرومًا.

"في المعمودية نعتمد لموت الرب الموت الذي ذاقه في ناسوته الذاتي، رغم أنه كان غير متألم كإله .. هكذا غُلِبَ الموت .. وأُبيد الفساد الذي فينا وضعفت قوة الموت" (رسالة ٥٥: ٣٨).

الفساد كلمة مرادفة للموت:

استدعى الخلق من العدم أن يَهَب الله شركة للإنسان في طبيعته: "ولكي لا يعود إلى العدم ذاك الذي خُلِق من العدم ويعود إلى أصله (الأول)، بل أن يبقى حيًا دائمًا -لأن هذا كان قصد الخالق- جعله (الإنسان) الله شريكًا μέτοχον في طبيعته، لأنه "نفخ في وجهه نسمة الحياة" (تك ٢: ٧)، أي روح الابن، لأن الابن ذاته هو الحياة مع الآب ويحفظ كل الكائنات حيَّةً" (شرح يوحنا ٩: ١ مجلد ٢: ٤٨٤).

هذه العطية الفائقة هي التي حفظت الإنسان من الموت، ولكنه عندما يفقد هذه العطية يسود عليه الموت، أي تفسد الطبيعة الإنسانية، ولا تعود تحيا حسب الصورة. كل ما هو مخلوق قابلٌ للتحول والتغيُّر ما عدا الخالق. والتحول والتغيُّر لا يسير حسب خطة أو قانون، بل دخل في فوضى تحوُّل بلا هدف، أطلق عليه الرسول "البُطل" (رو ٨: ٢٠).

في رسالة عيد القيامة العاشرة (سنة ٤٢٢) يُذكِّر القديس كيرلس عمود الدين الشعب بالإيمان بالصلب والقيامة، فيقول:

"صُـــلِب عمانوئيل من أجل كل أحد، ولأجل كل أحد فدى حياة كل أحد بدمه الخاص، ومن خلال شخصه (أقنومه أو ذاته) جمع الجنس البشري الذي ابتعد بعيدًا عن العلاقة الشخصية الأولى التي كانت له مع الله. هو "الوسيط بين الله والإنسان" (١تيمو ٥: ٧) كما هو مكتوب، فوحَّد الاثنين بما لا يمكن وصفه، الله والإنسان. ولذلك السبب وحَّد بجوهر الآب الذي ولده وبنا نحن، الناسوت، إذ لم يكن ممكنًا خلاص الطبيعة القابلة للهلاك، ولا نحن الذين نتردد أن نسمو إلى الرغبة في الفضيلة (الحياة الحقيقية) إلَّا إذا جاء بهاء مجد الله الآب، أي الابن، الذي هو فوق كل فساد وتغيير، أو بالحري من طبيعته لا يمكن أن يصل إليها التغيير أو التحول، أن ينزل إلينا ويدخل في شركة معنا (الرسالة العاشرة ص ١٧٨).

"ترابٌ أنت وإلى التراب تعود" (تك ٣: ١٩) هو حكمٌ لا يمكن تغييره، وهو الفساد الذي هدم وحدة الكيان الإنساني، ولذلك كان من الضروري للإنسان أن "الجسد الذي سقط يتَّحد بالكلمة الواهب الحياة، وأن يشترك الجسد البشري في الخلود" (شرح يوحنا ١: ٩ مجلد ١: ١٣٩).

الفساد φθορά هو موت الجنس البشري كله في آدم، أي الحياة التي ضُرِبَت بالموت، وتعود إلى التراب، وبذلك لا يصبح على الأرض كائنًا حيًّا روحًا وجسدًا، بل كائنًا ممزقًا. والخلاص كما يقول القديس كيرلس هو القضاء على الموت وإعادة خلق الإنسان.

"الحكم هو بالفساد" (شرح يوحنا ١: ٦ مجلد ٢: ٢٢٠)، والخلاص بمجيء الله الكلمة لكي كما مات في آدم، يعودُ إلى حياةٍ جديدةٍ في المسيح.

وفي المقالة التاسعة من السجود والعبادة بالروح والحق، وهي من أهم المقالات التي تشرح ترتيب الكنيسة وعلاقتها بالمسيح، يقول القديس كيرلس عن مذبح الذهب الذي من خشب لا يعتريه الفساد: "لأن جسد المسيح هو غير

فاسد، ويحوي داخله غنى الطبيعة الالهية لأن الكلمة صار جسدًا وسكن بيننا (يو ١: ١٤)، إذن صار المسيح هو بدايتنا وأصل جنسنا هذا الذي أُعيد خلقه بعدم الفساد وبالاتحاد بالله، وعدم الفساد" (راجع نصوص آبائية – ٩٧ ص ٨٣ مجلد ٦٨: ٦١٧) (مجلد ١ ص ١٧٨).

وفي شرح نبوة هوشع (٦: ٧) عن قول الرب "هم مثل الذين يكسرون العهد" يقول القديس كيرلس: "مَن هؤلاء الذين يقول عنهم النبي "هم مثل"، النص العبراني يقول مثل آدم كسروا العهد .. هؤلاء كانت لهم شركةٌ مع الله وحياةٌ بلا خوف من الفساد تصونها الحياة في فرح الفردوس، ولكن آدم لم يكترث بالوصية الإلهية وأخذ طريقًا مغايرًا لطريق الوصية مما قاده للأسوأ فعاد إلى حالته الأولى. وصار بنو إسرائيل مثل آدم" (مجلد ١: ١٣٤ عامود ١٤٣). هذا التحول جعل آدم ومعه بني إسرائيل يفقدون الوعود التي في العهد.

ويذكِّر القديس كيرلس الشعب بأن آدم كان نبيًا، لأنه رغم أن حواء خُلِقَت من ضلعه وهو نائم، إلَّا أن الروح القدس الذي قَبِلَه آدم، جعله يقول إنها عَظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي (شرح نبوة يوئيل ٢: ٢٨ – مجلد ١ عامود ٣٣٧ ص ٢٩٥).

فالروح القدس أُعطي لآدم (المرجع السابق عامود ٣٣٨)، وفارق الروح القدس آدم، ولذلك وقع في قبضة الموت، وجاء يسوع المسيح، آدم الثاني الذي "حلَّ عليه الروح القدس لكي يبقى" (يوحنا ١: ٣٢)، فأعاد الروح القدس للذين يولدون من جديد بالماء والروح لأنهم يولدون ليس من دم ولحم ولا من إرادة إنسان، بل من الله" (يوحنا ١: ١٣) (المرجع السابق عامود ٣٣٨ – ٣٣٩).

وعندما يقارن بين آدم الأول وآدم الثاني الرب يسوع يقول في شرح نبوة

النبي ميخا (٧: ١٨-٢٠)[١]، يقول:

"على الرغم من أننا طُردنا من الفردوس في آدم، إلَّا أننا قُبِلنا وعُدْنا في المسيح. أصابتنا اللعنة في الأول، ولكن حدث العكس في الثاني، إذ نلنا البركة في الثاني، ولنذكر ما يقوله الكتاب المقدس: "بمعصية واحد مات كثيرون" (رو ٥: ١٥)، ولكن الجنس البشري عامةً نال الحياة بالواحد البار .. في التجسد سوف يطرح الله خطايا الكل في البحر (ميخا ٧: ٢٠)" (شرح نبوة يوئيل مجلد ٢ عامود ٧٤٠ ص ٢٧٨).

وفي شرح نبوة حبقوق (٣: ١-٢) حسب السبعينية "يا رب قد سمعت خبرك فجزعت نفسي .. في الغضب اذكر الرحمة" يقول القديس كيرلس:

"أغضب النبي حبقوق الخالق بسبب معصية آدم الذي لم يراعي الوصية بالمرة، ونحن أيضًا جَزَعَت نفوسنا، بل وهلكنا في بؤسنا، وسقطنا تحت اللعنة المرة وحُكم (الموت) لأننا كنا تحت سلطان الموت، لأننا تركنا الله. وأبينا الأول سمع الكلمات، وهو جذر جنسنا: "ترابٌ أنت وإلى التراب تعود"، ولكن الله لم يتركنا إلى الانقضاء بل تعهدنا بالرحمة، رغم أن "الموت بقوته ابتلعنا" كما يقول النبي، إلَّا أن "الله يمسح الدموع من كل وجوه بائسي شعبه المسحوقين في الأرض". بالمسيح -حقًا- أُبيدت قوة الموت، ومعها الخطية، وهي مصدر تعاستنا لأن "الرب تذكَّرنا ورحمنا .. لقد عانينا الشقاء بسبب معصية آدم، وعدنا إلى التراب الذي خُلِقنا منه، ولكن اغتنينا بروح المسيح الإلهي، وبواسطة المسيح، فصرنا شركاء في طبيعته (المسيح) حسب الأسفار (٢ بطرس ١: ٢٤)، وجُدِّدنا إلى ما كنّا عليه سابقًا، إلى حالتنا الأصلية (الأولى) ... لأن بولس الإلهي نفسه يكتب وهو الحق "إن كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة الأشياء القديمة قد مضت وها الكل قد صار

(١) لعل كلمات النبي هي أعظم دواء لأي نفس مكتئبة "من هو إلهٌ مثلك غافر الإثم وصافح عن الذنوب لبقية ميراثه. لا يحفظ إلى الأبد غضبه، فإنه يسر بالرأفة يعود يرحمنا يدوس آثامنا، وتطرح في أعماق البحر جميع خطاياهم، تصنع الأمانة ليعقوب والرأفة لإبراهيم الذين حلفت لآبائنا منذ أيام القدم" (ميخا ٧: ١٨-٢٠).

جديدًا" (٢كو ٥: ١٧) (شـــرح حبقوق ٣: ١-٢ مجلد ٢ عامود ١٢٥ ص ٣٧١-٣٧٢).

المسيح أباد الموت عرش الخطية

"إذا لم يكن المسـيح هو الابن، ولا هو الله بالطبيعة، ولكن مجرد إنسـان مثلنا وأداة للألوهة، فالنتيجة هي أننا لم نخلص بواســطة الله. كيف يحدث هذا الخلاص، إذا كان واحدٌ منا مثلنا مات لأجلنا وقام بقواتِ آخر؟ كيف إذن أُبيد الموت بالمسيح" (الرسالة الأولى ٣٨ والرسالة ٤١: ١١).

تحول الإنسان من الفساد إلى عدم الفساد في المسيح

هذا التحول تم في المسـيح أولًا، في ناسـوته، وهذه هي كلمات القديس كيرلس السكندري:

"كلمة الله بالطبيعة هو الحياة، فجعل مَن هو فاســد بالطبيعة، جَسَــدَه الخاص، لكي يحوِّله إلى عدم فساد، لكي يقضي على قوة الموت التي في الناسوت، لأن الحديد إذا وُضِـــع في نارٍ حامية يأخذ قوة النار التي تغيِّر لون الحديد إلى لون النار حتى يصبح الحديد مثل النار، بل ويعطي الحديد القوة الحارقة الخاصة بالنار. هكذا تغيَّرت طبيعة الناسوت عندما سكن فيها بمسرةٍ كلمةُ الله واهب الحياة، ولم تعد طبيعة الناسوت كما كانت من قبل، بل أسمى من الفساد" (رسالة عيد القيامة ١٧: ٤ مجلد ٧٧: ٧٨٥-٧٨٨).

هذا التحول يعطى للطبيعة الإنسانية الخاصة بكل إنسان.

"ولكي يحرر الإنسـان من الموت والفسـاد الذي حَكَم به بسـبب اللعنة القديمة، تأنَّس، وكما لو كان قد حُشِـــر Inserting في طبيعتنا، هو الحياة بالطبيعة، وهو ما غلب قوة وســلطان الموت، وســيادة قوة الفســاد أُبيدت لأن الطبيعة الإلهية حرةٌ من ميول الخطية. لقد حملنا في جسـده وصـرنا فيه لأننا جميعًا

كبشرٍ صرنا جميعًا فيه عندما صار إنسانًا .. فأمات "أعضاءنا التي على الأرض" (كولوسي ٣: ٥)، أي أهواء الجسد، ونقض شريعة الخطية التي تطغى على أعضائنا" (شرح يوحنا ١٠: ٢ مجلد ٢: ٦١٨).

التحول تم بالصلب والقيامة، وليس بالاتحاد وحده

في رسالة عيد القيامة (عام ٤١٥) يكتب القديس كيرلس السكندري: "أخذ كلمة الله شكلنا ووُلِد من العذراء القديسة، فخلَّص الجنس البشري، وأعادنا إلى حالتنا الأولى غير الفاسدة .. فوحَّد الأرضيات مع السمائيات، وهدم الحائط المتوسط (أف ٢: ١٤ – ١٥)، حتى أن الملائكة المباركين دُهِشوا فقالوا: "المجد لله في الأعالي .." (لوقا ٢: ١٤) لأن المسيح مخلصنا هو الذي أعلن لنا الإرادة الصالحة واحتمل الصليب لأجلنا، وقيود الموت التي أحاطت بنا قُطِعت وتحررنا منها، ومسح كل دمعة من وجوهنا (رؤ ٢١: ٢٤) .. وأعلن لنا طريق الخلاص، ليس لنا فقط، بل نزل كَمُبَشِّرٍ إلى الأرواح العاصية التي في الجحيم كما قال بطرس (١بطرس ٣: ١٩-٢٠) .. لأنه لا يليق أن يُعلِن محبته للبشر للبعض، بل استعلان العطية يجب أن يشمل كل الطبيعة، وفي هذه المناسبة تكلم المخلص: "تعالوا إلى يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا اريحكم" (متى ١١: ٢٨)، فبَشَّر الأرواح بهذه البشارة، أولئك الذين كانوا في السلاسل "اخرجوا"، وللذين في الظلمة "تعالوا إليَّ" (ص ٦٦-٦٧).

شوكة الموت، أو الخطية؟

* تراها في السعي وراء الشهرة. كأن في الشهرة خلودٌ. طبعًا خلودٌ مزيف من صنع الانسان لا يدوم إلى الأبد.

* الحل بالقوة القاهرة لأن القهر هو امتداد الأنا للسيطرة على الآخرين مما يخلد الذات.

* الملابس المزركشة والألوان الفاقعة لجذب الأنظار.

* حشد الألقاب والمال لعل فيها غلبة الموت.

* جمع أكبر كم من الأموال والمقتنيات، ومع هذا الجمع، نجد تقتيرًا وبخلًا شديدًا لا يرى احتياجات الفقراء.

* بل لقد اندفع ملايين من البشر وراء الأفلام الجنسية المنحطة، والتي تدور حول الكرة الأرضية، وفي كل بقاع العالم يوجد لها ملايين من الأسرى؛ لأن الجنس هو نوع من استنساخ الشخص، وشعور بالقوة والقهر وإخضاع الآخر. ولعل عبادة الصور التي تظهر على شاشات التلفاز والاجهزة الالكترونية يؤكد لنا أننا كنا فعلًا عبدة أوثان لأننا نحب الصورة، ولا نريد أن نتعامل مع الواقع، أي نحب الصورة التي نريدها وليس الآخر كما هو.

* وتأله القيادات من الإكليروس بالسلطة، وتجاوز حتى ما هو ثابت، هو شوكة الموت التي تقود إلى خطايا لا مجال لسردها هنا.

الخطية تُفسد الجسد وتضع في اعضاء الجسد بذرة أو بذار الشهوات، وهو ما يجعل الانسان يفسد ويموت، ولكن لأن النفس ذاقت الموت، فإنها يجب أن تذوق الحياة الخالدة لكي لا يموت الجسد لأن الجسد استعبد للشهوات وهو ما يفسد النفس بسبب وحدة الوجود الإنساني[1].

(1) نرجو من المستعبَدين لمدرسة اوغسطينوس دراسة:

John Mayendorff, Byzantine Theology 1974, pages 144-145.

شوكة الموت هي الخطية التي دُمِّرت بالحياة الأبدية وبالقيامة:

يقول القديس كيرلس الكبير: "لقد صـــرنا خالدين بقيامتنا، ولن نخطئ، وذلك لأننا كنا مائتين وهو ما جعلنا نخطئ" (شرح رسالة كولوسي ٣: ٥).

"لقد أخطأنا بسبب الموت لا بسبب خطية آدم". عبارة يجب أن تدوي لعلها تمسح تهور القديس أوغسطينوس؛ لأن القديس كيرلس الكبير يقول في عظة عيد القيامة (٥: ١١): "كان من الممكن خلاص الجسد من الموت والفساد، إذا أولًا صارت النفس غير متحولة، وخلصت من شهوات الخطية؛ لأننا وهبنا عدم التحول (الثبات) وصار لنا خلاصًا من الخطية".

أخيرًا، لعل نشر دراسة الماجستير الخاصة بالباحث John Townsend عن شرح الآباء اليونانيين لرسالة رومية ٥: ١٢-٢١ قد تُساهم في علاج التحجر الفكري والخوف من البحث والدراسة. وكان اطلاعي على هذه الدراسة وغيرها هو الحافز على كتابة هذا البحث للأجيال الآتية بعدنا (أوشية الاجتماعات).

الفصل الثاني عشر

مجمع أفسس ٤٣١ م والحكم على بيلاجيوس

تعدُّ مجلدات تاريخ المجامع للأب تشارلز هيفيليه، المرجع التاريخي الأول في هذا الشأن، لأن كل الدارسين اعتمدوا على نشر الوثائق التاريخية، وليس على المرويات، وطبقًا لهذه الوثائق:

* من الثابت أن بيلاجيوس لم يحضر جلسات مجمع أفسس ٤٣١م لا هو ولا القديس أغسطينوس.

* من الثابت أيضًا أن تاريخ المجامع لا يعرف المحاكمات الغيابية، وإن تعدَّى أحدٌ وحَكَمَ غيابيًا على أحد، فإن عقابه بالحرمان معروف.

* ومن الثابت أيضًا أن نسطور حاول أن يقدم دعمًا معنويًّا لبيلاجيوس، ولكن من سير الأحداث التاريخية ذاتها، فَصَل نسطور ومعه الذين أيَّدوه أنفسهم عن بيلاجيوس وحزبه.

الحجة الأقوى

كان أوغسطينوس قد رقد في الرب في ٣٤٠م أي قبل اجتماع مجمع أفسس في عام ٤٣١. وكان التعليم عن وراثة الخطية الآدمية أو الجدية، أو أيًّا كان الاسم، لا يعفي المدافع عن هذا التعليم من أن يلاحظ أن وراثة الذنب أو الخطية، وبشكلٍ خاص عن طريق الزواج، يؤدي إلى الوقوع في هرطقة ماني MANI وهي شديدة الاتصال بمدارس الغنوسية التي تعلِّم بأن الإنسان أخذ الجسد المادي، اللحم والدم، من إله شرير، وكان تحريم الزواج هو جوهر التعليم في مدارس الغنوسية وعند ماني أيضًا. وهو ما يجعل كل ما يقال باسم وراثة الخطية يعني دعم الغنوسية والمانوية فيما ينادون به.

* من الثابت أيضًا أن محاضر المجامع التي عُقدت في قرطاجنة، ثم بعد ذلك في فلسطين ابتداءً من ٤١٢[1] كانت غير قادرة على إصدار حكم على بيلاجيوس، ولكن حددت النقاط التي كانت تستدعي المناقشة، وهي:

١- إن آدم كان سيموت لو لم يخطئ، وليس كل الجنس البشري.

٢- خطية آدم لم تجرح آدم وحده، بل كل الجنس البشري.

٣- الأطفال المولودون هم في نفس حالة آدم قبل السقوط.

٤- ليس حقًا أنه بسبب الموت وخطية آدم، يموت كل البشر. وأيضًا ليس حقًا أنه بسبب قيامة المسيح سوف يقوم كل البشر.

٥- الشريعة تؤدي إلى (ميراث) الملكوت، وليس الإنجيل فقط.

٦- أنه حتى قبل مجيء المخلص كان هناك بشرٌ بلا خطية.

---

(١) راجع تاريخ المجامع للأب هيفيليه، مجلد ٢، ص ٥٢١ وما بعدها.

ومن الثابت أن الذي حُوكِم على هذه التهم كان كاليستوس، وليس بيلاجيوس.

ما بين أوغسطينوس وبيلاجيوس

أولًا: يجب أن نتوخى الدقة والحذر في تحديد الفروق بين أسقفٍ مشهور وراهبٍ مغمور، وقضايا فكرية لم يكن لدى الكنيسة الجامعة رأيٌ قاطعٌ فيها، مثل حالة الأطفال الذين يولدون من آباء وأمهات مؤمنين. ما هو السند القوي الذي يؤكد أنهم في مثل حالة آدم قبل السقوط.

ثانيًا: يؤكد الأب هيفيليه أن المجمع لم يُصدِر حكمًا بخصوص البنود الستة السابقة[1] وأن الآباء الأساقفة طلبوا من كاليستوس التراجع عما ذكر، فلم يتراجع، فقُطِع من شركة الكنيسة.

ثالثًا: كان عدم اقتناع كاليستوس بأنه على خطأ، السبب في طلب اللجوء إلى روما للتحكيم.

انفرط عقد المجمع. وذهب كاليستوس إلى أفسس، فرُسِمَ قسًّا. وذهب بيلاجيوس إلى بيت لحم ليحصل على دعم من جيروم الذي لم يكن مؤيدًا لبيلاجيوس، وكان أوغسطينوس قد أرسل أوروسيوس إلى بيت لحم ليحذِّر جيروم من خطورة نتائج تعليم بيلاجيوس.

المجمع الاقليمي برئاسة يوحنا أسقف أورشليم ٤١٥م

كان القس أوروسيوس قد حمل معه مقالة أوغسطينوس "الطبيعة والنعمة"، ويبدو أنها قُرِأت في المجمع. وعندما قال بيلاجيوس: "مَن هو أوغسطينوس؟"، كان رد يوحنا أسقف أورشليم: "أنا أوغسطينوس".

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٣.

ويبدو أن جيروم لم يكن حاضرًا، فلم تكن علاقته بأوغسطينوس علاقة ود، ولكن كان كلاهما على اتفاق في رفض تعليم بيلاجيوس.

١- لم يكن لدى الكنيسة الجامعة تعليمٌ قديم ناقش هذه الأفكار، وهي أفكار اجتهادية، ولكن تبدو خطورتها في أنها تمس الوجود الإنساني الذي يأتي إلى الكون ملوثًا، ثم يظل ينسب هذا التلوث إلى حادثة تمت في تاريخ بعيد، وهي الأكل من الشجرة.

٢- وعندما نلاحظ أن مصادرنا القديمة لم تنسب إلى يسوع أنه أكل أو لم يأكل من الشجرة، فإننا ندرك على الفور أننا ملتزمون بحياة يسوع التي تفتح لنا الأسفار وتجعلنا نرى أن الذي وُلِدَ بدون زرع بشر، وُلِدَ حتى يُعيد أصلنا إلى الله، وإلى الروح الخالق، الروح القدس، لا إلى آدم. هذا ما كتبه القديس أثناسيوس الرسولي في الرسالة إلى أدلفوس، فقرة ٩ حيث حدث ارتقاء للجسد لأنه "اتَّحد بلاهوت الكلمة"، وهكذا صار المسيح يسوع بدايةً جديدةً للجنس البشري. وهو ذات الشرح الذي كتبه القديس كيرلس الكبير في مقالته عن (المسيح واحد)[1] عن تكريم الزواج نفسه بالميلاد من العذراء، ورد أصل التكوين الإنساني إلى عمل الروح القدس نفسه.

٣- ولكن بيلاجيوس لم يتراجع عما قيل رغم دفاعه الحار، وكيف أن أوغسطينوس نفسه تسلَّم رسالةً من بيلاجيوس.

دفاع بيلاجيوس في مجمع اللد في فلسطين

١- ضد الاتهام الأول: "لا يوجد شخص واحد يحيا بلا خطية، لا سيما إذا اتبع الشريعة". وكانت إجابة بيلاجيوس: "أنا لم أقل إن مَن عَرِفَ الشريعة لا

(١) راجع ترجمتنا لهذه المقالة عن اللغة اليونانية، الفصل الخامس بعنوان: لماذا وُلِدَ المسيح من عذراء بالروح القدس؟ طبعة مركز دراسات الآباء بالقاهرة، يناير ١٩٨٧، ص ٢٩ وما بعدها.

يخطئ، ولكن مَن عَرِفَ الشـريعة، فمعرفته للشـريعة تسـاعده على عدم الخطية". وقد قَبِلَ المجمع هذا الرد.

٢- وأجاب بيلاجيوس عن الاتهام الثاني، وهو "أن كل إنسـان تحكمه حرية الإرادة"، بأنه "في يوم الدينونة كل الخطاة سوف يُعاقَبون بنارٍ أبدية". وسقط الاتهام.

٣- وجاء الاتهام بأنه قال: "الشـر لم يدخل في عقل الإنسـان البار"، وهي عبارة تنفي سـقوط آدم، ولكن كان رد بيلاجيوس بأن المسـيحي يجب أن يبذل جهدًا لكي لا يخطئ. وسقط الاتهام.

موت آدم حتى لو لم يخطئ

السؤال نفسه سؤالٌ افتراضيٌّ لأن ما حدث هو أن آدم أخطأ وحُكِمَ عليه بالموت. وكان لدى المجمع رسالة أوغسطينوس إلى هيلاري، وهي إجابته على رأي كاليسـتوس، وكانت قد قُرأت في مجمع قرطاجنة فقط في عام ٤١١م حيث رأى أوغسطينوس أن الواقع هو أن آدم أخطأ ومات.

حكم مجمع قرطاجنة ٤١٨م

القانون الأول: "كل مَن يقول إن آدم الإنسـان الأول خُلِقَ ميِّتًا Mortal فلو أخطأ أو لم يخطئ كان سـيموت، لا تتفق مع عبارة الرسـول (أجرة الخطية موت)، وأن آدم أخطأ بسبب حكم أو ضرورة الطبيعة، فليكن محرومًا".

القانون الثاني: "كل مَن يقول إن الأطفال المولودين حديثًا لا يحتاجون إلى معمودية، وأنهم يحتاجون إلى غفران الخطايا في المعمودية، وأنه لا توجد فيهم خطية أصـلية ورثت من آدم، وأنها يجب أن تُغسـل في حميم الميلاد الجديد ... فليكن محرومًا".

وهكذا تأصَّـــل التعليم بوراثة الخطية الآدمية، وهو بكل تأكيد تعليمٌ يهدف إلى بعث الهرطقة المانوية، لأن وراثة الخطية تتم عن طريق الزواج، هو تعليم ماني.

الفصل الثالث عشر

القديس ساويرس الأنطاكي

مقدمة تاريخية

كان بحث الأب يوحنا رومانيدس "الخطية الجدية – The Ancestral Sin" الذي نُشِرَ عام ١٩٩٨، وطبع بعدها عدة طبعات حتى ٢٠٠٨، تابع فيها الأب رومانيدس تطور النظرة إلى الحياة الإنسانية (آدم) في رسائل القديس بولس حتى القديس أوغسطينوس. وكان التركيز على القديس أوغسطينوس سببه الأساسي هو أن الكنيسة اليونانية كانت تكتفي بما جاء في الفكر الغربي، لا سيما توما الإكويني وقرارات مجمعية هي خلاصة التعليم الغربي الكاثوليكي، وكان آخرها مجمع ترانت (١٥٤٥ – ١٥٦٣)، وهو آخر المجامع التي ناقشت التعليم الكاثوليكي العقائدي.

وكانت أهم مساهمات الأب رومانيدس، الذي ساهم بالكثير، هي أن التعليم عن الإنسان بعد الرسول بولس، كان قد دخل عليه في زمان القديس أوغسطينوس شوائب فلسفية يونانية الأصل، وهي الوجود الإنساني في عالم روحي للروح أو النفس قبل أن توجد في الجسد. هذه الفكرة الأفلاطونية كان لها شقين: الأول، هو وجود النفس في عالم روحي مثالي. والشق الثاني هو أنها أخطأت وسقطت في العالم المادي وحُبِسَت في الجسد. وكان الجسد هو سجن النفس. وهنا

جاءت الفكرة الموازية وهي سقوط آدم في تاريخ قديم، وهو سفر التكوين الذي قرأه آباء الكنيسة الجامعة، ولم يكن شرح القديس إيرينيئوس مثل شرح أمبروسيوس ومن قبله ترتليان، إلى أن جاء القديس أوغسطينوس وكان تلميذًا لجماعة ماني Mani ولكنه دخل المسيحية (ولد في عام ٣٥٤ ورقد في الرب في عام ٤٣٠، أي قبل عام من انعقاد مجمع أفسس ٤٣١).

وعندما نقرأ: "في آدم يموت الجميع" (١ كور ١٥: ٢٢)، فالتعليم هو عن الطبيعة الإنسانية التي يمثلها آدم في قصة الخلق والسقوط، أو حسب اللغة القديمة، الطبيعة التي ينتمي إليها كل شخص. وأن الفساد والموت بشكلٍ خاص، هما عطبٌ أصاب الطبيعة، وتبعًا لذلك، فما نراه من شر فهو بسبب دفاع الإنسان عن حياته وكيانه ووجوده، وهو ما يجعل الإنسان يُخطئ. فالخطية هي دفاع عن الوجود الذي ضربه الموت. وعند ماني وأفلاطون ثم أوغسطينوس هي ما أصاب الإنسان وصار يورَّث بالزواج.

لعل هذا الملخص يوضح أن نقطة الافتراق بين آباء الكنيسة مثل ذهبي الفم والقديس كيرلس السكندري، ومن قبله العظيم أثناسيوس السكندري، هي الانتماء إلى طبيعة واحدة. أما حشر الخطية في الزواج، وأن الزواج هو سبب انتشار الخطية، لأن الخطية لها وجود مادي، أي كينونة، فهو تعليم ماني، بينما هي عند كل الآباء الشرقيين فعل إرادي صادر عن العقل الذي تحول من صورة الله إلى صور متعددة بتعدد البشر، أي صور البشر.

بحث د. جورج فرج

جاء نشر بحث د. جورج فرج: الخطية الجدية حسب تعليم القديس ساويرس الأنطاكي، القاهرة، يناير ٢٠١٧، مثل كوب ماء مثلج في صيف شديد الحرارة، فأنعش نفسي التي لم يكن لها وجود سابق في العالم الروحي، وبالتالي لم تُحبس في الجسد حسب تعليم أفلاطون، ولا كان لها وجود في الفردوس عندما سقط آدم.

جاء بحث د. جورج فرج، المشـــار إليه بعاليه بمثابة إضـــافة هامة في اكتشـاف تاريخ العقيدة الأرثوذكسـية. وقد كنا في أشـد الحاجة لهذا الاكتشـاف وهذه الإضـافة، أولًا لعدم وجود دراسـات قبطية معاصـرة عن القديس سـاويرس الأنطاكي. وثانيًا لأن التراث السـرياني كله لم يكن قد دخل في كتابة تاريخ العقيدة إلَّا فيما ندر من ترجمات لما إفرام السـرياني، أو مار إسـحق السـرياني الأب الروحي لقداسـة البابا كيرلس السـادس، ولذلك تجيء هذه الدراسـة لتسـد فجوة كبيرة في بناءٍ يرتفع بسرعة في تاريخنا المعاصر.

وقد أوضـح الباحث أن الاهتمام بالقديس سـاويرس الأنطاكي يرجع إلى أنه "من الآباء معلمي العقيدة الكبار المذكورين في تحليل الخدام الذين ظهروا بعد انتشار تعليم المطوب أوغسطينوس عن وراثة الذنب، فالآباء السابقون عليه عندنا في الشرق ما كانت الأفكار المتعلقة بوراثة الخطية أو الذنب قد انتشرت في أيامهم ومن ثم فمن غير المنطقي أن نجد لهم كتابات تناقش باستفاضة هذه القضية" (ص ١٢)

كما أوضـــح د. جورج فرج في بحثه المشـــار إليه بعاليه خطأ ما يحاول البعض أن يشـــيعه من أن رفض وراثة الذنب تعليم يخص الكنيســـة البيزنطية الخلقدونية، ذلك أن القديس ســـاويرس الأنطاكي يعتبر أنه الأب الأول المقاوم لمجمع خلقدونية وتعليمه غير مقبول في الكنائس البيزنطية (راجع ص ١١ من البحث المذكور).

وهنا نجيء إلى تعارض شـرح القديس سـاويرس الأنطاكي مع شـرح القديس أوغسـطينوس. فالعبرة ليست في تتابع تاريخي أو في اختلاف الثقافة، بل فيما وصـــل إليه كل من ســـاويرس وأغســـطينوس، وأن أحكام المجامع المحلية مثل مجامع قرطاجنة أو روما لم يكن لها أي صـــدى لأنها لم تكن معروفةً في الشـــرق الناطق باليونانية والذي لم يستلم التراث اللاتيني.

تبقى الحقيقة، وهي سقوط آدم الأول وهو ما لم ينكره أحد، ثم عمومية الموت وفساد الطبع الإنساني وانتشار الفساد الأخلاقي، وهو ما سطره القديس أثناسيوس الرسولي في كتابه "تجسد الكلمة".

الصفحات التي سجَّلها د. جورج فرج تؤكد أن القديس ساويرس ولد وعاش في الفترة ما بين (٤٦٥ - ٥٣٨)، أي أنه عاش فترة الصراع الفكري بعد مجمع خلقدونية ٤٥١م، عاش منها قرابة عشرين عامًا في مصر. وقد انحاز القديس ساويرس إلى تعاليم الآباء الناطقين باليونانية، وبالأخص القديس كيرلس. وعبارة القديس ساويرس عن "الذين علمونا باليونانية" تعطي انطباعًا قويًّا بأن القديس ساويرس على معرفةٍ بالتعليم الذي ساد في الغرب باللاتينية، وعند القديس أغسطينوس تحديدًا عن وراثة خطية آدم (ص ٥١ من البحث المذكور).

المسألة الحرجة

هل توجد للشر أو للخطية طبيعة، أي كينونة تسمى الخطية أو الشر؟

للإجابة على هذا السؤال تفترق الطرق: طريق الأرثوذكسية، وطريق مدارس الغنوسية وهرطقة ماني:

حسب الأرثوذكسية: الله صالح ولا يخلق الشر.

حسب الهرطقات: يوجد إله شرير خلق الشر، وهو الذي جعل الشر يدخل حياة آدم، بل والإنسانية عن طريق التناسل.

والاستنتاج الصحيح هو أن طبيعة آدم قبل السقوط هي ذات الطبيعة بعد السقوط، لم تكن خالدة بل قابلة للموت، ولكنها كانت تستمد حياتها وخلودها من النعمة الإلهية، وبالخطية فقد آدم هذه النعمة الحافظة (ص ٤٦ من البحث المذكور)، وهو ما كرره الرسولي أثناسيوس في الفصول الأولى من كتاب

"تجسد الكلمة"، فقد دخل الموت بجسد إبليس وساد الموت على الإنسانية كلها.

فما هي إذن طبيعة الجسد الذي أخذه الله الكلمة؟ الجواب هو جسد آدم بعد السقوط لكي في هذا الجسد يقابل الله الكلمة موت وفساد الإنسانية.

وهنا يظهر اختلاف طريق الهرطقات عن طريق الأرثوذكسية في:

– وجود النفس قبل وجودها في الجسد ونزولها إلى عالم الجسد عقابًا لها (أفلاطون).

– وجود الشر في النفس وفي الجسد (الهرطقة المانوية).

وبالتالي، وراثة الخطية هو تعليم أفلاطوني يستند إلى فكرة وجود النفس قبل وجودها في الجسد، وإلى أن الشر في النفس وفي الجسد.

ويؤكد القديس ساويرس أن نصوص الكتاب المقدس لا تعلم بوراثة الذنب، موضحًا أننا نولد أموات ولا نولد أبدًا خطاةً أو مذنبين، ويقدم براهينه من الأسفار:

– "مَن هو الطاهر من الدنس، لا أحد حتى لو كانت حياته يومًا واحدًا على الأرض" (أيوب ١٤: ٤ – ٥)، وهو ما يتردد في أوشية الراقدين. ويؤكد القديس ساويرس أن هذا النص يعني ما ارتكبه الإنسان من خطايا أثناء حياته على الأرض، وليس ما ارتكبته النفس من أخطاء قبل أن تتحد بالجسد طبقًا لخرافة وجود النفس المسبق للجسد. فالنص إذن لا يعني أن الإنسان يولد مدنَّسًا بالخطية، بل يقول إن الحياة على الأرض هي ما تصنع الطاهر والدنس (ص ٦٤ – ٦٥ من البحث المشار إليه).

– "هانذا **في** الإثم صوِّرت و**في** الخطية حبلت بي أمي" (مز ٥٠: ٧). وهنا يؤكد القديس ساويرس أن هذا النص مثله مثل كثير من نصوص الكتاب

المقدس، لا ينبغي أن يؤخذ حرفيًّا، داود هنا لا يتحدث عن وراثة ذنب أو خطية، ولكنه يقر بخطيئته كما لو كانت حياته كلها منذ ولادته في الشر. مثله مثل بولس الذي يكتب لأهل غلاطية قائلًا إنه من بطن أمه أُفرز لخدمة الإنجيل وليبشر الأمم دون أن يذكر أنه كان مضطهدًا لكنيسة الله ومجدفًا ويتلفها بإفراط (غلا ١: ١٥) (ص ٦٥ – ٧٠ من البحث المشار إليه). ويجب أن نلاحظ أن تعبير **في الإثم** وكذلك تعبير **في الخطية**، ليس مثل تعبير بالخطية؛ لأن الإثم لم يصوِّر الإنسان، والخطية ليست سببًا للحبل، ولم يكن آدم قد حُبِلَ به.

– ثم شرح (رو ٥: ١٢ – ٢١)، وهو أهم نصوص العهد الجديد قاطبةً عند القديس أوغسطينوس، وهو شرحٌ مختلف عن شرح القديس يوحنا ذهبي الفم[1]. ويرجع القديس ساويرس الأنطاكي في شرحه لهذا النص إلى القديس يوحنا ذهبي الفم والقديس كيرلس الكبير.

شرح القديس ساويرس

الفكرة الرئيسية هي أن كل من ينادي بأن الخطية لها طبيعة حسيِّة تندمج في الجسد وتورَّث، فهو يتبنى ذات أفكار المانويين (ص ٥٢ من البحث المذكور). وهنا نجيء إلى مفترق الطرق، فالرب يسوع وُلِدَ من عذراء بالروح القدس، ليس لأن الزواج نجس، بل لأن الرب جاء لكي يمنحنا البنوة (يو ١: ١٣). وقد اتفق القديس ساويرس مع القديس كيرلس في أن الرب وُلِدَ من الروح القدس لكي نولد نحن من الروح القدس في مياه المعمودية (ص ٥٤ – ٥٥ من البحث المذكور).

(١) يجب أن نقدم الشكر للدكتور سعيد حكيم على مجهوده الكبير في ترجمة عظات ذهبي الفم على رسالة رومية، والتي نشرها المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية تحت رقم ١٧٤، القاهرة، ٢٠١٣.

الفصل الرابع عشر

أساسات التدبير
كما سُلِّمَت إلينا في الليتورجيات القبطية

"فأكلت بإرادتي"

يقولون في الأمثال الشعبية: مثل الغريق الذي يتعلق بقشة. تلك كانت القشة التي تعلق بها نيافة الأنبا رافائيل[1]. فهو يتعلق بعبارة أو أحيانًا كلمة واحدة لكي يبني عليها عقيدة! فقد أخذ كلمتين من قداس القديس غريغوريوس بدلًا من شرح "التدبير حسب التجسد"، لعله بكلمتين يؤكد سقوط آدم ووراثة الخطية.

هذا تصرف غير لاهوتي، ولا هو حتى فلسفي، لأن الإنسان يرث مَن مات، لا مَن يشاركه الأكل. فأن يموت آدم فنرث نحن الخطية، ذلك هو زعم الغنوسيين والمانويين حسب البحث اللاهوتي الذي جاء من مصدرين: سيادة بطريرك الكنيسة السريانية، والباحث د. جورج فرج في كتابه الخطية الجدية"، وهو ما نُشِر باللغة العربية عن القديس ساويرس الأنطاكي.

(١) في محاولة منه لإثبات وراثة الخطية من النصوص الليتورجية، قام نيافة الأنبا رافائيل بنشر كتاب بعنوان "أكلت بإرادتي"، صدر عن أسقفية الشباب، سلسلة دراسات في العقيدة القبطية الأرثوذكسية (٧٣).

وهنا تتملكنا الدهشة من الابتعاد عن مصادر التسليم الكنسي؛ التاريخ، صلوات الليتورجيات الشرقية، كتابات الآباء الشرقيين. وما إصرارنا على كتابات الآباء الشرقيين إلَّا تأكيد على دور هؤلاء الآباء، لاسيما أثناسيوس وكيرلس السكندري، في صياغة المنظومة اللاهوتية الشرقية طوال ٥٠٠ عام من تاريخ الكنيسة.

"أكملتَ التدبيرَ بالجسد"

نحن لسنا في الفردوس القديم، بل في فردوس المسيح الكنيسة، حسب تعبير القديس أثناسيوس (الرد على الأريوسيين ١: ١). وفي فردوس الكنيسة نعيش حيث شجرة الحياة.

التدبير حسب الجسد الذي أكمله الرب يسوع هو حسب صلاة الصلح:

"صرتَ لنا وسيطًا لدى الآب. الحاجز المتوسط نقضته. العداوة القديمة (بين البشرية والله) هدمتها" (أف ١: ١٤ – ١٥).

"أصلحت (صالحت) الأرضيين مع السمائيين" (كو ١: ٢٠ – أف ١: ١٤ – ١٦).

"وجعلت الاثنين واحدًا، وأكملت التدبير بالجسد" (الصعود).

"وملأت الكلَّ بلاهوتك" (كو ٢: ٩ – ١٠).

نحن في السماء مع الملائكة

"أنت الذي تسبحك الملائكة ويسجد لك رؤساء الملائكة"

"الذي أعطى الذين على الأرض تسبيح السيرافيم"

"اقبل منا نحن أيضًا أصواتنا مع غير المرئيين"

"احسبنا مع القوات السمائية".

وتتواصل الخدمة السمائية: يرسلون تسبحة الغلبة والخلاص الذي لنا بصوتٍ ممتلئ مجدًا ...."

التدبير الأول

"ليس شيءٌ من النطق يستطيع أن يُحُدَّ لجةَ محبتك للبشر"

ومن المزمور الثامن "أخضعت كلَّ شيء تحت قدميَّ"

"كتبتَ فيَّ صورة سلطانك" (تك ١: ٢٦).

"وضعتَ فيَّ موهبة النطق" (تجسد الكلمة: ٤).

"وفتحتَ ليّ الفردوس لأتنعم"

"أعطيتني علم معرفتك" (المعرفة اللاهوتية، ف ٤ – ٥ من تجسد الكلمة).

"**أظهرتَ لي شجرة الحياة**"، وهي التي نأكل منها في القداسات.

وإذ يعلو الإيقاع اللاهوتي مثل سيمفونية في صلاة القسمة، وغيرها، نرى أننا ندخل العلية مع التلاميذ: "يا من أعطى تلاميذه القديسين ورسله الأطهار في ذلك الزمان، الآن أيضًا يا سيدنا أعطنا وكل شعبك يا قادر على كل شيء الرب إلهنا".

إذن، **فنحن في التدبير الأخير** قبل المجيء الثاني، وبالتالي لا مكان للشجرة الأولى (شجرة معرفة الخير والشر)، وهي انعدام التمييز عند آدم حسبما

مرَّ بنا في شرح القديس إيرينيئوس وغيره من الآباء، وإنما نحن في الفردوس، الكنيسة، نأكل من شجرة الحياة، وهو ما نراه في التسليم الخاص بسبت الفرح:

"يا يسوع ذو الاسم المخلِّص ... وأنعمتَ علينا بشجرة الحياة التي هي جسدك الإلهي ودمك الحقيقي ..." (قسمة سبت الفرح).

التدبير في مراحل استعلانه

في صلوات سر المعمودية: "أدهنك يا (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد. زيت عظة (لفلان) في كنيسة الله الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية آمين"

"تفضل أن تنعم عليهم بالنمو في الإيمان وغفران الخطايا"

"أعدَّهم هيكلًا لروحك القدوس"

"ويُعتقوا من عبودية الفساد"

"ويكونوا متشبِّهين بابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح، صائرين واحدًا معه"

"أنت دعوت عبيدك هؤلاء الداخلين من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى الحياة"

"عَرِّهم من عتيقهم ... لكي لا يكونوا بعد أبناء الجسد، بل أبناء الحق"

"ليستحقوا حميم الميلاد الجديد واللباس غير الفاسد".

الانتماء إلى الكنيسة

"اجعلهم خرافًا للقطيع المقدس الذي لمسيحك. أعضاء نقية للكنيسة الجامعة"

"لكي لا يصيروا بعد أبناء الجسد، بل أبناء الملكوت".

تحوُّل الكيان

"نسألك يا ملكنا عن عبيدك: انقلهم

ابدلهم

قدِّسهم

وقوِّهم".

والنقل المقصـــود هنا هو ذات النقل الذي يحدث للخبز والخمر عند استدعاء الروح القدس: "فليتصور المسيح في الذين ينالون صبغة الميلاد"، وهذا كله، إنما هو استعلان يسوع المسيح "لأن ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح الذي نزل إلى لأردن وطهَّره شَهِدَ قائلًا: إن لم يولد أحد من الماء والروح لا يستطيع أن يدخل ملكوت السموات".

الدهور الخمسة للتدبير

كان المؤلف اللاهوتي Tyconius هو أول مَن قسَّـــم أزمنة التدبير إلى خمسة، وتبعه في ذلك القديس كيرلس السكندري وأوغسطينوس (الجلافيرا على التوراة: الخروج إلى التثنية، المجلد الثاني، ص ٣٣ من الترجمة الإنجليزية)[1]. وهذه الدهور هي حسب مثل الكرامين:

- الدهر الأول، وهو زمان آدم عندما كان لا يزال في الفردوس.

(١) راجع أيضًا الترجمة العربية للجلافيرا على أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية، د. جورج عوض إبراهيم، المركز الأرثوذكسي للدراسات الآبائية بالقاهرة، سلسلة نصوص آبائية ٢٠٤، يناير ٢٠١٨، ص ١٤٤ وما بعدها.

– الدهر الثاني، وهو الساعة الثالثة من النهار، وهو زمن نوح ومن معه.

– الدهور الثالث، وهو الساعة السادسة من النهار، وهو دعوة الله لإبراهيم.

– الدهر الرابع، وهو الساعة التاسعة من النهار، وهو زمن موسى والأنبياء.

– الدهر الخامس، وهو زمن نهاية النهار، الساعة الحادية عشر، وهو الزمن الذي تم فيه دعوة الأمم للعمل، وهو ما جعل للدهور نهاية، وهو آخر الدهور.

وهكذا تجيء عبارة "ملء الزمان" (غلا ٤: ٤)، لتعني نهاية مراحل التدبير.

لكل ما سبق، نرى مدى الغرابة في العودة إلى الفردوس الأول لنتعلق بقشة "أكلتُ بإرادتي"، ونترك شرح الآباء، وهو ما أوقع الكاتب في تناقضات لا حل لها. فيجب أن ننتبه إلى نهاية الفقرة التي وردت فيها قشة الأنبا رافائيل: "أنا اختطفت لي قضية الموت"، لا خطية آدم!

وإذا كنا نحن نعيش في زمن أو دهر التجديد (مت ١٩: ٢٨)، وهو زمن ملء الأزمنة (أف ١: ١٠)، فيسوع نفسه كان هو الزمان (لو ٢١: ٨)، أي وجوده في آخر مراحل التدبير (الأزمنة الأخيرة ١ تيمو ٤: ١)، فعلينا أن نسمع تنبيه الرب نفسه لتمييز الزمان (لو ١٢: ٥٦).

مَن يتعلق بقشة يريدنا:

١– أن نعود إلى ما قبل التجديد.

٢- أن يصبح التاريخ القديم كله في شخص آدم الأول هو الذي يشرح التدبير، فنسقط في فهم الأريوسية والنسطورية للتدبير، أي فصل الزمان الأخير، أو دهر الدهور، ورد يسوع ابن الله إلى ما خُلِق في الأيام الأولى، وهو ما يعني أن يسوع مخلوق.

هذا هو ما تصل إليه قشة الأنبا رافائيل.

الليتورجيا أيقونة الخلاص

حسب ترتيب الكنيسة، يبدأ القداس بعشية وباكر، أي برفع البخور، وهو تقدمة الكنيسة للثالوث، إذ لم يعُد لإسرائيل بخورًا تقدمه بعد أن انتهت العبادة. وجاء الصلب والقيامة بالعبادة أو بالخدمة الجديدة التي وصفها الرب يسوع نفسه بزمان التجديد (متى ١٩: ٢٨)، وهو زمان رد كل شيء إلى ما كان عليه سابقًا في البدء عندما خُلِقَ الإنسان (أع ٣: ٢١).

ملامح الأيقونة

١- سحق الموت "لأنه من قِبَل صليبه دخل الفرح إلى العالم كله. فنبارك الرب كل حين، ونمجد قيامته لأنه صبر وسحق الموت" (التسبحة السنوية، مديح القيامة).

المسيح "أبطل الموت وأهانه" (إبصالية واطس للثلاثة فتية القديسين).

٢- الحياة وُلدت "ولدتِ أيتها العذراء معطي الحياة وخلَّصتِ آدم من الخطية ومنحتِ حواء الفرح ..." (مديح القيامة).

"يا مَن لبستِ لباس السمائيين حتى سترتِ عري آدم بلباس النعمة ورددته مرة أخرى إلى الفردوس، موضع الفرح ومسكن القديسين" (ثيؤطوكية الأحد: ١٢).

٣- نحن في الفردوس: "الله هو عمانوئيل شـــجرة الحياة عديمة الموت" (إبصالية الاثنين).

٤- "الســـلام لبيت لحم مدينة الأنبياء التي ولد فيها المســـيح آدم الثاني لكي يرد الإنســـان الأول الترابي إلى الفردوس ... ويحل قضـــية الموت" (ثيؤطوكية الاثنين: ٧).

٥- "هذا الذي أصـــعد ذاته ذبيحةً مقبولةً على الصـــليب فاشـــتمه أبوه الصـــالح وقت المســـاء على الجلجثة. فتح باب الفردوس ورد آدم إلى رئاســـته مرةً أخرى" (ثيؤطوكية الأحد: ١٥).

٦- ذهب الرب إلى الجحيم وأصـــعد الســـبي من ذلك المكان، وأنعمت علينا مرة أخرى بالحرية كإلهٍ صالحٍ لأنك قمت وخلصتنا" (ثيؤطوكية الأحد: ١٦).

أيقونة الخلاص في ثيؤطوكية يوم الاثنين

"آدم فيما هو حزين

سُرَّ الربُّ أن يرده إلى رئاسته

أشرق جسديًّا من العذراء بغير زرع بشر" (القطعة الأولى).

مسرة الرب وفرحه بخلاص الإنسان "لأنه غُلِبَ من تحننه وأرسل لنا ذراعه العالية" (القطعة الخامسة).

إذن، لم يكن الرب غاضبًا علينا، بل سُرَّ أن يخلصنا.

وحتى حوَّاء سبب الغواية "تحنن الرب من قبل محبته للبشر وسُرَّ مرةً أخرى أن يعتقها" (القطعة الثانية).

وهكذا وجب علينا أن نفرح "افرحوا وتهللوا يا جنس البشـــر لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الحبيب عن المؤمنين به لكي يحيوا إلى الأبد". وهكذا دخلت كلمات يوحنا ٣: ١٦ في الحياة الليتورجية، فصارت مرتبطة بالحياة الأبدية ولم تذكر إلَّا البشـــارة: افرحوا وتهللوا لأن الله أحب العالم، وجاء لكي يحل قضية الموت لا لكي يدفع ثمن خطايا.

"ويحل قضـــية الموت: إنك يا آدم ترابٌ وإلى التراب تعود" (القطعة السابعة).

وهي نفس كلمات القديس أثناسيوس الرسولي:

"الله الذي قال إنك ترابٌ وإلى التراب تعود، وصـــار البشـــر مائتين، إذن كيف يقدر المخلوقين أن يُبطِلوا الخطية؟ الرب وحده هو الذي أبطلها، لأنه هو الذي قال بنفسه إن ل يحركم الابن ... لأنه الكلمة الذاتي وصورة جوهر الآب، وهو الذي أصدر الحكم في البدء وهو الذي صفح عن الخطايا، وإذ قيل بواسطة الكلمة أنت تراب وإلى التراب تعود، هكذا أيضًـــا تحققت الحرية بالكلمة نفســـه وفيه وبه قد صار إبطال الدينونة" (ضد الأريوسيين ٢: ٦٧)

خطية آدم وفقدان الروح القدس

في شرحٍ موسَّعٍ لمعمودية الرب في الأردن، كان شرح القديس كيرلس وافيًا. فَقَدَ آدم الروح القدس بالســـقوط، وتحولت الحياة إلى حياة أرضـــية، أي إلى ذات المصـــدر الذي وُلِدَت منه الحياة. فالعودة إلى الأم، أي إلى الأرض ليســـت عودة مثالية، بل عودة إلى ما هو تحت قدمي الإنســـان، أي التراب. ولكن لما جاء الرب أعاد الروح القدس الغائب والذي سكن في بعض البشر مثل الأنبياء والملوك مؤقَّتًا إلى أن جاء الرب يسوع وقبل الروح القدس من الآب ومسحه الروح لأجلنا، فقد افتقر وهو الغني لكي نغتني نحن بفقره (٢ كور ٧: ٦). هذا أطلق عليه الرســـول "نعمة ربنا يوع المسيح أنه من أجلكم افتقر وهو الغني ...".

نعمة الروح القدس

أعاد الرب إلينا نعمة الروح القدس في معموديته، وما أخذه عندما اعتمد من يوحنا أعطاه لنا بعد قيامته بنفخة الروح القدس (وهي تُعطى لنا في سر المعمودية بعد الرشم بالميرون).

وهكذا تظهر ملامح أيقونة الخلاص:

- رد آدم وبنيه إلى رئاسته مرةً أخرى.

- فرح حواء بمسرة الآب بخلاص الإنسانية.

وبالتالي لا مكان لوراثة الخطية لأن قانون الوراثة لمندل يؤكد أن الأفعال المكتسبة لا تورَّث.

وراثة الخطية وتدبير الخلاص

مما سبق يظهر بكل جلاء أننا في التسبحة السنوية، كما في القداسات لا مجال بالمرة للوقوف عند فردوس سفر التكوين، لأننا الآن في "الفردوس العقلي"، وصارت مريم هي السماء الثانية، ولأن الذي على الشاروبيم أتى وتجسد منكِ **حتى أتْحَدَنا به** من قبل خلاصه (ثيؤطوكية الجمعة).

وفي ثيؤطوكية الجمعة، نرد على كل مقطع:

"هو أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له".

ولذلك تأتي الكلمات:

"هو أخذ جسدنا وأعطانا روحه القدوس، وجعلنا واحدًا معه Ꮚⲟⲩⲁⲓ ⲛⲉⲙⲁϥ".

فالاتحاد بالرب يعطى لنا على أساس تجسده، لأنه استعلان الحياة.

لأن "مريم هي السماء الثانية الجديدة التي على الأرض. المشرقة لنا منها شمس البر" (ثيؤطوكية الخميس).

ولاحظ أن فعل طأطأ السموات Ⲁϥⲉⲣ Ⲛⲓⲫⲏⲟⲩⲓ هو نفس الفعل الذي يقال في صلاة التحليل: "الذي طأطأ السموات ونزل من أجل خلاص جنس البشر"، هو استعلان حركة الثالوث القدوس في الابن الوحيد. وباب الفردوس الذي أُغلِقَ بسبب حواء "مِن قِبَل مريم العذراء فُتِحَ لنا مرةً أخرى. استحققنا شجرة الحياة لنأكل منها، أي جسد الله ودمه الحقيقيين"[1] (ثيؤطوكية الخميس).

"السلام للفردوس الناطق للمسيح الذي صار آدم الثاني من أجل آدم الأول" (ثيؤطوكية الأربعاء). فهذا الفردوس ليس هو جنة الأشجار في تكوين ١ — ٣، بل هو يسوع نفسه وأمه العذراء التي ولدت آدم الثاني، لا لكي يحل زلة الإنسان الأول فقط، بل لكي يعطي لنا جسده ودمه. وهنا أمام "معمل الاتحاد غير المفترق الذي للطبائع التي أتت معًا إلى موضعٍ واحدٍ بغير اختلاط". وقد استُخدِمت هنا كلمة الطبائع لأن اللغة القبطية لا تعرف صيغة المثنى، ولذلك جاءت الكلمة Ⲛⲓⲫⲩⲥⲓⲥ فهو اتحاد غير مفترق واتحاد بغير اختلاط لكي ننال نحن الاتحاد به.

وهكذا نرسل الشيرات لأم النور ولكل القديسين لأننا اتحدنا بهم في المسيح، وهؤلاء هم في الفردوس الناطق، أي المسيح الإله.

وحتى في القرن الـ ١٣ يقول بولس البوشي في ميمر أو عظة على عيد الغطاس: "خلَّص الشَبَه بشَبَهِه، النفسُ (نفس المسيح الرب) مضت إلى الجحيم

---

(١) كان المتنيح الأستاذ يسى عبد المسيح أمين المتحف القبطي يقول لي إنه يرتعد عند سماع كلمات: جسد الله.

متحدة بلاهوته، خلَّصت الأنفس، والجسد على الصليب متحد بلاهوته أقام الأجساد" (راجع ميامر الأعياد السيدية، تحقيق ومراجعة الشهيد الأنبا أبيفانيوس، ص ١٨١).

وبمراجعة كل الميامر، يتضح لنا أن الفكر اللاهوتي هو في "أن الحياة جاءت إلينا بالتجسد وأُعطيت لنا بالصليب والقيامة، ونوال الروح القدس بمعمودية الرب في الأردن والميلاد الجديد أخذ مكانه في حياتنا بمن جدد الخليقة بميلاد ثان لا يبلى من فوق من عند أبي الأنوار" (المرجع السابق، ص ١٢٣).

المحور الكنسي والمحور المعاصر

لعل العبارات السابقة، لاسيما:

"آدم فيما هو حزين

سُرَّ الربُّ أن يخلِّصه" (ثيؤطوكية الاثنين: القطعة الأولى)،

تؤكد لنا مسرة وفرح الرب بخلاص الإنسان، أو كما يعبِّر القداس الغريغوري: "ربطتني بكل الأدوية المؤدية إلى الحياة – أرسلت لي الأنبياء من أجلي أنا المريض"، بل ولعل هذه الكلمات تؤكد لنا ما هو جوهر منظومة الليتورجيا: "أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك"، وهي تعبير عن صلاح الله الذي لا يُدرَك.

هنا يجب أن نقارن بين منظومة الليتورجيا ومنظومة العصر الوسيط الأوربي الذي بدأ برئيس أساقفة كانتربري؛ أنسلم Anselm (١٠٣٣ – ١١٠٥).

– إهانة كرامة الله – خطية غير محدودة – الخطية اعتداءٌ على الله.

– عقوبة غير محدودة.

– ضرورة مجيء فادي غير محدود يرد لله كرامته التي أُهينت.

وهو التعليم الذي تم اختزاله في القضايا الثلاثة الآتية:

– خطية غير محدودة.

– عقاب غير محدود.

– فادي غير محدود.

أما التسبحة السنوية والقداس الغريغوري فيؤكدان لنا العكس:

– عندما أخطأ الإنسان، وأكل بإرادته، **حوَّل الآبُ العقوبةَ خلاصًا.**

– **فالله لم يُعاقِب أولًا، ثم أتم الخلاص؛ لأن تحول الشيء إلى عكسه، أي من عقوبة إلى خلاص، يؤكد أن العقوبة لم تحدث، وأن الموت خلَّص الإنسان من البقاء في الموت إلى الأبد،** وهو ما أكَّده القديس غريغوريوس النزينزي[1]، ولذلك كان نزول الرب إلى الجحيم.

وهكذا، يجب أن نميِّز بين صلاح الله الآب الذي سعى إلى خلاص الإنسان "كنورٍ حقيقيٍّ أشرقت للضالين وغير العارفين"، والتعليم بأن الرب يسوع جاء لكي يخلصنا من الآب الغاضب، وهي فكرة تقترب كثيرًا من الغنوسية التي تعلم بإله خلق الكون المادي لكي يعاقِب الإنسان، وهي فكرة لا تتفق بالمرة مع صلاح الله ومحبته التي عبَّر عنها القداس الغريغوري بأوضح صورة ممكنة:

– "خلقتني إنسانًا لأنك محب للبشر". فخلق الإنسان هو فيض الصلاح

(1) راجع كتابنا: وراثة الخطية أم سيادة الموت؟ جذور للنشر، القاهرة، ٢٠١٤، ص ٩١ حيث يقول: "أبي الأول نسى الوصية التي أُعطيت له واشتهى الثمرة المحرمة، وعندما أخطأ طُرِدَ من الفردوس ومن الله، ولبس قمصان الجلد الخشنة، أي صار جسده مائتًا ... وهنا جعل الله الموتَ هو (السكين) الذي يقطع الخطية لكي لا يكون الشرّ أبديًّا، فصارت العقوبة رحمةً، لأنه بالرحمة –كما أعتقد– يؤدِّب اللهُ" (مقالة ٤٥: ٩).

الإلهي (تجسد الكلمة: ٣: ٣).

– وحاجة الإنسان إلى ربوبية الله، هي حاجة الصورة إلى الأصل، أي صورة الله التي وُهِبَت للإنسان لكي تؤدي إلى كمال الوجود الإلهي، وهي شركة الإنسان في الحياة الإلهية (تجسد الكلمة ٣: ٣، ٥: ١).

– "لم تدعني معوزًا شيئًا من أعمال كرامتك – كتبت فيَّ صورة سلطانك"، ولذلك كان من الضروري أن يتحول حكم الموت (الأصل اليوناني هو "الحكم"، وليس كما ورد في النص العربي "العقوبة")، إلى خلاص، وهو ما تؤكده العبارات التي تلت ذلك:

– "كراعٍ صالحٍ سعيت في طلب الضال"، وليس كإله غاضبٍ يريد معاقبة الإنسان.

– "كأبٍ حقيقيٍّ تعبت معي أنا الذي سقط"، لا كَمَنْ يتربَّص بالإنسان لكي يعاقبه.

– "الكائن في كل زمان"، جاء إلينا على الأرض دون أن نطلب نحن البشر، ودون أن تفعل البشرية شيئًا، بل بفيض محبته للبشر:

* أخذت شكل العبد،

* باركت طبيعتي فيك،

* أكملت شريعتك عني،

* أريتني القيام من سقطتي، وليس مجرد غفران.

* أعطيت إطلاقًا لمن قُبِضَ عليهم في الجحيم (أف ٤: ٩ – ١٠).

* أزلت لعنة الشريعة

* أبطلت الخطيةَ بالجسد (أف ١: ٧ – ١٠).

هذه هي منظومة الليتورجيا، نراها في تسبيح الأبصلمودية، في الثيؤطوكيات والإبصاليات التي تؤكد لنا أن ما كان ناقصًا عند الإنسان، يقدمه الله بغزارة: "لبستِ لباس السمائيين حتى سترتِ عري آدم بلباس النعمة"، لأن "الله الذي هو غنيٌّ في الرحمة، من أجل محبته الكثيرة التي أحبَّنا بها، ونحن أمواتٌ بالخطايا أحيانا مع المسيح" (أف ٢: ٤).

ويبقى التحدي الحقيقي، وهو "أن نمارس ما نصلِّيه ونصلي ما نمارسه"، ومن الواضح أنه لا ممارسة في الليتورجيا لمصالحة العدل مع الرحمة. ولا مجال لممارسة الآب الغاضب على الابن المتجسد، لأن الأمر هنا ليس أكثر من فكرة عقلية يتذكرها الإنسان ويعيد تذكُّرها من آن لآخر، وهو ما يحول الصلاة إلى سلسلة من الأفكار التي تقال دون أن تمس حياة الإنسان.

ممارسة ما نطلبه

منذ بداية القداس: "اظهِر وجهك على هذا الخبز، وعلى هذه الكأس ... وانقلهما لكي يصير هذا الخبز جسدك المقدس، وهذا المزيج الذي في هذه الكأس يصير دمك الكريم".

وماذا نأخذ:

"ليكون لنا ارتقاءً وشفاءً وخلاصًا ...".

والشفاء والخلاص هو ما يؤكده القديس أثناسيوس في رده على أريوس، عندما يقول إن ما ناله الجنس البشري "عندما أُعيد تأسيسه؛ القيامة من الأموات، وهي النعمة الأعظم من نعمة الخلق، وأننا سنملك مع المسيح في السموات إلى

الأبد". ويضع القديس أثناسيوس القاعدة الأبدية: "الله أكمل الجنس البشري عندما لبس الكلمة خالق الإنسان، الجسد". ويتحدى هرطقة أريوس: "لأنه لو كان مخلوقًا ثم صار إنسانًا، فإن الإنسان يبقى كما كان دون أن يتَّحد بالله، بل سيعود إلى تراب" (راجع ضد الأريوسيين ٢: ٦٧).

الخطية الأصلية والممارسة الليتورجية

لا أفهم تلك الحمى والنار المشتعلة إلى حد اتهام كل من يرفض تعليم أوغسطينوس بوراثة الخطية بأنه هرطوقي، وكأن رفض القديس ساويرس الأنطاكي يعد أيضًا اتهام له بالهرطقة!

لكن ثمة قضية أكبر وأهم من الاتهام بالهرطقة، وهي ما هي صورة الإنسان طبقًا لتصورات العصر الوسيط؟ هل هو صورة الله حقًّا؟ وهل يمكن أن يكون صورة الله وهو مقيَّد بخطية حدثت في زمان بعيد في "الفردوس"؟ هل يمكن للصورة أن تُخلَق مشوَّهةً بذنب آخر؟ ولعلنا نلاحظ أن السؤال هنا لا يبحث في الذنب، وإنما في القيد في سلسلة الانتساب إلى آدم، وهي سلسلة قُطِعَت بميلاد الله الكلمة من العذراء. وهنا يصبح اختراع "الحبل بلا دنس" اختراعًا فريدًا لأن الذين اخترعوه وجدوا ضرورة قصوى –طبقًا للقول بوراثة خطية آدم– لأن تكون العذراء أُمنا جميعًا وُلِدَت بدون خطية، وأن الروح القدس حلَّ عليها هي لكي يطهرها من خطية آدم لكي تلد الله الكلمة. وهو كلامٌ قد يبدو منطقيًّا ومقبول عقليًّا، ولكنه مرفوض تمامًا للأسباب الآتية:

أولًا: لأن الأسفار المقدسة لم تقدم لنا أي نص عن خطية آدم التي يرثها جميع البشر، وضاع قول النبي حزقيال: "النفس التي تخطيء تموت" (حز ٢٠: ٢٨). ويقول الله نفسه: "في تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست. بل كل واحد يموت بذنبه. كل إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه".

ثانيًا: صحيح أن الله يقول لموسى في سفر الخروج: "مفتقد إثم الآباء في الأبناء وفي أبناء الأبناء في الجيل الثالث والرابع" (خر ٣٤: ٦ – ٧)، ولكن المعنى الواضح هو جيل الأبناء الذين زرع آباؤهم العبادة الوثنية لأن الله "اسمه غيور. الله غيور هو" (خر ٣٤: ١٤). ولا يجب أن ننسى أن هذه الكلمات دُوِّنت للمرة الثانية بعد كسر لوحي العهد بسب عبادة العجل الذهبي، وكسر موسى اللوحين حتى لا تتم إدانة شعب إسرائيل، وهذا هو السبب في استخدام كلمة "إثم"، وليس كلمة خطية، لأن الإثم هو خطية الشعب.

المسيح آدم الثاني

١– إذا ارتبطنا بآدم الأول وأضفنا إليه آدم الثاني، أي الخطية والنعمة، فسوف تصبح هذه الازدواجية معنا كل أيام حياتنا، وهي بمثابة تمزيق للوجود المسيحي، وحشره في الماضي البعيد الذي نهى عنه الأنبياء، لاسيما أرميا (٣١: ٢٩ – ٣٠)، وهو ليس ضد ما ورد في سفر الخروج، بل ضد توسع بنو إسرائيل في الارتباط بالماضي، ولذلك يقول النبي أرميا: "في تلك الأيام لا يقولون بعد الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست، بل كل واحد يموت بذنبه".

٢– عندما تقول التسبحة إن المسيح لبس ثوب آدم لكي يعطيه الثوب السمائي، وأنه أخذ الذي لنا وأعطانا روحه القدوس، فإننا لسنا ذيول الماضي، بل أيقونات الرب المحيي الموزَّع علينا جسده ودمه لكي يكون لنا ارتقاءً من الماضي إلى الحاضر، بل وإلى المستقبل، وهو القيامة بجسد مجد الابن الوحيد (فيلبي ٣: ٢١).

خاتمة

الأسباب اللاهوتية والتاريخية لرفض وراثة الخطية[1]

١- لعل القارئ الذي لم يَعِش أزمة الحداثة وما بعد الحداثة في الغرب، لا يدرك مدى حيرة، بل وعدم قناعة الإنسان المعاصر بفكرة ميلاد أي إنسان حاملًا ذنبًا لم يرتكبه. ذنبٌ حدث في الماضي البعيد، أي منذ ٥٥٠٠ عام طبقًا لحساب علماء السبعينية (من خلق آدم إلى المسيح)، يضاف إليها الآن ٢٠٠٠ ليصبح المجموع ٧٠٠٠ سنة، وهو زمنٌ طويلٌ أيًا كانت طريقة حسابه.

ذلك؛ لأن الزمان البعيد هو مجرد فكرة في ذاكرة الإنسان، أو في الكتب، ليس لها مرجعية في الواقع اليومي الذي يحياه في الزمن المعاصر، في الوقت الذي يسعى الجيل الذي ننتمي إليه، محاولًا أن يجد تعريفًا لوجوده الحقيقي، بينما ٥٥٠٠ سنة أو أقل أو أكثر لا تشكل مرجعية تنتمي إلى الواقع المعاش.

إن الموت هو انعدام النمو، أي توقف الحياة العقلية والروحية، وتوقف نمو الحياة الجسدانية حسب قوانين الجسد. والاعتقاد بأن مصدر الخطية هو آدم البعيد هو الذي أدَّى إلى أن تهمل مناهج التربية الكنسية موضوع النمو الإنساني، بينما

(١) ملحق سبق أن نشرناه في كتابنا؛ وراثة الخطية أم سيادة الموت.

لم تلتفت هذه المناهج إلى عبارة بولس رسول المسيح: "كما في آدم يموت الجميع"، بما تحتويه من دلالة على أن كل إنسانٍ منَّا هو آدم.

إن المعضلة الحقيقية هي محاولة شرح الواقع بناءً على فكرة عن حدثٍ تم في الماضي السحيق، دون أن ندرك أن آثار ما حدث في الماضي هو ما ترسَّب فينا، أي الموت نفسه. وعلى ذلك، نجد أن التعليم بالخطية الأصلية يُعدُّ سببًا من أسباب أزمة الإنسان المعاصر أمام البحث عن إجابات عن الأسئلة الحائرة التي تعبِّر عنها هذه المعضلة:

* إن عدم توفر الإرادة الحرة، هو أهم جانب في مسئولية الإنسان عن الشر أو الخطية التي يتم تحميله إياها.

* وعدم وجود، أو عدم توفر الإرادة الحرة يعني أننا نولد مثقَّلين بذنب لم نرتكبه، والمسألة هنا ليست مسألة عدل أو عدم عدل، بل هي قبل أي شيء آخر تشويه الإنسان بتاريخ قديم لم يكن له يد ولا دخل فيه.

٢- أمَّا عن وراثة الموت، فذلك أسهل وأكثر واقعية، ليس فقط بسبب عمومية الموت، بل لأن تضامن الجنس البشري يحمل في داخله أخطر مسئولية. ومثال ذلك هلاك ملايين البشر في الحرب العالمية الثانية بسبب أخطاء وشرور زعامات مثل هتلر وموسوليني. بل إذا صدقت المراجع التاريخية في أن ستالين أعدم ٢٠ مليون روسي في برنامج الإصلاح الزراعي وتطهير الاتحاد السوفيتي من خصومه، ولذلك فإن الانقضاض على النظام الاشتراكي كان حتميًا، بعد أن ذاعت وثائق التعذيب والقتل الجماعي الذي دفعت أُسرٌ وأفرادٌ حياتهم ثمنًا له. نحن نرث ثمار أفعال السابقين. مَن يدمن الخمر ويبدد ثروته، ترث أسرته الفقر. بل لعل انتشار فيروس HIV الذي ينتقل بواسطة الاتصالات الجنسية يمس حياة أطفال يولدون بوراثة المرض (انعدام المناعة)، يؤكد ما نقول.

إن تضامن ووحدة الجنس البشري سلبًا أو إيجابًا هو الذي يخلق ما لدينا

من ظروف انتشار الفساد والشر الذي قد يبدأ بواحد أو أكثر لكي ينتقل بعد ذلك إلى أسرة، بل وإلى وطن.

٣- واختراع شرٍّ من الشرور ينقل بالتعليم وبالمعاشرة وبالإعلام في عصرنا الحاضر؛ لأن كاميرات التصوير دخلت إلى أدق أسرار الحياة الإنسانية لكي تخلق أسرى اللذات الحسية الذين يريدون الشبع الجنسي، دون التزام أو محبة أو مشاركة حقيقية في الحياة بالزواج وقبول التضحية. هكذا رأينا الشر ينتقل من شخص إلى آخر بواسطة أدوات المعرفة لا بواسطة الخلايا الوراثية DNA.

٤- لقد عرضنا للأسباب التاريخية، وهو ما ظهر في تأثير الغنوسية والمانوية على نظرة البعض للجسد واعتباره أداةً الشر. لكن الآن، أي في زماننا، أصبح هذا الرأي مرفوضًا؛ لأن ما في الجسد مهمًا كان، تم زراعته واستوطن في الجسد بواسطة العقل والمشاعر والإرادة، وصار يحارِب مَن زرعه لأنه نشأ بسلطان حرية الإرادة التي رأت أن الشر = الخير، وهو العمى الروحي الشائع عندنا كبشر.

وما أكدنا عليه هنا هو أن التعليم بوراثة خطية آدم وذنب آدم هو تطور غربي لم يعرفه الشرق في زمن الآباء. إذن، فنحن أمام سببين: الأول هو توطن المانوية والغنوسية، والثاني هو التطور الفكري الغربي نتيجة توطن المانوية بالذات في كتابات القديس أوغسطينوس، ونحن لا نؤمن بعصمة أيٍّ من قديسي الكنيسة شرقًا أو غربًا.

٥- أما الأسباب اللاهوتية، فهي واضحة كما ذكرنا عبر الصفحات السابقة، ويمكن أن نجمعها كما يلي:

أولًا: إذا كانت مشكلة الإنسان هي وراثة الخطية، فالله يستطيع أن يغيِّر قانون الوراثة وتصبح التوبة كافية. ولكن التوبة كانت وستظل غير كافية، ليس بسبب الخطية، بل بسبب سيادة الموت. هذه السيادة لا يمكن القضاء عليها إلَّا بواسطة التدخل الإلهي المباشر.

ثانيًا: لو كانت وراثة الخطية هي المشـــكلة التي من أجلها جاء المســـيح، فنحن جميعًا خطاة حتى بعد الميلاد الثاني، والذي بلا خطية وحده هو المســـيح. ولكن لأن الرب يسوع هو وحده بلا خطية وغالب الموت والفساد، فقد نقل إلينا الرب هذا بالشركة في حياته الإلهية المتجسدة.

ثالثًا: لقد أباد الربُّ الموتَ بالصـــلب والقيامة، وبذلك أباد جذر الخطية، أي الموت؛ لأن الجذر الأول الفاسد آدم هو سبب مرض شجرة الأسرة الإنسانية كلها. وقد أصاب الموتُ البشرَ بالشر؛ لأن الموت حوَّل الحياة الإنسانية إلى دفاع عن الحياة بأي ثمن، والثمن هو التعدي.

رابعًا: نحن في حاجة دائمة إلى اكتشـــاف ذلك الجذر الذي يدفعنا إلى: العدوان – التصلف – العناد – الكذب، بل والقتل، وغيرها من شرورٍ هي دفاعنا عن كيانٍ ضَرَبَ الموتُ فيه الحياة.

وحقًا ما قاله الأب صفرونيوس في أكثر من مناسبة: إن الموت هو "الداء الخفي"[1].

(1) راجع رسالته: الخوف، أنواعه وعلاجه في الحياة الروحية الأرثوذكسية، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، عدة طبعات.